جوزف الهاشم

سليمان البستاني والإلياذة

منشورات
دار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر

Title [redacted]

Author [redacted]

Accession No. [redacted]

Call No. [redacted]

Borrower's No.	Issue Date	Borrower's No.	Issue Date

سليمان البستاني
والإلياذة

بقلم

جوزف الهاشم

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر
بيروت

الطبعة الثانية ايلول ١٩٦٠



سليمان البستاني

مقدّمة
الطبعة الأولى

هذه الدراسة ، كانت فكرة في الخاطر منـــذ سنوات ، ولكن عوائق العمل حالت دون تحقيقها . فكأنها - وان على غير وعي منها أو شعور - ظلّت على موعد مـع البستاني في الذكرى المئوية الأولى لمولده ، لتقدّم نفسها محاولة متواضعة في الكشف عن شخصية رجل التقى فيه السياسي بالاديب ، ففرض ذاته في الحالين : وزيراً في طليعة العاملين للقضية العربية العثمانية ، وأديباً من روّاد النهضـــة العربية الحديثة .

وفي سبيل تركيزه في اطاره ، قمت بدراسه مقتضبة لما يتّصل بـه من امور . فقد تناولت بلمحة اجمالية - في بحثه كناقد مثلاً - اهمّ مذاهب النقد التي عرفها في الأدبين العربي والغربي ، ثم تطرّقت إلى حالة النقد في عصره بما فيها من اهتمام باللغة واساليب البيان عند العرب ، ومن ميل إلى لون جديد عند الأوروبيين : هو الأدب المقارن . وعطفت بعد ذاك إلى جهده الشخصي في هذا الباب ، سواء في المنهج العام بما يستند اليه من استقراء وتعليل واستنتاج ، أو في مقابلة الآداب وقد جمع فيها بين الأدب المقارن والأدب الكلي بمفهومه الواسع ، فمهر اللغة بالبحث المنهجي المركـّز ، على استفاضة وشمول .

ولم اتعرض للالياذة إلا بقدر ما اتّصل بها المعرب ، اي تعريباً وشرحاً وتقديماً . ولذا كان توقفي على موضوعها وفنها الملحمي وشاعريتها وشخصيات ابطالها ضئيلاً ، إذ المقصود في هذه الدراسة البستاني في علاقته بالالياذة ، وليس المنظومة بحدّ ذاتها .

وانني أتقدم بخالص الشكر للأصدقاء الكرام الذين تلطّفوا فأمدُّوني بمعلوماتهم القيّمة عن حياة المترجم له وبنسخٍ من مخطوطاته . وأخصّ منهم سيادة المطران اغوسطين البستاني رئيس اساقفة صيدا ، والاستاذ فؤاد افرام البستاني رئيس الجامعة اللبنانية ، واسعد بك البستاني مدير البوليس العدلي ونائب جبل لبنان سابقاً ، والاستاذ سعيد عقل الشاعر المبدع وصاحب قدموس .

والله وليّ التوفيق

بيروت في العاشر من شهر كانون الاول سنة ١٩٥٦

ج . ه .

رسالة

لنا في كل حقبة من الزمن ، موعد مع التاريخ ولقاء .
ما كان لبنان ، منذ كان ، إلا انفتاحاً على الغير ، اي غير .
يأخذ بمقدار ليعطي بدون حساب .
قرَّب أرضاً لأرض ، يوم شدَّ مراكبه إلى الأبعاد ؛
ووصل فكراً بفكر ، يوم نشر حرفه على الآفاق ؛
وضمّ غرباً لشرق ، يوم صهر المادة بقالب الروح ؛
فأسهم بحضارات مهرت التاريخ قديماً بخير مـا يعتزّ به على الدهر ،
وإذا رسالته : خلق لهدي ، ووصل لقطع .

ويسير الزمن . وتبعد الشقة بـين الامس واليوم . فتنفصم روابط الشرق والغرب ، ويضرب كلّ في جادّتـه ، لا يلتقيان إلا على سياسة خرقاء أو حرب ضروس . اما امتزاج حضاري ، وأخذ ثقافي ، فـلا سبيل اليهما وسط هذا التباعد والانـكماش .

ويستفيق اللبناني على دوره في تقريب الفكر ومزج الحضارة ، وإذا سلسلة من العلماء والأدباء تنهض لوصل مـا انقطع ، مقتبسة مرة ، ناقلة اخرى ، ممتدة طيلة ثلاثة قرون لتنتهي إلى محاولة ضخمة في عالم الادب ، يقدم عليها بجرأة ومضاء ، مترجمنا البستاني .

وكأني بعمر فاخوري ، قد نظر إلى هذه الحقائق المتجدّدة حين قال : « سيظلّ لبنان ، حيث هو وحيث كان من الطبيعـة ومن التاريخ ، صلة وصل بين الشرق والغرب اللذين يلتقيان فيـه . لقد كانت ثقافة لبنان هي المثلى ، ورسالته في الدنيـا هي الفضلى : ثقافة تمازج ورسالة تواصل » .

الرَجُل

فتح الموت ، حين اغمض عينيه ، عيون الورى على حسناته
فهو ماض له جلالة آت   من فتوحاته ومن غزواتـه
والفـتى العبقري يولد اذ يولد في مهـــده ويوم وفاتـه
كان في دولـة السيوف وزيراً المعياً ، ودولة في ذاتـه

ايليا ابو ماضي

حياته

١٨٥٦ - ١٩٢٥

نشأة ودراسة (١٨٥٦ - ١٨٧٨)

في مشرف على التلّ ، تنبسط منه العين على زرقة البحر وهدأة الشط ، وتنطلق بلفتة اخرى إلى الجبل المصعّد في الفضاء ، قام بيت من حجر ليس بالضخم ولا بالغني المظهر ، خلعت عليه الايام طابع العصر والقدم ، ولفّته الطبيعة باخضرار دائم من سنديان وعفص ، ونثرت حوله يد الانسان حفنة من المساكن المتواضعة .

ذلك البناء هو دار خطّار بن سلوم البستاني ، وتلك البقعة هي مزرعته بكشتين على رمية الباع من قرية الدبّية ، في الساحل الشوفي من جبل لبنان .

وفي ليلة من ليالي نوّار لمئة سنة خلت - وكان ذلك في الثاني والعشرين منه عام ١٨٥٦ على وجه التحديد - تملّك المزرعة نوع من القلق والأمل معاً ، وهي حالة يدركها من عرف انتظار المولود البكر في الحياة اللبنانية : قلق من ان يكون هذا المولود انثى «فتحزن عتبة البيت» ، وأمل بأن يمنّ الله «بعريس» فيحفظ اسم العائلة وينتقل في

الناس جيلاً بعد جيل . ولقد كان لبكشتين ان تحقق أملها آنئذ بالطفل سليمان ، بكر البستانيّين خطار بن سلوم نادر ، ومريم ابنة الخوري جريس.

درج الصبي وترعرع على مكارم الخلق ونبل الخلال يأخذها عن أبويه ، وعلى التديّن والتقوى وحب العلم والقريب يقبسها من عمه المطران عبد الله ١ حتى اذا بلغ السابعة من سنيه ، وكان قد تلقّى مبادىء العربية والسريانية وظهرت نجابته على حداثة عهده ، الحقه أبوه بالمدرسة الوطنية في بيروت لنسيبه بطرس البستاني ، فأقام فيها ثماني سنوات يكد ويجهد على اساتذة كبار كالشيخين ناصيف اليازجي ويوسف الاسير . وكان في هذه الحقبة مثال الطالب النهم للمعرفة لا يدع لها باباً إلا ولجه . والمطيع لأساتذته لا يرد لهم امراً ، والرفيق بزملائه لا يلحق بأحدهم أذى ولو بكلمة جافية . فأحبه الجميع للطف معشره ، وصدق وداده ، ونفاذ بصيرته .

اتقن العلوم التي في مدرسته ، وتضلع من اللغتين العربية والانكليزية . وألمّ بالفرنسية والسريانية ، يساعده على ذلك ذكاء حاد وذاكرة غريبة حتى ليحفظ غيباً — كما يذكر في مقدمة الالياذة — ملحمة ملتن « الفردوس المفقود » ويسرد منها نشيداً كاملاً ونصف الثاني مع قسم غير يسير من منظومة سيدة البحار لولتر سكت ، ويستظهر الفية ابن مالك فينشد منها مائتي بيت تباعاً في حفلة امتحان .

وما ان ترك مقعد الدراسة حتى دعاه منبر التدريس ومهنة الأدب . فاذا هو عند المعلم بطرس مكبّ على العمل ، يرعى تلامذته بهمة وبذل ، ويحرّر في الجنان والجنة والجنينة ، ويعاون في تأليف دائرة

---

١ — المطران عبد الله هو عم خطار والد سليمان . وقد كان يسكن معهم في بكشتين بعد ان ترك ابرشية صور وصيدا المارونية لتقدم السن به ، واقام عليها المطران بطرس حفيد شقيقه شبلي .

المعارف ، ويسعى إلى التحصيل الذاتي في كل لحظة من اوقات راحته ، وهو لما يبلغ العشرين من سنيه . وكان نتيجة لذلك ، ان أصيب بألم في عينيه ، اقعده عن متابعة نشاطه ، حتى إذا عاد إلى العمل كانت الدعوة تنتظره في محيط آخر خارج بلاده .

في مهب الاسفار (١٨٧٦ - ١٨٩٨)

هذه الحقبة من حياته غنية بالنُقلة والرحلات ، وبما تتركه الاسفار في صاحبها من تعرّف أحوال وكنز فوائد ، وجرأة على الصعب ، واحتمال .

بدأ ملبياً دعوة قاسم باشا الزهير من اعيان البصرة ، لانشاء مدرسة هناك ونشر جريدة . ولكنه لم يلبث – بعد ان اسّس المدرسة وأدارها مدة سنة – أن انصرف إلى الاعمال التجارية مع آل الزهير . وعرف باستقامته ، وحسن إدارته ، وسعة اطلاعه ، فعيّن عضواً في المحكمة التجارية في بغداد ، ومديراً مطلق الصلاحية لشركة المراكب العثمانية ومعمل الحديد التابع لها . وكانت هذه الشركة – على أهميتها ووفرة الامكانات وكثرة البواخر – غارقة بالديون وفوضى الإدارة ، فأصبحت بعد اشهر معدودة من توليه امورها ، شديدة الازدهار تدرّ من الأموال ما يفي ديونها ويسمح بتحسين حالها « فكأن الإله فتح الكنوز على يده »

وكان بحكم تجارته كثير التنقل بين العراق والاقطار المجاورة . فجاب بلاد العرب من عُمان وحضرموت ، إلى اليمن والحجاز ونجد ؛ لا تصرفه دوافع التجارة عن رغبة العلم ، بل يتوقف باحثاً متحرياً « مجهداً النفس بمخالطة بعض العشائر واستقراء اقوال الثقات ، ويتتبع آثار بعض غزواتهم ، واستماع اخبار بعض شيوخهم ، وملاحظة سابلتهم في

الحواضر ، فلاح لي – يقول البستاني – من وراء كل ذلك ان القبـائل البادية العربية وحدها لا تقل عن السبعة ملايين » فكان هـذا اول محاولة احصاء للجزيرة في عهد بني عثمان . وزار في تجواله كثيراً من الاماكن الوارد ذكرها في شعر العرب ، وجمع طائفة من شِعر البادية ، واكتشف قبيلة الصُليب فخصّهـا ببحث مستفيض في « المقتطف » و « دائرة المعارف » .

ثم عاد الى بيروت سنة ١٨٨٥ ليودّع أباه الوداع الاخير ويتابع العمل في دائرة المعارف فيصدر منهـا الجزء التـاسع سنة ١٨٨٧ . وقصد الاستانة في تلك الأثناء ليستأذن نظـارة المعارف في نشر الدائرة باللغة التركية . بعد ان شرعت بنقلها اليها لجنة من ذوي الاختصاص . وفاز بالرخصة بعد مراجعات ومداخلات استغرقت ثلاثة اشهر . غير ان شدة المراقبة واسباباً اخرى حالت دون تنفيذ العمل . وقد حمله هـذا التشدد – مع فريق من رجال الفكر امثاله – إلى ارتيـاد مصر . ولكن الاستقرار هناك ظل بعيداً عنه وفي ذلك يقول : « لم اكد استقر في مصر حتى حدا بي حادي الأسفار التي الفتها منذ الصبا فبرحت القاهرة سنـة ١٨٨٨ وفي النفس شغف بها وحنين اليها . وانتهى بي التطواف الى العراق بعد ان طرقت الهند واطراف العجم فأقمت فيها زهاء سنتين ...

ثم شخصت إلى الاستانة واتخذتها مقاماً طيباً لبثت فيـه سبع سنوات كنت كثير التنقل في أثنائها بين الشرق والغرب . فيوم بسوريا وسنة بأوروبا واميركا والمرجع الى الاستانة » . وانتدب خلال هذه الفترة لتولي ادارة القسم العثماني من معرض شيكاغو : فحاول هناك بالاضافة إلى عمله ان يعرّف الأميركيين شيئاً عن محاسن الشرق . وأنشأ لهذه الغاية جريـدة تركية هي « معرض شيكاغو » ولكنه لم يلبث ان اقفلها لما نالها من اضطهاد السلطات العثمانية حين أبت ان تكرس نصف صفحاتها لتمجيد الباب العالي .

وكان قد استقام له في هذه الاسفار تحصيل طائفة من اللغات قل ان

تجتمع لفرد. فهو يتقن العربية والتركية، والفرنسية والانكليزية، والفارسية واليونانية. كما يلم، على تفاوت في الدرجة، بالالمانية والروسية، والايطالية والاسبانية، والعبرانية واللاتينية، والهندية والسريانية.

في دنيا الأدب (١٨٩٨ - ١٩٠٨)

آن للشيخ ان يعود بعد طول غياب. فيرتاح مدة وإن قصيرة في مسقط رأسه بكشتين. ينصرف خلالها الى بناء دار له فسيحة. والى إعداد شرح الالياذة وترتيب معجمها، في جو هادىء مريح بعد ان تمّ له تعريبها بفترات متقطعة من الزمن. ولكن اقامته في لبنان لم تطل، إذ دعته حاجة الطباعة والنشر الى القاهرة فشخص اليها ليصدر بالاشتراك مع نسيبيه نجيب ونسيب البستاني الجزءين العاشر والحادي عشر من دائرة المعارف. ولينشر الالياذة، وعبرة وذكرى.

وهذه السنوات العشر حصيلة حياته الادبية، فتحت عليه الناس عيون مدققاً بارعاً في دائرته واديباً مجدداً في «مقدمته» وشاعراً مرموقاً في «الياذته» وسياسياً راجح الرأي معتدلاً في «عبرته وذكراه» فإذا بأمهات الجرائد والمجلات تنقل له وتطنب في تقريظه. وإذا بالحفلات تترى في تكريمه وأروعها حفلة شبرد. وإذا بيته ندوة لذوي الأدب، وآراؤه في النقد والشعر مرجع يركن اليه، ونظرياته في الاصلاح تسهل له طريق «المبعوثان» فالوزارة [١].

١ — مجلس المبعوثان أو (هيئت مبعوثان) هو مجلس النواب في الدولة العثمانية عقد للمرة الأولى على أيام السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ —

في معترك السياسة (١٩٠٨ - ١٩١٤)

أعلن الدستور وهو يخص ولاية بيروت بمبعوثين عنها . فرأت جمعية « الاتحاد والترقي » — ومترجمنا أحد اعضائها العاملين — ان تستدعيه من مصر وهو ابن الجبل لترشحه في بيروت ، فانتخب باجماع كبير. وكأنما جاء كتابه « عبرة وذكرى » برنامجاً اصلاحياً ظل المؤلف مدى ست سنوات يعمل على تطبيقه ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وبرز اسمه بسرعة فائقة . فانتخب رئيساً ثانياً للمجلس سنة ١٩١٠ ، ورئيس أهم لجانه كالخارجية والسلام العام الدولية ، وزار عواصم اوربا مراراً بمهمات رسمية على رأس الوفود . ثم عينة السلطان عضواً في مجلس الأعيان ، وندبته الدولة إلى تمثيلها في الكثير من المؤتمرات والمفاوضات ، فكان المفاوض اللبق الذي يعرف دوماً كيف يصون حقوق « الرجل المريض » من جشع الطامعين في تلك الفترة العصيبة من تاريخه . وإذا شاءت السلطنة أن تخلع عليه الأوسمة والألقاب ، اعتذر عن ذلك بتواضع وشكر ولم يقبل منها إلا ما يتعلق براسم الوزارة .

وفي سنة ١٩١٣ دعاه صديقه الصدر الأعظم ، البرنس سعيد حليم باشا ، ليشترك معه في الحكم كوزير للتجارة والزراعة والغابات والمعادن ، فقبل ذلك ومكث في الوزارة إلى أواخر السنة التالية يوم قررت تركيا دخول الحرب ، فقدم استقالته في جلسة صاخبة حاول فيها ان يمنع اتخاذ مثل هذا القرار « ولكن الحزب العسكري تغلب على حكمة سليمان وكان من نتائج تهوره ما كان » . وان محضر الجلسة تلك ، كما وردت ترجمته في كتاب « كيف دخلت تركيا الحرب » لفؤاد ميداني ، يدل

على موقف البستاني وجرأته في تحمل التبعات الملقاة على عاتقه . جاء في هذه الوثيقة : « ولما وجد وزير التجارة والزراعة سليمان افندي البستاني ان القرار سيتخذ بدخول السلطنة العثمانية الحرب العالمية وقف قائلاً : « لقد كان في نيتي تقديم استقالتي من الوزارة منذ أيام . وقد بينت ذلك للصدر الأعظم . إلا انني تأخرت عن تقديمها أملاً مني بأن أتمكن من حمل الزملاء على التمسك بالحياد التام تجاه هذه الحرب الطاحنة . وقبل حضوري هذه الجلسة اجتمعت بسفير الولايات المتحدة وسألني رأيي فأجبته ان المجال لا يزال لدينا فسيحاً لحمل مجلسكم هذا على تقرير حياد السلطنة . أما الآن وأنا ارى الاغلبية ميالة إلى دخول الحرب العالمية فإني أقدم لكم استقالتي من الوزارة راجياً باصرار قبولها قبل اتخاذ أي قرار كان في صدد دخول تركيا الحرب العالمية .

انور باشا : اننا لا نرى بأساً من قبول استقالة البستاني افندي ما دام يصر عليها .

البستاني : « انني أصر على الاستقالة حباً بخدمة بلادي . واعتقادي هو ان الامة العثمانية إذا دخلت الحرب العالمية تخطىء خطأ كبيراً ، ويكون دخولها سبب نكبات عظيمة تحيق بها . فتجنباً لهذه المخاطرات أردت البقاء ، أما وان الأكثرية من الزملاء تريد دخول الحرب ، فأرجوكم قبول استقالتي ، وها اني منسحب من بينكم . قال سليمان البستاني ذلك وانصرف . »

في قبضة الألم (١٩١٤ - ١٩٢٥)

ترك الاستانة بعد استقالته ، متجهاً الى سويسرا وفي النفس ألم وغصة ، وفي الجسم تعب وارهاق . وحاول هناك ان ينقذ دولته بصلح منفرد مع الحلفاء ، ولكن ظروفاً قاهرة حالت دون ذلك .

أصيب في أواخر الحرب بداء أقعده أشهراً في مستشفى مون ريان بسويسرا ، واستدعى عملية جراحية تركت من الآلام في نفس البستاني ما صهرها ، ومن رهافة الشعور ما أطلق شاعريته بقصيدتيه الرائعتين : الداء والشفاء . وبعد الهدنة عاد إلى مصر مريضاً محطماً ، ولكن عناية أخيه الطبيب عبد الله تغلبت على المرض بعد سنة ونصف من المعالجة .

وأبت تركيا الكمالية إلا تقدير المخلصين من أبنائها ، والاستفادة من تجاربهم الطويلة وبعد نظرهم في قيادة الامة ، فدعته الى انقرة ليتولى منصباً خطيراً في الحكومة الجديدة ، غير ان انتكاس صحته لم يسمح له بذلك ، بل حمله إلى الولايات المتحدة للإستشفاء ، فلاقى فيها من الجاليتين اللبنانية والسورية ضروباً بالغة من الحفاوة والتكريم « والتف رجال العلم والأدب في نيويورك حول ضيفهم التفاف الجند حول العلم » .

وفيما كان الأمل بنجاته كبيراً ، أطبق الموت جفنيه في اول حزيران سنة ١٩٢٥ ، بعدما أطفأ نور عينيه لاشهر خلت . وقد لقي اجله المحتوم بشجاعة نادرة لا يشعر بها امام الموت إلا من سبر أغوار الحياة وأدرك انها نهزة عارضة أو « دار ممر إلى دار مقر » فنهد إلى تأدية رسالته فيها بضمير هادىء ونفس مطمئنة . وكانت نظرته الى الحياة كما صورها صديقه رشيد نخله :

ودّعت دنيا الترّهات وجئت دنيا الباقيات

فانعم بتلك وهذه دعها لعشاق الحياة

وما ذاع نعيه ، حتى اقيمت الاحتفالات الدينية يشترك بها كبار الوطنيين والاجانب من رجال الدين والدنيا ، وتعددت المحافل الادبية في مختلف انحاء الوطن والمهجر من نيويورك وسان باولو ، إلى المكسيك والارجنتين ، إلى مصر ولبنان ، واصدرت المجلات والجرائد أعداداً خاصة لنظم صفاته ، ونقل مظاهر اللوعة عليه ، ونشر ما قيل في رثائه وتوديعه [1]

ونقل الجثمان محنطاً الى بيروت . فوصلها في ٥ آب ليتلقى الصلوات الأخيرة بمأتم مهيب . ويرقد في مزرعته بكشتين التي احبها ولم يستطع ان يكون لها في حياته ، فوهبها من رفاته ما تفخر به وتعتز ، ومن اسمه ما يحفظ لها في الصدور ومجالس الأدب ذكراً مخلداً على الزمن .

---

١ — من اهم هذه الصحف والمجلات :

«السائح» النيويوركية في عدد ٢٢ حزيران سنة ١٩٢٥ ، ومن كتابه جبران خليل جبران ، ميخائيل نعيمه ، ايليا ابو ماضي ، عبد المسيح حداد .

«الاخلاق» النيويوركية في عدد شهر حزيران من السنة ذاتها ، ومن اقلامه نعوم مكرزل ، جرجي نقولا باز ، الدكتور فيليب حتى ، مسعود سماحة ، الشيخ عباس ابي شقرا .

«الهدى» النيويوركية في عدد ٧ تموز سنة ١٩٢٥ وقد جمعت كل ما قيل في الحفلة الكبرى يوم تشييع الجثمان .

«ابو الهول» البرازيلية ومن كتابها : فوزي المعلوف ، رشيد سليم الخوري ، الياس فرحات ، الدكتور سعاده .

«دير القمر» اللبنانية في عدد ١٤ آب سنة ١٩٢٥ وقد كتب فيه : خليل مطران ، بولس غانم ، مراد ابي نادر ، فؤاد افرام البستاني ، بالاضافة الى اكثر الجرائد والمجلات في مصر ولبنان والمهجر الاميركي خلال شهري حزيران وتموز من هذه السنة .

آثاره

تقسمت التجارة والاسفار ، والسياسة والآلام حياة البستاني ، واستنفدت جزءاً كبيراً من وقته وجهده ، فلم تمكنه من العمل الأدبي المتتابع ، وبالتالي من الانتاج الكثيف الذي يتناسب وطاقته وعبقريته . بيد ان ما تركه من تآليف ، موضوعة أو معربة ، مطبوعة او مخطوطة ، يشهد بحيويته وغزارة مادته . ونكتفي الآن بذكر هذه المؤلفات على ان نراها مفصلة في مواضعها من هذا الكتاب (عدا مقدمة الالياذة التي نخصّها منذ الآن بعرض سريع لأهم الأبواب والأغراض التي تناولتها) .

آثاره المطبوعة :

– دائرة المعارف : اشترك – وهو في مستهل حياته الأدبية – في اصدار عدد من مجلداتها ، ثم انصرف اثر وفاة منشئها وابنه سليم ، إلى النهوض بعبء العمل يساعده على ذلك نجيب ونسيب ابنا المعلم بطرس فاصدروا من الدائرة :

المجلد التاسع : ظهر في بيروت سنة ١٨٨٧ في ٧٦٢ صفحة كبيرة. ومن أهم بحوثه : روسيا ، روميه ، زراعة ، ستينوغرافيا ، سقراط ، الخ

المجلد العاشر : طبع في مصر سنة ١٨٩٨ في ٧٦٠ صفحة . ومن أبحاثه : سليمان ، سوريا ، الشعر ، صلاح الدين .

المجلد الحادي عشر : صدر في بيروت سنة ١٩٠٠ في ٧٥٢ صفحة . ومما يعالجه : الصلبة (وهي القبيلة العربية التي اكتشفها البستاني) ، الصليبية ، الصين ، الطباعة ، الطب ، الطوفان ، العباسية ، العثمانية ، وكان هذا المجلد آخر ما ظهر من دائرة المعارف .

الالياذة : نقل شعري لملحمة هوميروس اليونانية القديمة ؛ وقد اعتبر هذا العمل أهم ما اقدم عليه البستاني في حقل الأدب فكفل له شهرة دائمة . نشرت الالياذة في مصر سنة ١٩٠٤ وهي مصدّرة بمقدمة جامعة وملحقة بفهارس ومعاجم للالفاظ اللغوية ، وللاعلام والصور ، وللشروح ومواقعها ، وللشواهد الشعرية ومقارناتها ، وللموضوعات الواردة من حرب وفنون عسكرية ، الى عواطف وشعائر ، الى قصص والعاب ، الى عمران واجتماع ... الخ ومجموع المنظومة بمقدمتها ومعاجمها ١٢٦٠ صفحة من القطع الكبير .

اما المقدمة فإنها تخرج عن المفهوم العام لمقدمات الكتب – من حيث التعريف الموجز لمقتضيات البحث – لتشكل بذاتها وحدة موضوعية تقع بمئتي صفحة من حجم الالياذة وتقسم الى خمسة أبواب .

القسم الأول : (ص ٩ - ٣١) وفيه بحث عن هوميروس وما يتعلق به

وبظروف حياتـه من اسم ولقب ونسب ومولد ونشأة واسفار ومرض ووفاة . ثم تعيين لزمنه ، ومنزلته عند القدماء ، وأقوال العرب والمتأخرين فيه . وتحقيق آثاره وقد فقد بعضها وبقي اثنان : الالياذة ، والاوديسة .

القسم الثاني (ص ٣٢ – ٦٧) يدور على الاليـاذة وموضوعها وتناقلهـا انشاداً وجمعها وتدوينها . وهنا يعرض امر هام : القول في سلامتها من التحريف والتصحيف ، وفي وحدتها وصحة نسبتها إلى المؤلف ، مما يدفع الى مناقشة آراء « الخوارج » على هوميروس وبخاصة المذهب الولفي ، لاثبات ان المنظومة كل متماسك جمع خير ما وصلت اليـه معارف العصر في التاريـخ والجغرافيـا والطب والملك والحرب والسياسة والدين والصنـائع . ثم ينتقل إلى سبب خلودها وانتشارها ونقلها الى سائر اللغات ، واغفال العرب تعريبها ، وعلاقة الدين بذلك ، وموقف النصرانية والاسلام منها .

القسم الثالث : (ص ٦٨ – ١٠٦) وفيـه التعريب وحكاية المعرب : أصول التعريب ، مسلك العرب والبستاني وطريقة ابن خلدون ، النظم في التعريب وأهميـة القوافي والأوزان ، البحور التي نظمت فيها الالياذة العربية .

القسم الرابع : (ص ١٠٧ – ١٨٨) أوسع الأبواب وأغزرها مادة وقيمة . يتناول الالياذة والشعر العربي في قديمه وأسواقـه وفضل القرآن على لغة قريش وحياتها بينما تلاشت

اللغة اليونانية رغم تراثهـــا الخالد في الادب والعلوم . ثم ينتقل الى اطوار الشعر العربي وطبقـــات الشعراء ومميزات كل طبقة : من الجـــاهليين والمخضرمين ، الى الأمويين والمولدين ، الى المحدثين والمتأخرين . ويعرض بعد ذاك للملاحم أو منظومات الشعر القصصي عنـــد العرب والأعاجم ، ولِمَ خلا الأدب العربي من الملاحـــم الطويلة وعرف مقطوعات ملحميـــة قصيرة مـــع معلقات الجاهليين وطائفـــة اخرى من القصائد . ويختم ببحث في الحقيقة والمجاز والكناية والتشبيه وأثر الحضـــارة في ذلك ؛ ويستطرد بعـــد ذكر اوجه الشبه في الصيـــغ والمعـــاني الى النقل والسرقة وتوارد الخواطر .

القسم الخامس : (ص ١٨٩ – ٢٠٠) يشكل الخاتمة ويتناول منزلة الشاعر عند العرب والامراء ، وطواعية اللغة العربيـــة للشعر ، وثروتها في الالفاظ الوضعيـــة وطرق التركيب ، وحرص العرب قديماً على نقل المفردات الاعجمية والمصطلحات العلمية والفلسفية بشيء من التصرف وصوغ الافعال ، يجعل اللفظة وكأنمـــا هي من صميم لغة الضاد .

– عبرة وذكرى : او الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده : طبع في مصر سنة ١٩٠٨ في ٢٠٤ صفحات . أبحاثـــه علمية توجيهية في أساليب الحـــكم ، والحريات ، وموارد الثروة وطرق الاصلاح .

– الاختزال : هو بحث علمي طريف في الاختزال العربي . نشر

أولاً في المجلد التاسع مـن الدائرة تحت مـادة « ستينوغرافيا » ثم اعيد النظر فيه وطبع بعد ذاك على حدة وفقاً لرغبة الخديوي توفيق الذي أراد أن يعممه في مصر .

هذا بالاضافة الى مقالات وقصائد كثيرة في الجرائد والمجلات ، وإلى قصيدتي الداء والشفاء وقد طبعتا مستقلتين ، والى تقرير مسهب (١٢٠ صفحة) في مسؤولية الحرب وتركيا ، كلفه مؤتمر فرسايل بوضعه ليوزع على مندوبي الدول الممثلة هناك .

آثاره المخطوطة :

— تاريخ العرب : يقع بحوالي الف صفحة . دوّن فيه معلومات ضافية عن الجزيرة العربية ، بحياتها وقبائلها وعوائدها ، مما عرفه وخبره اثناء تجواله فيها .

— ديوان شعراء العرب الحاليين : مجموعة من شعر القبائل المعاصرة بلهجاتها المختلفة .

— مذكراته : كتبها باللغة الانكليزية ، وضمنها خواطر في السياسة والاجتماع والأخلاق والأدب والأسفار . وقد ضاعت بين نيويورك ومصر وبيروت .

ومما يؤسف له ان تظل هـذه المخطوطات دون نشر على طرافة الموضوعات التي تعالجها ، وان تكون الكتب المطبوعة نفسها قد نفدت حتى ليستحيل الحصول على نسخة من « الاليـاذة » أو من « عبرة وذكرى » . والأمل اليوم — ونحن في السنة المئة لولادة المؤلف ، والأدباء يتنادون لمهرجان له كبير — ان يعمد القيمون على هذه الدعوة

إلى العمل « لإحيـاء » ذكراه بغير الخطب وزيارة الضريح كما جرت التقاليد في مثل هـذه المنـاسبات . فعسى ان يقرروا نشر كتبه ومخطوطاته ، بطبعة وافية سهلة التناول قريبة المـأخذ ، وهـو واجب يؤدونه للأدب ، وللناشئة ، وللبنان .

رجل السياسة

يبني من الحسنات ، ما ينهار فوق السيئات
ما يصنع الرجل الحكيم ، وفي الجماعة الف عات
ان العظات تفيد في الاذن السميعة للعظات

رشيد نخله

شخصيّته

مفهوم السياسة

ما فهم السياسة يوماً ، وصولية مكيافيلية ، تنظر إلى غاية تستبيح في سبيل بلوغها كل وسيلة ،

ولا فهمها أنانية طاغية ، تتجسد في كرسي يضطرب فوقه بسلطان وجاه ، ولو كلفه ذلك « ان ينتقل من تقبيل ايد إلى تقبيل أذيال »

ما كانت السياسة لديه سلبية عقيمة ، يلجأ اليها كل فاشل ناقم ، فيشل مرافق الدولة نكاية بفرد ، ولو على حساب مصلحة الوطن وكيان الأمة ،

ولا موالاة خنوعاً ، تذوب فيها الشخصية ويمحي النفع العام ، فتسير في ركاب الحكم والقوة لتكسب رضى من بيده الرفع والخفض . وما اكثر الموالين الخانعين في كل آن .

هذه الظواهر التي طبعت سياسة الدولة العثمانية طيلة نصف قرن من حياة مترجمنا كانت اضعف من ان يعلق به اثر منها يوم دعي إلى أريكة

النيابة وزمام الحكم . بل ربما كان لها في نفسه الاثر العكسي البالغ الذي لا يتسم به في مثل هذه العهود سوى قلة من الرجال ، نذرت نفسها للكرامة والحرية ، وقوّمت اعمالها بميزان الخلق والعدالة ، فاذا بكل ضيم يلحق بها او بالآخرين حافز عدل لها جديد ، وإذا بأي كبت لأنفاس عصرها توق إلى أُفق من الحرية رحيب .

كثيرة هي مفاهيم السياسة لدى رجالها ، ولكنها فرد احد لدى رجلها الحق . انها رسالة قومية نبيلة ، تعتمد اشراف السبل لقيادة شعب نحو ما هو اكمل وأفضل . انها كل شامل لا يعيش إلا إذا تآخت فروعه : ادارة رشيدة ، واقتصاد صحيح ، وتربية سليمة ، وعدل محيط بالقوى والضعيف ، يخدم ذلك علم وكفاءة ، على نزاهة واخلاص .

فالنيابة تكليف ، يستمد وجوده وفعاليته من ارادة الشعب ، ولا يكون أميناً لرسالته إلا إذا تحرّك في وحي ما ترسمه مصلحة هذا الشعب .

والوزارة خدمة وتبعة ، « أمانة لا طعمة » ، يضع صاحبها كل ممكناته في خدمة وطنه ، ويقيم من ضميره رقيباً صارماً على كل ما يصدر عنه من تصرفات ،

والحاكم أجير ، سيده شعبه ، على حد ما كان يراه أبو العلاء في لزومياته ، وثوار ١٧٨٩ في « اعلانهم » .

ذاك هو مفهوم السياسة عند رجلها الحق ، وذاك كان مفهومها عند البستاني حين ندبته بيروت إلى تمثيلها في مجلس المبعوثان ، غداة اعلان الدستور .

اجماع البيروتيين

أَخلِقْ ببيروتَ دارِ العلمِ من قِدَمٍ   أَنْ تَصطَفِيكَ على الأيامِ مِعْوَانا
فاللهُ ، لمَّا رأى إعلانَ حِكمَتِهِ   ما اختارَ من شعبِهِ إلاّ سُليمَانا

وردة اليازجي

« ان البيروتيين لم يجمعوا على اجمل من إجماعهم على هذا الانتخاب مع ما اقيم في سبيله من العقبات .. فاجماعهم على انتخابه بمجرد اختيارهم ، يدل على ارتقاء الشعور العام وتغلب الحرية الشخصية في تلك المدينة الزاهرة .. عرفناهم قبل الدستور فرقاً وطوائف مثل سائر ابناء المشرق ، فرأيناهم في انتخاب البستاني قد نبذوا العصبيات واجمعوا عليه لانه في اعتقادهم ادرى المرشحين بحاجاتهم ، واوسعهم علماً ، فلم يمنعهم من انتخابه عصبية ولا مذهب ولا جنس .. اما تأثيره ، فينتظر ان يكون كبيراً لأن اعضاء هذا المجلس ، على كثرتهم ، لا يرجى ان يكون بينهم من امثاله إلا نفر قليلون عليهم تتوقف إدارة العمل »

(جرجي زيدان : الهلال ١٧ ، سنة ١٩٠٨)

بمثل هذا الامل الرحب ، والثقة الوطيدة ، استقبلت النخبة الواعية في الشرق العثماني ، دخول صاحبنا مصطرع السياسة في عهدها الجديد . وهو اذ ذاك قد خبرها بطوريها الاساسيين : طور المعرفة النظرية على عمق وشمول ؛ وطور الاختبار والتجربة على تفتح ونضج . ولم يبق سوى الطور الاخير ، دور العمل والتنفيذ ، فأقدم عليه غير هياب

ولا وجل بعد ان تهيأ له هذا الرصيد الضخم من المؤهلات . وكأني به – على غير مطمع منه او شعور – قد طبق في حياته السياسية ما تصوره افلاطون في « جمهوريته » حين ابى تسليم مقدرات الامة إلا للذين يتأهبـون لذلك بثقافة نظرية شاملة ، تمتد الى سن الخامسة والثلاثين ، ثم باختبار تجريبي في المجتمع يصل بهم الى الخمسين ، ومن جاز هذين الدورين بنجاح ، كان هو المدعو لقيادة شعبه وكان للجمهورية ان تظل على يديه مثالية وطيدة .

الناحية النظرية

كان لثقافته الواسعة ابعد الاثر في تكوينها . فهو بحكم تضلعه من لغات مختلفة ، واطلاعه على آداب ونظم وتواريخ الامم من قديمة وحديثة ، وميله الدائم الى التفحص والاستقراء مشفوعين بالتعليل والمقارنة لاختيار الافضل من الآراء والاعمال ، قد كنز معلومات دقيقة في تاريخ السياسة وتطوره على العصور . يظهر ذلك في التلميحات الكثيرة التي تطالعنا في مقدمة الالياذة أو في شرحها . وحسبنا ان نذكر بعضاً من عباقرة الفكر والتاريخ الذين تحكك بهم البستاني واستشهد بأقوالهم ، لنعرف مدى توغله في هذا الباب . درس تاريخ اليونان – بمؤسساته السياسية والاجتماعية – على افلاطون وارسطو ، وليكرغوس ، وصولون ، وهوميروس وهيرودوتس ، وغيرهم من الاقدمين . وعلى متفرد Mitford وغروت Crote وترول Thirwall ونتشس Nitzsch من المتأخرين . كما اطلع على الآراء الحديثة مع فيكو ، وغيزو ، ومونتسكيو ، وتين ، وفلنت وكثيرين من مؤرخي الحركات السياسية في فرنسا وانكلترا والمانيا ،

بالاضافة إلى تعمق في مؤرخي العرب من ابن العبري إلى ابن خلدون ، وإلى تتبع واع لمشا كل عصره الدولية بما فيها من التواء وتعقيد . وإذا كانت هذه المطالعات لا تعتبر بحد ذاتها درساً موضوعياً موجهاً في التركيز السياسي ، فانها بعرضها التيارات والمذاهب ، والمقارنات والنتائج ، تقدم مادة دسمة يمكن لرجل السياسة ان يجني منها اينع الثمار . ولا تغزر مادة عالم ما في علمه إلا بمقدار ما يكتسح من مناطق المعلوم والمجهول في هذا العلم .

دور التجربة والاختبار

لقد حققه على اوسع ما يفترض فيه ان يحقق . قيض له ان يكون رحالة العصر ، تتقاذفه الاسفار بين مشارق الارض ومغاربها مدى ثلاثة عقود ، فهو في العراق والهند ، وفي مصر والشام ، وفي ايران والاستانة ، وفي اوروبا وامريكا ، وفي بوادي جزيرة العرب . وهـو انى حل ، وجيه باحث يتصل برجال الحكم ويعاشرهم ، ويداخل طبقات الشعب ويتعرفها ، مستطلعاً احوال الامة ، دارساً بقاع السلطنة العثمانية سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ، مسهماً في الكثير من النشاطات . بلا التعليم في بيروت والبصرة فكان فيه من المتفوقين ، وزاول التجارة فعين عضواً في محكمتها ببغداد ، واشتغل بالصحافه فعرفت نفثاته الجنة ، والجنينة ، والجنان ، وتولى الادارة فازدهرت على يديه شركة المراكب العثمانية ومعمل الحديد في العراق ، ونهض إلى التنظيم فكان له في القسم العثماني بمعرض شيكاغو جولة موفقة ، وصرف همه إلى الزراعة فكان حصاد ذلك دراسة وافية لمشروع ري بغداد ، وقام برحلات في جزيرة العرب درس خلالها

احوال البادية والقبائل بتقاليدها وعوائدها وطرق معيشتها ومرويات اهلها واحصاء سكانها وكل ما يمت إلى تحسين شؤونها بصلة ، وطاف في دول اوروبا واميركا فاطلع على نظمها الاجتماعية ودساتيرها ، وعلى التقدم الذي حققته بفضل الاساليب الحديثة المطبقة في مختلف مرافقها الحيوية ، ووازن بين احوالها واحوال السلطنة مقتبساً ما يمكن استخدامه للنفع والاصلاح . وقد دون تجارب هذا الدور من حياته في كتابه القيم « عبرة وذكرى » .

آراؤه

نُصحٌ وتوجيه

رافق إعلان الدستور موجة من الهوس والحماس ، طغت على العثمانيين في كل بقاعهم . وخشي ذوو الرأي فيهم ، ان تستبد بالنفوس نشوة الانعتاق ، وان تنطلق الحرية المكبوتة بسورة من الجماح لا يسلم معها اعتدال ، فراحوا يزجون النصح والتوجيه ليحفظوا للثورة اهدافها التحريرية دون شطط أو ارتجال .

وكان البستاني في طليعة هذه الفئة . إذ لم يمر شهر واحد على الانقلاب [1] حتى دفع بكتابه « عبرة وذكرى » إلى مطبعة الاخبار في مصر لتخرجه بمستهل اكتوبر سنة ١٩٠٨ . وقد وضعه بهذه السرعة الغريبة دون ان يعتمد أي مرجع سوى ما وعته الذاكرة وحققه الاختبار ، فاذا الكتاب منهج إصلاحي بين ايدي القيمين على الدستور الجديد ، ووثيقة نادرة عن اسباب انهيار السلطنة العثمانية . جاء معززاً بالحوادث الواقعية ، والتعليلات الصحيحة ، آخذاً من العهد السابق

---

١ – « اننا نحرر هذه الأسطر ولم يكد يمر عشرون يوماً على استلام الأحرار ازمة الحكم » عبرة وذكرى صفحة ١٣٢ .

« ذكرى » مؤلمة لتكون موعظة « وعبرة » للحكم في عهده المقبل .

وهو لذلك يدعو الشعب إلى الصمود بجانب حكامه . وإلى مؤازرتهم في مهامهم ، بأن يفسح لهم المجـال للعمل النافع البناء ، فلا يقلقهم بالمطالب الفارغة ، والتشكيات التافهة ، والشغب الداخلي ، بل يعاونهم على قطع الأيدي الممتدة لايقاظ الفتنة واحياء التعصب الديني والجنسي . كما يدعو مجلس المبعوثان — قبل معرفة بانه سوف يصبح احد اعضائه — إلى ان يتحلى بالاتزان والاخلاص ويضطلع بمسؤولياته الجسام في هـذا الظرف العصيب ، فيبتعد في مناقشاته عن روح الهوس والتهور ، ويخصص جلساته الأولى للنظر في موارد الاصلاح العاجل ، ويتنبه للدسائس التي يحوكها اعداء الدستور . وليعلم كل عضو فيه ، انه منتدب للبحث في شؤون البلاد جميعاً ، وان مصالح ولايته الخاصة يجب أن تأتي في الدرجة الثانية من اهتمامه « فكفى بما مضى عبرة لنا وعظة . ورجاؤنا أن يتخذ الأعضاء التأني والتروي شعاراً ، متجردين عن المصالح الخاصة ، غير طامعين بكسب الشهرة من وراء المناقشات الطويلة التي لم يحن زمنها بعد . فاننا الآن أحوج إلى تلقي الدروس منا إلى القـائها بالخطب واللوائح . وحسب الاعضاء ، مراقبة اعمال الحكومة بعين محتاطة وفكر نقاد ، لا يهيج إلا الخطأ يبدو لديه فيشير اليه إشارة المصلح الحكيم [١] » .

وهو يعني في هذا الكتاب ، لا بالسياسة الخارجية أو العامة ، بـل بسياسة الاصلاح والانشاء كما ألمع إلى ذلك : « لم يكن من غرضنا الآن ، التعرض الى شيء في احوال السياسة الداخلية والخارجية ، فان لدينا من بواعث الاصلاح الداخلي بالنظر إلى موارد الثروة ودواعي التضام والتضامن لاجل ادراك حقيقة الحرية والدستور ما هو أدعى للبحث العاجل [٢] — بيد

---

١ — عبرة وذكرى ص ١٩٤ .

٢ — نفس المرجع ص ١٩١

ان ذلك لم يمنعه من الخوض فى أسس السياسة ومبادئها اي الحريات وعلاقتها بالدستور من جهة . وموارد الثروة في البلاد وكيفية انمائها مع تنظيم مالية الدولة من جهة اخرى .

الدستور والحريات

تناول الدستور القديم والجديد ، وعلاقته بالاستبداد والحرية ، مفصلاً اصناف هذه الاخيرة من الحرية الشخصية ، إلى حرية الصحافة ، والتعليم ، والتأليف والقراءة ، والمكاتبة ، والجمعيات ورجال الدولة ، منتقلاً إلى البحث في الدستور ، والخفية ، ورجال الدين ، والمهاجرة ، ومأموري الحكومة ، وماليتها . وطبيعي ان يقوده البحث في مالية الدولة إلى درس موارد الثروة . فيتكلم في الزراعة ، والمعادن ، والصناعة ، والتجارة ، والاعمال العامة والشركات ، والسياح والمستوطنين . ويختم كتابه بلمحة عامة في واجبات الشعب ومجلس المبعوثان ، وفي الامل المرتجى بما ستصير اليه الدولة بعد خمس وعشرين سنة . وهو يفرد لكل من هذه المباحث باباً خاصاً يطول أو يقصر وفقاً لأهمية الموضوع والحاجة الى معالجته . ولا بد لنا من استعراض جانب من هذه الآراء التي تبرز تقدميته ، ورصانته ، وبعد نظره ، والتي تظل لصراحتها وشمولها وكأنما هي من صميم واقعنا الدولي .

بدأ بتعريف الحكم الدستوري الذي صارت اليه البلاد ، والحكم الاستبدادي الذي كانت عليه ، مميزاً بين استبداد يراد به الحكم المطلق ، وآخر يعنى به الحكم الجائر ، ومعظم الشكوى ليست من الحكم المطلق الذي له ، بلا ريب ، مزايا باهرة مع جهل الرعية وذكاء الراعي . بل من

الحكم الجائر الذي اباح الموبقات واستباح المحرمات وحكـّم الانذال برقاب الرجال . تقتسم فيه فئة ضئيلة اموال الامة فتنعم بها وتشقى الامة . ولا حرج على تلك الفئة ولا جناح [١] . وهو لا يسوغ بوجه عام — وان تساهل بذلك في الامة العثمانية لاسباب صوابية كثيرة — اطلاق الحرية دفعة واحدة لامة طال عليها عهد الاستعباد لئلا تستحكم الفوضى . وينتهي الامر باستبداد الجماعات ، وهو اشد بلاء من استبداد الرجل الفرد . بيد انه يأبى ان ينال الحرية الشخصية لون من الكبت والتقييد ، فهو يريدها « مطلقة يسرح المرء ويمرح ايان شاء ، ويخالط من شاء ، ويقول ويعمل ما شاء ، مما لا ينال سواه بأذى » .

وإذا تطرق إلى الصحافة التي يرى فيها « الآلة الحية الناطقة بلسان الامة ، المنبهة الافكار ، المرشدة إلى الإصلاح ، المشيرة الى مواطن الخلل ، المنادية بحيّ على الفلاح » صوّر الضغط الذي كانت تتعرض له ، والمراقبة القاسية التي كانت تستهدفها ، حتى كانما قد انتزعت بعض المفردات من معجم الالفاظ الكتابية فلا يجوز استعمالها : كالحرية ، والثورة ، والدستور ، والاصلاح والجمهورية ، والاستقلال .. أو بعض الجمل : كالعدل اساس الملك ، والظلم مرتعه وخيم .. ، أو بعض الانباء الخارجية التى تشير مثلاً إلى جهاد روسيا وايران في سبيل الحرية ، فلا تذكرها صحيفة إلا طالها سيف النقمة والتعطيل ونال صاحبها العقاب ، وقارئها أو ناقلها السجن والعذاب . كما حدث لذلك الشامي الاميّ الذي اتخذ قطعة من جريدة المقطم لفافة لمنديله وهو لايدري اتلك الورقة « صحيفة من كتاب ام كشف حساب » فلم تشفع به اميته ، بل دفع ثمن جريمته اياماً من السجن وضروباً من العذاب . ومع هذا فان البستاني يظل بمطالبته بحرية الصحافة شديد الاعتدال : « لا نطمع ولا نود ان نتخطى الآن إلى ما وراء المعقول فنثب وثبة واحدة من وهدة المسكنة الاضطرارية إلى قمة

١ — عبرة وذكرى ص ١٨ .

التهور الاختياري ، بل جل مـا نتمناه ان تباح لنا رواية الاخبار ، وترديد صدى الافكار ، والنظر في شؤون انفسنا من القاء درس مفيد ، وعرض مقترح جديد ، ونقد عامل وعمـل ، والبحث في كل ما من شأنه ان يهذب ويفيد . وعلى الجملة اطلاق الحرية إلى ما لا يفضي بهـا إلى مثل الفوضى التي استحكمت بين بعض جرائد مصر لسنين خلت »[١] .

التعليم ومظاهره

ويتعرض لسياسة الدولة التعليمية ، فيبين فسادها في العهد السابق إذ اختلت طرق التعليم في المدارس الوطنية لشدة المراقبة ، فحرم على الطلبة درس المهم في التاريـخ والعلوم الفلسفية والاجتماعية خشيـة ان يتنبهوا الى أن لأمتهـم حقوقـاً تجب المطالبة بهـا . اما المدارس الأجنبية التي كانت تتمتع بقسط من الامتيازات ، فيأخذ عليها البستاني انها – على فضلها بنشر الثقافـة وفتح العقول على الحرية – لا تهتم ببث روح الوطنية بين طلابها ، ولا تتبع معهم نظاماً موحداً ، بل تنشئهم على اختلاف في الافكار والمذاهب « وهكذا عمل الاجانب بطريق العلم على اقتسام عقولنا ، كما عملوا بطريق السياسة على اقتسام بلادنا » . ووجه الرأي في عهد الدستور ، « ان توحد طرق التعليم في مدارس الحكومة ويوسع المجال للمدارس الوطنية ، ويباح تدريس علوم الفلسفة والاجـتماع والآداب ، ويوجب تدريس التاريخ ، وتسهل الطرق لطلبة جميع المدارس من اميرية ووطنية واجنبية لفتح الاندية وعقد الاجتماعات ليشبوا جميعاً على حب التكاتف »[٢] .

١ – عبرة وذكرى ص ٣٣

٢ – عبرة وذكرى ص ٣٩

ويعقد فصلاً عن الاندية ، والجمعيـات ، واثرها في تأليف القلوب ونبذ التعصب ، وردع الشبان عن اللهو والفراغ ، داعياً إلى اتخاذهـا وسيلة فعالة للاصلاح . إذ تقام المنتديات العلمية ، فتنشأ لها المكتبات ، وتؤلف فيها لجان مقيمة ، وبعثات رحالة ، تضرب في البـلاد للدرس والتنقيب فوق وجه الارض وفي قلبهـا « والاصلاح الادبي ، والتأليف الثابت بين عناصر الامة ، لا يتأتى إلا بواسطة هذه الجمعيات فان فعلها في العلم والعقل والفكر ، فعل الشركات الماليـة في التجارة والصناعة والزراعة »[١] .

أما حرية التأليف والقراءة فعنصر اساسي من عناصر الحرية الشخصية ، وقد نالها من تضييق العصر الحميدي ، ما جعل اطول الكتاب يـداً يتجاهل وهو عالم ويتصاغر وهو كبير ليستطيـع العيش في الاستانة والا فعليه ان يصمت او ان يشد الرحال خارج بلاده إلى يوم فرج قريب او بعيد . ولـكم تألم صاحبنا من هذه الحالة ، خاصة بعد ان لمس نتائجها جموداً في القرائح ، وعقمـاً في التفكير ، وتبلداً في الاذهان . لام مرة رجلاً من جهابـذة العلم والشعر في سوريا على ضآلة تآليفه ، فأجابـه هـذا : « ابعث لنا بنفحة واحدة من نسمات حريتكم على النيل وناقشنا بعد ذلك الحساب » . ثم حل الفرج ، فراح البستاني يحث الكتاب على اطلاق اقلامهم ، وابراز مكنوناتهم وتسطير علوم عصرهم « ولكن الامل وطيد ان نشوة السرور لا تأخذكم فتتخطوا جادة اليقظة والاعتدال لئلا يختلط النفع بالضر ، والخير بالشر »[٢]

---

١ – عبرة وذكرى ص ٥٩

٢ – عبرة وذكرى ص ٤٦

موارد الدولة

واذا انتقل بعد دراسة مستفيضة في الهجرة واسبابها ونتائجها ، وفي مأموري الدولة وكيفية معاملتهم ، إلى بحث الناحية المالية ، ظهر ذلك المنظم القـديـر الذي لا يترك باباً من ابواب موارد الثروة الوطنية إلا ولجه . ونكتفي الآن ، للتدليل على ذلك ، بأن نجتزىء بعض آرائه في الزراعـة والسياحة ، على ان نعود في ظرف آخر فنتناول كتابه « عبرة وذكرى » بدراسة تفصيلية مطبقة على حياتنا اللبنانية امس واليوم .

يرى ضرورة تعمير المناطق القابلة للزراعة ، بعمليات اسكان واسعة ، إذ ينقل البدو واهل المناطق القاحلة اليها . ويقتضي لذلك سياسة زراعية رشيدة تقوم بأن يعفى المزارعون لمدة من الضرائب ، وبأن تمدهم الدولة بالمنح والبذار وفسائـل الغرس وآلات الزراعة والماشية ، وبـأن تنشيء لهـم المدارس لتعليم اولادهم . ولا بأس ان تقطعهم بعض الاراضي ، وتتجاوز لهم عن ريعها بضع سنوات ، وتملكهم في النهاية جزءاً منها . فاذا تمت هذه الوسائل البدائيـــة ، وجب على الحكومة ان تهتم بالوسائل الصناعية لري الاراضي ، وتسهيل سبل الاتصال ، ونقل المحاصيل بطرق الحديد والترع ومجاري الانهـار ، فضلاً عن تشجيع التجارة لان موقع البلاد الجغرافي بما هي عروة وصل بين قارات العالم القديم الثلاث ، يجب ان يجعل منها مركز الثقل في التجـارة العالمية . ولكن ذلك لا يحقق ما لم تعمد الدولة إلى انشاء اسطول تجاري « فالملاحة اعظم اركان الثروة والقوة والعظمة » ، وإلى مد شبكة واسعة من السكك الحديدية في البـلاد ، لتخف وطأة الضرر الذي لحق بالتجارة العثمانية بعد فتح قناة السويس وتحول الكثير من تجارة العجم والهند اليها .

وربما كان مترجمنا اول من تنبّه ونبّه إلى مورد هام يمكن للبلاد ان

تستفيد منه ماديا ومعنويا إذا احسنت استغلاله ، ألا وهو مورد السياحة ففي الاقطار العثمانية مواطن الانبياء ومهابط الوحي وهي بهذه الصفة محجة المسيحيين والمسلمين وبني اسرائيل من كل بقاع الارض وفيها اعظم معالم التاريخ القديم ومنها اخذت نفائس الآثار لمتاحف باريس ولندن وبرلين ، وفيها كل ما يتطلبه السائح في اربعة فصول السنة من مناظر خلابة ، وهواء نقي ،وماء عذب معدني ، ولو توفرت اسباب الدعاية والتشويق في الخارج ، واسباب الامن والراحة في الداخل ، من وسائل نقل ، وتمهيد سبل ، وإقامة فنادق وما إلى ذلك ، لكان للبلاد مورد طبيعي للثروة يتضاعف عاماً بعد عام .

تقييم

تلك لمحات خاطفة من آراء البستاني في السياسة . وهي كما نرى لا تتناول بالدرس روح الشرائع والقوانين شأن مونتسكيو مثلاً ، ولا تحاول ان تبني نظاماً عاماً للدولة ، ولا تبحث في مختلف انظمة الحكم ومدى صلاحها لهذه الامة او لتلك مع تطورها على الزمن وارتباطها بطبائع الشعوب وبيآتهم وثقافتهم . لقد كانت سياسته اقرب الى النصح والارشاد ، على كثير من الملاحظات العامة القيمة . انها سياسة تعمير وانشاء ، سياسة ايجابية مستندة الى دراسات علمية دقيقة ، تهتم بالاحصاءات وتقدرها ، وتقيم الموازين والمقارنات بين تجارة او صناعة في دولتين او اكثر : كاحصاء سكان جزيرة العرب وقسم من قبائل البدو في سبيل الاسكان والتعمير ، واحصاء الخسائر التي تصيب العراق من جراء الفيضانات السنوية ، او تنزل بلبنان وسوريا خلال مدة معلومة بسبب هجرة الاهلين ، أو عقد مقارنة احصائيه

بين السلطنة ومصر وبلغاريا ، وبينها وكبريات دول اوروبا في باب الدستور وموارد الثروة الخ ... هذه الاحصاءات التي كانت تعتبر في زمن البستاني « من الكماليات المضرة » والتي يتخذها العلم الحديث اساساً للراهن من بحوثه .

وحسب هذه الآراء – وان تكن وضعت لأمة معينة في ظرف من تاريخها محدد – انها لا تزال تنعم اليوم بقابلية التطبيق على مدى واسع في الكثير من ابوابها ، وتعالج مشاكل حياتية لا يفتأ الشرق العربي يجدها منه في الصميم .

هذه نظرياته في التعليم ، وضرورة توجيهه نحو اهداف ثقافية وطنية ، مع غربلة مناهجه وتوحيدها ، وواجبات الدولة نحو مؤسساته الوطنية والأجنبية ، لا تعدو ان تكون نواة صالحة لحل مشكلة التعليم التي يعانيها لبنان والدول العربية .

ودروسه في الهجرة اللبنانية باسبابها القريبة والبعيدة ، ونتائجها الحسنة والسيئة ، وطرق معالجتها على الصعيدين الوطني والدولي لوقفها وحفظ حقوق بنيها ، الا تفتح عيون القيمين على اخطر قضية يواجهها لبنان اليوم قضية الوصل بين شطريه المغترب والمقيم ؟

ومشكلة المشاكل في الحياة السياسية والاجتماعية « الآفة الكبرى التي نخرت عظام البشر قروناً طوالاً ولا تزال في بلاد الشرق علة العلل » عنى بها التعصب الجنسي والديني ، اما عالجها بجرأة واخلاص ، ورد اسبابها الى مصالح الاجانب والحكام الذين كانوا يحركون هذا السلاح الفتاك كلما عنّ لهم نوال غاية او ستر مظلمة ؟ « علم المسلم والمسيحي ان تلك الايادي الاثيمة التي كانت تدفعهما الى الفتك فريق منهما بفريق ، إنما كانت تتخذ ذلك ذريعة تثنيهما وتثني الناس عن مظالمها ، ثم تنثني اليهما فتبطش بكل فريق منهما على حدة »[١] . أما حاول ان يجد لها الحل الصحيح

---

١ – عبرة وذكرى ص ٩٤ .

بالدعوة إلى تعميم العلم والتهذيب ، وصهر عناصر الأمة جمعاء في بوتقة الوطن تحت علم واحد يعمل له الكل بعقيدة واخلاص فيقضي إذ ذاك على شياطين الفتنة التي لا تزال بالمرصاد تتحين الفرص لايغار الصدور حيث لاح لها منزع للعبث والفساد » ؟

وبحثه سياسة الضغط واثرها في حياة الامة من الزاوية الخلقية والفكرية . وفي حياة الدولة من الناحية السياسية والمالية ، ومـا تؤدي اليه من فقدان الثقة بالحكم وما يتبع ذلك من عدم توظيف الرساميل ونقص واردات الخزينة ، الا يدل هـذا البحث على عمق ونضج يربطان بين مختلف مقومات الدولة ولو تعددت المناحي وتداخلت الاسباب ؟

وهذه اخيراً جولاته في اهمية السياحة ، وتصنيع البلاد ، وتشجيع الزراعة ، وتنظيم الوظيفة ، وتحضير البدو للقضاء على الروح العشائرية وما ينتج عنها من تقهقر اجتماعي وفوضى ، ألا يصح اعتبارها مخططاً يلتقي به مع الحكومات الواعية المخلصة في الكثير من قضاياه ؟

مواقفه وأعماله

قبل الوزارة

هي حلقات متصلة من الجهاد في سبيل الاصلاح الذي رسم خطوطه الكبرى في « عبرة وذكرى » ، ودخل على اساسه مرحلة التنفيذ مندوباً عن ولاية بيروت . وهذه الحلقات ترتبط كلها بمصلحة مثلثة على انسجام عجيب : وطنه (لبنان) وامته (العرب) ودولته (تركيا) في نطاق التعاون الدولي والسلام العالمي .

من مآثره في الحقل الوطني ، انه حفظ حقوق البيروتيين في مكتب الصنائع فحال دون استيلاء الدولة عليه ؛ ونقض الامر الصادر بمنع الاطباء والصيادلة المتخرجين في المدارس الاجنبية – وجلها في بيروت – من العمل في البلديات ومستشفياتها ؛ واعار قضية المهاجرين من مواطنيه كبير اهتمامه فراسل جالياتهم ، واتصل بصحافتهم ، وشكل لجنة رسمية للنظر في شؤونهم ، وحمل الدولة على انشاء قنصليات عامة لرعاية مصالحهم حيث يكثرون ؛ كما حمل وزارة النافعة على رصد المبالغ الضخمة للمشاريع الحيوية في منطقته وبخاصة طريق المركبات الدولية بين بيروت والشام .

وكان في حياته السياسية هذه ، محامياً عن العرب في مختلف أمصارهم .

رأى الدولة تسعى إلى « تتريك » البلاد العربية باحلال لغتها مكان اللغة الاصيلة في الدواوين والمعاملات ، فتنبه إلى خطورة ذلك وهو المدرك ان اللغة رباط من اربطة القومية وثيق ، وان ضعفها على ألسنة شعبها فصم لعلائق التاريخ بين ماضي الأمة وحاضرها ، « فعضد اللغة العربية ، وايدها في المحاكم ومدارس الحكومة وبقية الدوائر في بلاد العرب ، واستصدر الاوامر الرسمية بمنع توظيف جاهليها في هذه البلاد ومنع غير أبنائها من تدريسها في المدارس الاعدادية والرشادية والسلطانية ، وارجاع من عزلوا من وظائفهم اليها لجهلهم لغة الاتراك ... واعتنى بالتوفيق بين الاكليروس والعلمانيين الارثوذكسيين في فلسطين عندما تنازعوا على إدارة الاوقاف وتأليف المجلس الملي المختلط ، وساعد على منع الضرائب غير المشروعة عن العراق واليمن ، واوضح احوال بعض العشائر البدوية لتتحسن معاملتها الرسمية ، ونفى التهم الموجهة إلى جرائد السوريين إن في المهجر أو في الوطن ، وحاول إزالة سوء التفاهم بين الترك والعرب والتقريب بين قلوب العنصرين »[١] .

صدق حدس جرجي زيدان بأن إدارة العمل في مجلس المبعوثان سوف تتوقف على البستاني وعلى نفر قليل من امثاله . فقد ابدى مترجمنا من النشاط المقرون بعمق الدراسة ، وغزارة المادة ، وقوة الحجة ، ماجعل محمود شوكت باشا وزير الحربية « وديكتاتور الحكومة » يقول للمعلم شاكر الجزيني : « نكلفك بأن تعلم اهل بيروت ان نائبهم البستاني هو كناية عن خزان من كهرباء يرسل اشعته إلى كل دوائر الاستانة ... حتى الى وزارة الحربية » وكان إلى ذلك رصيناً في حديثه ، هادئاً في مناقشاته ، لا يستفزه خصم إلى قول ما لا يريد او إلى الاندفاع مع تيار العاطفة . وفيه يقول اسعد الشقيري ، أحد زملائه في المجلس : «يخيل الي حين يستبد

(١) جرجي نقولا باز ، في سليمان البستاني ، ص ١١ .

بنا الجدال في المبعوثان لأمر من الامور الخطيرة ، اننـا معشر المندوبين كالانهر الهائجة تسير صاخبة معربدة حتى إذا وصلت إلى البستاني استكانت وضاع ضجيجها في سعة هدوئه » .

وقد اكسبته هذه الصفات محبة السلطان وتقديره ، واحترام زملائه واعجابهم وان على شيء من الحسد عند بعضهم . فانتخب رئيساً ثانياً للمجلس ، ورئيس خمس لجان نيابية اهمها لجنة الخارجيـة ولجنة السلام العام الدولية ، وانتدبه الباب العالي – وقد اطمأن إلى رجاحة رأيه في المعضلات الجسام – رئيساً أو عضواً دائماً في الوفود المتعاقبة إلى عواصم اوروبا لمهمات سياسية أو مالية ، كما عينته الحكومة موفداً فوق العادة لدى هذه الدول ، بعد ان لمست توفيقه فيما تندبه اليه من اعمال .

في الحكم

وما ان تقلد الوزارة ، مشترطاً ان يكون فيها حر التصرف ، حتى اطلق فيها يد الاصلاح . ادخل الرجـال الاكفاء في المراكز الحساسة ، وشدد الرقابة على الاهمـال والرشوة ، واستعان بالخبراء من وطنيين واجانب في القضايا المالية والتقنية ، ونظـم البنك الزراعي ، وانشأ مدرسة الغابات وعهد بادارتها إلى القائد الفرنسي سارو ، « وكان أول من فكر بتأسيس النقابات الزراعية والصناعية في تركيا فطلب من الوزارة ان تعضده في ذلك فانتدبت شقيقه الدكتور سليم المحامي بمصر للسفر إلى اوروبا ودرس حالة الزراعة وتقديم تقرير عنها ومشروع بتأسيسها ، فقام بمهمته على نفقته الخاصة وقدم تقريره ، إلا أن اضطراب الحالة الدولية لم تمكن البستاني من تنفيذ كثير من مشروعات الاصلاح [1] » .

(١) المقتطف عدد آب سنة ١٩٢٥ ص ٢٤٦

وحاول ان يسترد امتياز سكة حديد بغداد من الشركة الالمانية التي كانت تتحكم بالنقل وتستولي على مساحة عشرة كيـلو مترات على جانبي الخط ، وهي مساحة كثيرة الخصب غنية بالمعادن . واقتنع المسؤولون العثمانيون بضرورة ذلك ولكن نفوذ الدولة الالمانية في اوساط الاستانة ، وتصلبها في دعم اصحاب الامتياز ، وبذلها لهم المال والوعود ، ادى إلى فشل المحاولة .

وبعد نهاية الحرب البلقانيـة ، سعت مملكة البلغار لعقـد اتفاق مع السلطنة العثمانية وارسلت وفداً برئاسة السيد ج . دي ناتشوفيتز . فقام بمباحثات طويلة لم يتوصل معهـا إلى نتيجة ، حتى إذا تأزمت الحـالة وتأهب الوفد للعودة إلى بلاده ، عهـد إلى البستاني أمر مفاوضته ، فلم يمض على ذلك ايام حتى عقـد اتفاق يضمن مصالح الدولتين . وللتدليل على مدى تقديره لجهود الوزير المفاوض وعبقريته ، اهداه رئيس معتمدي البلغار صورته مكتوباً عليها بخطه :

A Son Excellence Suleiman El - Bustani, Ministre du Commerce et de l'Agriculture comme témoignage de ma reconnaissance pour ses efforts et son succès à amener un rapprochement entre L'Empire Ottoman et le Royaume de Bulgarie.

Délegué Bulgare : G. de NATCHOVITS

وتعريبها : إلى صاحب الدولة سليمان البستاني وزير التجـارة والزراعـة ، اعراباً عن اعترافي بجميله لجهوده في احداث تقارب بين الامبراطورية العثمانية ومملكة البلغار .

الامضاء : المعتمد البلغاري
ج . دي ناتشوفيتز

ولعل أجدى خدمة أداها للقضية العربية ، موقفه من مشكلة غور بيسان ، هذا الموقف الذي كانت نتيجته اول نصر عربي على الصهيونية العالمية [١] .

أما بعد نظره السياسي ، واخلاصه لدولته ، فيتجليان بموقفه النبيل في آخر جلسة له وزارية ، يوم راحت الحوادث تزحم بعضها سريعة متلاحقة ، وسيطر على جو السياسة التركية شبح انور وطلعت فوقف يدفع بجرأة وحرارة ، حجج انصار الحرب دون ان يرعبه مسدس في يد أنور ، أو تغريه ملايين الماركات الالمانية . كان همه ان تبقى تركيا على الحياد ، منصرفة إلى تعزيز نفسها في الحقلين : الداخلي والعسكري ، حتى إذا خرجت الدول المحاربة منهوكة القوى ، ناضبة الموارد ، فرضت تركيا ذاتها قوية صحيحة ، تتبوأ مركز الصدارة ويخطب ودها عظماء الأرض . ولو أنهم أخذوا برأيه آنذاك ، لوقوا بلادهم وبلادنا شر ما عرفته من نكبات ، ولتغيرت خريطة الشرق في هذه البقعة من العالم .

(١) غور بيسان ارض خصبة على ضفاف الاردن تبلغ مساحتها ٥٠٠،٠٠٠ دونم (اي خمسائة مليون متر مربع) يرويها عدد من الينابيع والجداول ، ويقطنها ما يزيد على الخمسة عشر الف نسمة من العرب ، وتقدر قيمتها بعدة ملايين من الليرات الذهبية . كانت هذه المنطقة من املاك السلطان عبد الحميد ، وحاول روتشيلد المثري العالمي والزعيم اليهودي المعروف ، ان يشتريها بعد خلع السلطان ، وعقد الصفقة مع انور باشا الذي هيأ قرار البيع واقنع مجلس الوزراء بضرورة ابرامه لتمويل خزانة الدولة واصلاح حالة الجيش ، فوافقوه على ذلك ولم يبق سوى توقيع البستاني بصفته وزير الزراعة والمشرف على البنك الزراعي . بيد ان سليمان رفض اقرار هذا الامر باسطاً لزملائه اهمية الغور الزراعية والاقتصادية ، واذ رأى اصرارهم على البيع قال بدبلوماسيته الهادئة : « معاذ الله ان يكون تمنعي عن الامضاء سبباً في ازعاجكم ، ولكن بدلا من أن اوقع امضائي على هذا التقرير فانا اوقعه على استقالتي من الوزارة » وفوجيء انور بهذا التهديد الناعم الذي يجر تنفيذه الى ازمة وزارية وثورة في الرأي العام ، فمزق التقرير وصرف النظر عن البيع آنذاك . حتى إذا كانت سنة ١٩٣١ جرى تسجيل اراضي الغور لاصحابها العرب .

ولم يقعده المرض في سويسرا عن خدمة دولته إبان اشتداد المحنة عليها . فدخل في مفاوضات طويلة مع مورغنتو سفير اميركا السابق في الآستانة ، ومخابرات مع مندوبي الدول الحليفة ، أدت إلى وضع مشروع جليل يقضي بأن تنسحب تركيا من الحرب وتعلن حيادها لقاء تعهد الحلفاء لها بأمور هامة منها :

١ – الغاء الامتيازات الأجنبية الغاء تاماً .

٢ – ضمان ممتلكات الدولة بحدودها الحاضرة .

٣ – حل مسألة الجزر بما يوافق السلطنة العثمانية .

٤ – مد الدولة بكل ما يلزم لها من المال لاصلاح شؤونها .

وكاد هذا المشروع أن يتحول مرتين إلى نصر محقق ، لو لم تتضافر على خنقه قوى جبارة من الداخل والخارج . منها الخيانة والجشع في صفوف المسوؤولين الترك إذ « حمل امبراطور المانيا إلى الآستانة عشرة ملايين من الجنيهات نقد منها مليوناً لطلعت ، ومليوناً آخر لأنور ، ومليوناً ثالثاً لذيولهما ، فباع هؤلاء السلطنة العثمانية » . ومنها الصهيونية العالمية التي هبت بواسطة رئيسها الدكتور وايزمن تضغط على لويد جورج وزير بريطانيا الأول ، وعلى بلفور وزير خارجيته ، فتحبط بذلك مشروع الصلح المنفرد لتكفل السيطرة على فلسطين وقد قررتها وطناً قومياً لليهود .

السياسي الأديب

لا بد من وقفة تساؤل عن دور الاديب في شهرة السياسي ورجل الدولة .

عرفت السياسة العربية منذ قديم عهدها ، طائفة كبيرة من اقطاب الأدب في سدة الحكم أو في صحبة الحكام . فهـو ذا ابن الزيات وابن عباد وابن سينا في المشرق ، وابن خـلدون ولسان الدين الخطيب وابن زيدون في المغرب والاندلس ، يوزرون لهذا الخليفة او لذاك الملـك ، وينبغون بأدبهم إلى جانب شهرتهم في السياسة . وهوذا المتنبي وابو تمام والبحتري وابن الرومي ، وغيرهم من امراء الشعر والنثر ، يتصلون أو يحاولون الاتصال ، بملك أو وزير ، يعفرون قوافيهم على اعتابه ، ويقفون على بابه مع الواقفين ، ولو عظموا فكانوا من انفسهم الكبيرة في جيش ومن كبريائهم في سلطان . لقد ظل الادب العربي اجمالاً - مهما عـلا شأن الأديب ومقامه - ينظر الى السياسة نظرة تهيب واغضاء .

اما مترجمنا ، الاديب الوزير ، فقد كانت حياته في كل اطوارهـا ثأراً للأدب من السياسة . اتصل برجال الحكم في الحقبة الاولى من حياته ، وعقد الصداقات مع بعضهم ، ولكنه ما وضع يوماً قلمه إلا في خدمـة الحق والعدالة ، ولا اجرى لاحد الحكام ذكراً إلا في باب التمثيل على حسن الادارة أو سوء الفعل بمعرض البحث العام .

اصدر صحيفة تركية في شيكاغو عاشت اياما معدودة ، وكان مقدراً لها ان تعمر ، لو انه اصغى الى نصيحة ناصح فجعل ثلاثة ارباعها وقفاً على مدح السلطان والحاشية . ولكنه لم يفعل ، وعـاد بالخسارة الجسيمة ، مكتفياً بأن يقدم نسخاً منها للصدر الاعظم جواد باشا - بناء عـلى طلبه - وقد كتب خاصة في صدر واحدة منها :

هَذِي صَحِيفَتِيَ التي سَوَّدْتُهَا ... بِدَمِ الفُؤَادِ وقد شَطَطْتُ مَزَارا
أعظَمتُ قَدْرَ كُلُمبُسٍ فَتَبعتُه ... بمشقةٍ فيهـا شققتُ بحـارَا

وَلَقِيتُ ما لاقاهُ من أَهْلِ النُهى   فكفى بذا أَهلَ النهى تذكارا

ومرة ثانية – وهو في مصر – جـاءه صديقـه احمد شوقي شاعر الخديوي ينقل اليه رغبة سيده بأن تهدى الالياذة اليه ، فينال المعرب من العطف والمساعدة ، ما لا يطمع ببعضه إلا القليلون . فاعتذر البستاني بلطف وشكر ، واهدى كتابه الى والده فهو « أولى بـه من كل حي وميت » فدلل بذلك على عاطفة بنوية عميقة بالاضافة إلى ضنه بالادب ان يظل دائماً آلة تكسب واستجداء .

وصار من رجال الحكم بعد ذاك . وهنا يبرز فضل الاديب فيه على رجل السياسة اولا ، وعلى سياسة الدولة بالتالي . إذ استطـاع بفضل شخصيته الادبية ان يكسب في الاوساط العالمية مكانة رفعت لصاحبها ولرجالات بني عثمان اعظم القدر . وما الشواهد بقليلة في هذا الباب .

حدث يوم اوفده السلطان محمد رشاد رئيساً لبعثة شرف تبلغ جلوسه رسمياً إلى دول اوروبا ، ان خطب في حضرة جلالة الملك ادوار السابع في لندن . واعجب الملك بفصاحتـه ، وسأله في اي مدرسة انكليزية درس ، وكم اقام في انكلترا حتى اتقن اللغة كأحد ابنائها . وإذ اجابه بأنه تعلم اللغة في بلاده وفي المدرسة الوطنية بالذات (مدرسة المعلم بطرس البستانـي) ازداد اعجاب الملك الذي قال : « اويحسنون في بلادكم اللغة الانكليزية إلى هذه الدرجة من الفصـاحة ؟ انني اهنئك ببلادك واهنئها بك ، كما اهنىء جلالة السلطان على حسن اختياره » ثم قدمه الى العائلة المالـكة ، وادخله قصره الخاص يتجول فيه ، خارقاً بذلك التقاليد التي تحرم زيارة قصر الاسرة اثناء وجودها فيه .

وحين انتقل الوفـد الى زيارة مجلس العموم واللوردات ، خطب اللورد اسكويت فقال : « انا اشير على كل من يزعم ان لا رجال عند تركيا ان يتحدث إلى البستاني فيتضح له فساد زعمه » .

وقد انتدبته جامعة اكسفورد خطيباً في حفلتها السنوية ، « واعجب به الاوروبيون وتناقلوا رسمه بجرائدهم ونقلوا سيرته في انسكلوبيدياتهم » .

وفيما كان يوماً يزور القسم الشرقي في المكتبة الملكية الوطنية ، اطرى مديرها المستشرق ترجمة الالياذة الى العربية ونعتها بانها اوفى الترجمات واصدقها . وإذ رأى خفر البستاني امام هذا التقريظ « ادرك ان معرب الالياذة ، انما هو هو الوزير التركي محدثه . فانحنى احتراماً مصافحاً اديبنا بحرارة صادقة ، آسفاً لانصرافه عن الادب الى السياسة ، على علو مكانته في مناصبها [1] »

وكتب اليه مرة ملك اليونان ، يدعوه الى زيارة اثينا ، وكان مما قاله : « إذا نحن قصرنا في استقبالك ، فان تماثيل فلاسفتنا وشعرائنا المنتصبة في الشوارع ترحب بك »

وهذان الاعجاب والتقدير ، طالما لاقاهما البستاني في المؤتمرات الدولية التي كان يشترك بها ، وبخاصة حين كان يتوجه إلى كل من مندوبي الدول بلغته الرسمية . فهو يناقش مندوب باريس بالفرنسية ويحادث موفد لندن بالانكليزية ، ويرد على معتمدي روما وبرلين بالايطالية والالمانية ويباسط كلًا من الفارسي واليوناني والاسباني والبلغاري بلغة بلاده على سهولة وفصاحة .

وكأني ببني عثمان ، باستعانتهم بهذا العقل اللبناني الراجح ، وبانتدابه سفيراً دائماً لدى العواصم الكبرى ، ارادوا ان يثبتوا للملأ ان وراء ما تتهمهم به اوروبا من عقلية طورانية تسيطر على « الرجل المريض » عبقريات ضخمة يمكنها ان ترد الاعتبار المفقود ، وان تقف مع الرؤوس الكبيرة بكل فخر واعتزاز .

---

١ — ميخائيل صوايا : سليمان البستاني والياذة هوميروس ص ٢٤.

البَاحِثُ الأدبي

لقد ملأ علي مخدعي سحراً ، حتى خيل
الي انني في قاعة استحضار الارواح ، كلما
مر بي في القراءة ذكر شاعر القى في روعي
ان روحه ترفرف علي ، ثم يتمثل لعيني
في تلك الصورة التي ركبها له صاحب المقدمة •

حافظ ابراهيم

بين ان اطلق على هذا الفصل عنوان « الناقد » او أن أسميه « الباحث الأدبي » وقفت بعض الوقت متأرجحاً .

ذاك انه يتناول دراسات البستاني في مقدمة الياذته وفي شروحها ، وهي دراسات وضع بها المؤلف اسس النقد الحديث في الأدب العربي كما عرفها الغرب في فورتها ، اواخر القرن المنصرم .

ولكن لفظة النقد عندنا ، مهما اتسع مفهومها وعظم شأنها ، تظل مبدئياً « اداة » في دراسة الادب وبالتالي ادباً « تبعياً » مهمته ان يتعلق بغيره ليعيش على هامشه . إذ لا يتصور قائماً بذاته طالما جذوره تمتد إلى قلب ذاك لتستمد منه الوجود ، وطالما يتجه البحث اولاً نحو « موضوع » النقد ، ثم يقوّم النقد وفقاً لصحته وانطباقه على هذا الموضوع . وليس ادب البستاني في مقدمته بالادب التبعي يرتبط بغيره لدرجة الاحتكار والذوبان ، بل هو – على صبغته القديمة – شامل مستقل : انه في نفسه صورة من الادب الابداعي الذي صوره هدسن (في كتابه : المدخل إلى

دراسة الآداب) بقوله : « ان النقد الحق يأخذ مادته والهامه من الحياة ، وهو لذلك ابداعي ، ولكن بطريقته الخاصة »

هذه العوامل ، وان تكن قد صرفتني بالتسمية عن الناقد ، ودفعتني إلى اختيار « الباحث الأدبي » ، فانها لن تصرفني عن محاولة - وان سريعة - لتركيز مترجمنا في الاطار النقدي الذي يساعد على ابراز تجديده من خلال بحوثه وتعاليقه المستفيضة .

في النقد عامّة

تأثريّة وموضوعيّة

رافق النقد – وان على بعض التأخر في الزمن – نشأة الشعر عند الامم . وتطور مع الاعصر ، تحت تأثيرات شتى من عوامل البيئة والعلم ، والانفتاح على معطيات الامم العقلية ونتاجها الادبي .

وتنقل في تطوره هذا بين التأثرية المطلقة والموضوعية المحددة في نظره الى الاشياء ، على تراوح كبير في قيمة البحث ومناهجه ، بين الذوق الفطري والقوانين المرسومة والملكة المثقفة .

من النقد ما يكون اساسه الميول والانفعالات ، وتجاوب شعور الناقد مع شعور صاحب الاثر . فيصدر الحكم مستنداً الى هوى النفس والاحاسيس الفنية ، يبعثها في الناقد مقدرة المؤلف على تنبيه الوجدان واستثارة العاطفة وخلق اللذة والامتاع بما يوفره من جدة وطرافة وصدق تصوير وتلوين خيال . فيأتي الحكم بذلك معبراً عن الذوق الفردي والميل الذاتي ، دونما خضوع للقواعد الضيقة والاصول الموروثة التي يقررها علماء النقد . وهو ما نعبّر عنه اليوم بالنقد الذاتي أو « التأثري » . وهذا العامل الذاتي ينعم بنصرة الكثيرين من كبار النقاد كجيل لوماتر ، واناتول فرانس ، حتى

ليصرح هذا الاخير بأن النقد شخصي انفعـــالي بالدرجة الاولى ، رغم ما يقيدونه به من مبادىء : « ان الذي يلقي محاضرة عن الادب ، إذا كان مخلصاً حقاً فانه بدل ان يقول : أيها السادة سأتحدث اليكم عن باسكال وراسين وشكسبير ، يجب ان يبدأ محاضرته قائلاً : أيها السادة سأتحدث اليكم عن نفسي في علاقاتها مع باسكال وراسين وشكسبير » .

ومن النقد ما لا يستسلم إلى عناصر الاثارة بذاتها فحسب . فنية كانت ام عاطفية ، بل ينظر الى المؤلَّف ككل شامل : فكرة وعاطفة ، شكلا وجوهراً ، في علاقته مع القيم المعنوية والاجتماعية حاصراً بحثه فيما هو بين يديه من موضوع ، مستوحياً حكمه من القيمة الذاتية والطبيعة الخاصة التي تطالعه في هذا الاثر ، مبيناً مواطن الحسن والقوة ، أو الضعف والخطأ فيه . وهو ما نسميه بالنقد « الموضوعي » . ولكن طائفة من انصار هذا المذهب رسمت له قوانين شبه رسمية ، تحد من شخصية الناقد وانطلاقه ، حتى لتمحو ذوقه الخاص وتعطل مقدرته الفنية في هذا المجال . ولذلك رأينا سانت بيف Sainte Beuve مثلاً ، يهاجم القواعد المنهجية ، معتبراً ان كل كتاب « هو تعبير خاص عن مزاج فردي » وان العنصر الشخصي لدى الناقد الحق يظل هو الاساس . وفي ذلك يقول : « ان النقد لا يمكن أن يصبح علماً وضعياً ، وسيبقى دائماًفناً دقيقاً في يد من يحاولون استخدامه ، وإن يكن قد استفاد من كل ما انتهى اليه العلم أو كشف عنه التاريخ من حقائق ... سيكون دائماً فناً يحتاج إلى فنان ماهر على نحو ما يتطلب الطب حاسة خاصة عند من يزاوله ، والفلسفة ذوقاً فلسفياً ، والشعر موهبة شعرية »

وبين هذين المذهبين ، يطالعنا عدد وافر من المذاهب النقدية تتفاوت قيمة وتأثيراً . كالنقد الجمالي – وهو اشهرهـــا – والنقد التاريخي ، والاعتقادي ، واللغوي ، والعلمي ، وغيرها .

حكم أم تحليل

وكما اختلفت المذاهب في النقد هكذا تباينت الآراء في مهمته. فقال البعض بانها حكم، وذهب الآخرون إلى أنها عرض وتفسير، وقرر الكثيرون كونها الأثنين معاً. وربما كان مرد ذلك إلى أصل كلمة نقد في اليونانية القديمة، فهي تتضمن معنى الحكم ومعنى التحليل جميعاً،

أما النقد « الحكمي »، فقد ظهر أولاً في تاريخ الأدب. ذاك انه كان « مجرد استجابة ذوقية » فيحكم لشاعر بالأفضلية سنداً لبيت من قصيدة، أو لتشبيه جميل، أو لفكرة موفقة. واكثر ما يبرز ذلك في نشوء الآداب، أي حين تكون درجة رقي الشعب الفكري لا تزال ضئيلة. وميزة الأحكام في هذه الحقبة، انها عامة شاملة، بعيدة عن التحديد والاحتياط، لا تحاول التعليل وان أقدمت عليه فهو تافه أو مقتضب. ويعرق الشعب في الحضارة، لكنه لا يخلص من القديم دفعة واحدة، بل يرى الخير كل الخير في نواح يقلدها وقواعد مقررة يسير عليها. وهكذا نجد الأثر الملحمي لا يقدّر إلا بمدى موافقته لقوانين هوميروس، والشاعر المسرحي لا يكون موفقاً إلا بمقدار ما تنطبق مسرحيته على قوانين ارسطو، فيحكم له أو عليه لهذا التوافق. فصار النقد عند هذه الفئة « اصطلاحياً صارماً، متعنتاً مستبداً، ينكر كل انحراف عن الخطوط المرسومة والسنن الموضوعة كما في حالة شكسبير الذي ظل إلى زمن طويل في فرنسا، يعتقد انه خال من الفن لأن عمله لم يخضع لقوانين القصة التمثيلية الكلاسيكية التي قد اعتبرت كنموذج مثالي. فمثل هذا النقد كان دائماً يبحث عن مرشد له في الماضي [١] ».

---

١ – احمد أمين : النقد الأدبي ص ١٨٧ .

وظلت الطريقة الحكمية القديمة مسيطرة حتى أواخر القرن الثامن عشر يوم قامت نهضة مجددة مع أمثـال لسنج Lessing في المانيـا . وكولردج Coleridge في انكلترا ، وسانت بيف في فرنسا ، وإذا بنزعة مقابلة تصبغ القرن التاسع عشر ، هي اعتبار التحليل والعرض العملية الأساسية في النقد « حتى اصبح التحليل والتفسير في القرن الذي نعيش فيه - يقول برونتيير - هو كل النقد » وحتى بدأ النقد « وهو فن الحكم على صفات الشيء الجميل وقيمته حسب رأي غوس Gosse ، يحمل معنى ثانوياً آخر اكثر تخصيصاً وهو تحليل مزايا الأثر الفني أو الأدبي ، وتحديد صفاته » . وهذا ما اطلقوا عليه اسم النقد « التفسيري » اي الذي يعنى بطريقة خلق الاثر الأدبي ، وكيفية تكوينه ، وارتباطه بحياة مؤلفه مع حل صفات الجمال والقوة فيه ، وتوضيح المبادىء الفنية والخلقية التي رمى اليها الكاتب ، وارتباط الاجزاء والعناصر المختلفة ببعضها ، وبسط الكتاب بمحتوياته وروحه وفنه . انه النقد الذي يفرض واجبات لخصها ولتر باتر Walter Pater بقوله : الشعور بميزة الشاعر والرسام ، وحلها ، وعرضها ، هذه هي المراحل الثلاث لواجب النقد .

وقد تطرف بعض النقاد في نبـذ الحكم من عملية النقد ، فاذا بشيرر الفرنسي يكتب أن دارس الجمال يفضل التأمل على الحكم ، والدرس على التقدير ؛ وبمولتن الانكليزي يقرر في كتابه عن شكسبير « الناقد كالعالم الاجتماعي ليس له ان يتورط في احكام الخـير أو الشر ، الجودة أو الرداءة ، وانما عليه ان ينقل مادته كما هي وان يحاول فهمها عن طريق تحليلها ودرسها » .

ولكن حركة الجمع بين العرض والحكم في كل اثر نقـدي ، هي التي تسيطر اليوم فنستمع إلى الشاعر إليوت يتحدث عن مهمة النقد : « ان هناك حدين - نظرياً على الاقل - للنقد . حد نقف عنـده لنرد على

السؤال : ما الشعر ؟ والحد الآخر نقف عنده لنرد على السؤال الآخر : هل هذه القصيدة جيدة ؟ »

وفي نهاية القرن الماضي ، برز لون جديد من الدراسة والنقد ، يقوم بالمقارنة بين اديبين اختلفا نشأة وعصراً ، وامة ولغة ، او بين ادب أمتين في حقبة من تاريخهما ؛ مع تقدير عناصر الاخذ والعطاء ، وكيفية انتقالها ، بين هذا الاديب وذاك او هذه الامة وتلك .

ولسنا الآن في موقف مناقشة هذه المذاهب ، بل في سبيل عرضها لنتعرف مركز النقد العربي في قديمه وحديثه ، من تيارات ادبية تعاون على خلقها طوائف متعددة من شعوب كثيرة .

العَرَبُ والنقد

في الجاهلية

الجاهلي في صحرائه ، محدود البيئة محدود التفكير . تستبد به العاطفة ، ويجمح به الخيال ، فلا ينبسط عقله إلا « بفلتات الطبع وخطرات الفكر » . ينظر الى الاشياء من خلال ذاته ولا يقوّمها إلا بما تنتج له من نفع أو تولّد فيه من شعور . اما نظرة استغراق وعمق ، تحيط بالموضوع من جميع جهاته وترتفع من المادة الى التجريد ، فتربط النتائج بالأسباب ، وتبحث في العلل القريبة والقصية ، وتسلك هذه البحوث في مذهب جامع تسوده الوحدة والانسجام ، فهذا ما لم تتفتح له عقلية البدوي في جاهليته .

ومن هنا جاء الشعر في هذا العصر غنائياً محضاً يترجم عن شعور قائله بصدق يبلغ احياناً درجة السذاجة الفطرية التي تدفع به إلى الغرور والمغالاة . وكان طبيعياً – والشعر ابرز مظهر فني آنذاك ، والشاعر يقوم بمهمة الصحافي والمحامي – ان يقف الناس معلنين استحسانهم واستهجانهم لهذا الشعر باحكام سريعة موجزة ، تعلق بلفظة أو ببيت وتمليها العاطفة دون بحث وتعليل . مثال ذلك نقد طرفة لخاله المتلمس

الذي «استنوق الجمل» ، أو حكم الحطيئة في اشعر العرب . فقد سئل الحطيئة مرة : من اشعر العرب ؟ فأجاب : الذي يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ، ومن لم يتق الشتم يشتم

يعني زهيراً . ثم سئل فمن ؟ فأردف : الذي يقول :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

يعني عبيد بن الابرص . دون ان نعلم لمَ فضّل واحداً على الآخر ، ولمَ فضلهما معاً على سائر شعراء العرب .

وربما حاول الناقد ان يجد تعليلاً لحكمه ، ولكنه تعليل بدائي محدود شأن ما جاء عن ام جندب في احتكام علقمة وزوجها امرىء القيس اليها ، أو عن النابغة الذبياني في حكومته بسوق عكاظ . وكلها ارتجالية ، مطلقة ، تعتمد على الذوق الفطري والحساسية الفنية ، ولكننا لا ننكر ان هذه الحساسية كانت صادقة موفقة عندما تعرض للموازنة بين القصائد المشهورة . والمعلقات دليل على حسن هذا الاختيار .

وبوجه عام كان النقد تابعاً للشعر «فالشعر كان احساساً اكثر منه عقلاً ، وكان النقد كذلك ... وكما ينفعل الشاعر بعواطفه فيشعر وينفعل الناقد بحسه فينقد . وكلاهما بدائي ساذج .. وبهذا لم يكن النقد مبنياً على قواعد متينة ولا على ذوق منظم ناضج . إنما هو لمحة الخاطر ، والبديهة الحاضرة [١] »

١ – احمد امين : النقد الادبي ٤١٨ .

مع بني أميّة

وجاء العصر الاسلامي ، فدخل في النقد مقياس جديد هو الدين . وأصبح الخلفاء الراشدون خاصة ، لا يعلنون رضاهم عن شعر إلا إذا كان بعيداً عن صبغة الجاهلية ، موفقاً لروح الدين مشيداً بالاخلاق جارياً مع الطبع ، ولا يعلنون هذا الرضى إلا مشفوعاً بنظرة موضوعية في الاسباب الموجبة لذلك كقول عمر بن الخطاب في اعجابه بزهير : « كان لا يعاظل بين القول ، ولا يتتبع حوشي الكلام ، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه » .

وفشا مع الامويين – الذين فتحوا ابوابهم للشعر واتخذوه وسيلة للسياسة والاقناع – نوع من المنافسة الشديدة بين الشعراء ، يتبعها صراع عنيف بين انصارهم في سبيل الموازنة والتفضيل . فانقسم الناس مع المثلث الاموي إلى ثلاثة معسكرات ، كل يتلمّس محاسن شاعره ومعايب خصمه . وكانت هذه الحقبة عامرة بالنقد الحكمي حتى ليسمى الحكم قضاء ، والناقد قاضياً ، والعمل حكومة ، كما جاء عند الاخطل في مفاضلته بين الفرزدق وجرير : اني قضيت قضاء غير ذي جنف ... وقد رد عليه جرير – اثر تعديله حكمه – هازئاً معيّراً :

يا ذا الغَباوَةِ إنَّ بِشراً قد قَضى   أن لا تَجُوزَ حكومَةُ النَشْوانِ

فَدَعُوا الحكومَةَ لَسْتُمُ مِنْ أَهْلِها   إنَّ الحكومَةَ في بني شيبانِ

وشارك الشعب وصغار الشعراء في هذه الحكومة الادبية ، فاغدقوا على اصحابهم نعوت العبقرية بغير حساب ، وإذا بنا قلما نجد شاعراً إلا وهو اشعر الشعراء برأي انصاره ، لبيت قاله في المدح أو في الفخر أو

في الهجاء .

وقام المربد في الاسلام يشهد ما شهده عكاظ في الجاهلية ، ودخل الشعر ونقده مجالس الوجوه والكبراء في الشام والحجاز ، واخذ به النساء والرجال على السواء ، فكانت هذه المجالس حلقة بين النقد التأثري الذاتي ، والنقد المستند إلى آراء العلماء المتخصصين . ونشطت حركة التدوين في العلوم اللسانية والادبية مع النحويين والرواة ، فكان لا بد من دخول عنصر اللغة والعروض في موازين النقد .

وعلى كون النقاد في هذا العصر تنبهوا إلى كثير من خصائص الشعر كوحدة القصيدة ، وجودة المعاني ، وسمو الخيال ، وروعة النغم ، وحسن الصياغة ، فانهم « لم يحملوا انفسهم مشقة التأمل والفحص الكامل المستوعب ، والدراسة المستفيضة التي ترفع تلك الآراء إلى درجة الرأي العلمي ... فالنقد عندهم يغلب عليه الرأي الذاتي والميل إلى التعميم في الاحكام مع قليل من الموضوعية الجزئية عند العلماء ... ويمكن ان يقال انه بانتهاء العصر الاموي تنتهي الادوار الاولى للنقد ، تلك الادوار التي يمكن ان توصف إلى حد ما بانها بدائية ، وهي ادوار النشوء والارتقاء[١] »

مع العباسيين

مع انتقال الحكم إلى بني العباس ، طغى على بغداد فيض من الثقافات الاجنبية من يونانية وفارسية وهندية ، ونهضت « دار الحكمة » في عهد

١ — بدوي طبانه : دراسات في نقد الادب العربي ص ٨٩ و ٩٥ .

المأمون بنقل هذا التراث الضخم من العلم والفلسفة إلى العرب وإن هي إلا سنوات قلائل حتى ظهر اثر ذلك عمقاً في الافكار، ورقة في الاذواق وتنظيماً في المعارف. ودخلت الروح الفلسفية والعلمية في التآليف والمناقشات « فرأينا كل مجموعة من المعارف تتحول إلى علم حتى اللغة والادب والصرف والنحو ». وان من يلقي نظرة سريعة على الكتب الموضوعة قبل الترجمات وعلى المتأثرة بها، يدرك مدى هذا التأثير وخطورته. وما كان للادباء — وقد اطلعوا على كتب ارسطو وعلى اقوال الفرس والهند في البلاغة وشروطها — ان يظلوا بمعزل عن هذه الحركة الفكرية العلمية، وان تظل مقاييسهم في النظر إلى الادب جامدة غير متطورة. فكثرت مجاميعهم وتصانيفهم الادبية، وكلها تتصل بالنقد من قريب أو بعيد.

نهج بعض هذه الكتب في النقد منهجاً تاريخياً، فعرض لنشأة الشعر وتنقله في القبائل، وللعوامل التي ساعدت على قوله، وذكر طائفة من مشاهير الشعراء مع تاريخ حياتهم واخبارهم وتصنيفهم إلى طبقات حسب ازمانهم وبيآتهم وفنونهم الادبية. ثم سرد شيئاً من اشعارهم مبيناً مواطن الجمال أو مآخذ الضعف فيها، محاولاً عزل الشعر المنحول وتعيين اسباب النحل، متوقفاً عند السرقات وتوارد الخواطر وموقف الناس والنقاد من كل ذلك ومن اهم هذه الكتب التي ظلت مرجعاً لتأريخ الادب القديم ودراسته: « طبقات الشعراء » لابن سلام، « والشعر والشعراء » لابن قتيبة.

وبعضها بحث في النقد العام، آخذاً بالمنهج الفني الموضوعي ينظر إلى النص معالجاً مشكلتيه: اللفظ والمعنى، باحاطة واسعة، من تفصيل اصناف الدلالات المعنوية، إلى التمييز بين الطبع والصنعة إلى الواقعية في الادب، إذ « لكل مقام مقال ولكل صناعة شكل ». إلى البحث

في الاساليب التي يحددها – مهما تنوعت – ثلاثة امور : المخاطب ، والموضوع ، والمعنى . وهذا المنهج يقرر الحياد والتجرد تجاه الأثر الأدبي فلا يتأثر بنظرة الغير اليه ، بل يقدره بمعزل عن صاحبه وعصره ، وكأنما هو ردة ضد الذين كانوا لا يرون الشعر إلا عند الأقدمين : فيجيبهم بلسان الجاحظ : « لو كان لهم بصر ، لعرفوا موضع الجيد ممن كان ، وفي اي زمان كان » . أو بلسان ابن قتيبة : « ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا لمتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلاً حظه . ووفرت عليه حقه . ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل كل قديم حديثاً في عصره » . وفي طليعة الكتب الآخذة بهذا النقد العام على كثير من الالتفاتات الادبية الرائعة : البيان والتبيين للجاحظ ، والشعر والشعراء لابن قتيبه (في مقدماته خاصة) ، والكامل للمبرد ، والمثل السائر لابن الاثير .

وبعضها فى النقد الخاص ، يدرس شاعراً واحداً بنقد فلسفي ادبي كرسالات أبي العلاء في ذكرى « حبيب » ، و « عبث الوليد » و « معجز احمد » – او يعتمد طريقة الموازنة بين شاعرين او اكثر ككتاب « الموازنة بين الطائيين » للآمدي ، و « الوساطة » بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني .

وبعضها اتّبع نهجاً خاصاً فحوّل النقد إلى درس بلاغة ككتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر ، واسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني .

وعلى الجملة فقد اتسعت في هذه الحقبة من الزمن ، دائرة النقد بمختلف فروعه ، من النقد البياني أو البديعي الذي يصرف همه الى الصور الادبية ودراسة الشكل مع كتاب البديع لابن المعتز ، إلى النقد اللغوي

والعروضي الذي عمق وتنظم ، إلى النقد الموضوعي الذي وفرت عناصره بتشعب البحوث وتنوعها ، إلى النقد التأثري الذي شرع يبني أحكامه لا على الذوق والاحساس الشخصيين فحسب بل وعلى مقومات جمالية معللة .

بيد ان هذه النهضة في النقد ، وجدت ردة عنيفة في العصور الوسطى إذ « ضعفت الملكات ، وعمقت الأوزان ، وتضاءلت الفطر الادبية السليمة ، وتعصب العلماء والادباء للشعر القديم لقدمه فأحاطوا الشعر الجاهلي بهالة من التقديس والاجلال . لا يرون احداً احسن مثل احسان الجاهليين أو أجاد اجادتهم ، بل رأوهم معصومين من الخطأ والعيب والنقد . واستمر هذا المذهب سائداً حتى العصر الحديث [١] » .

ولم يختلف النقد في تطوره عند الفرنجة ، عنه عند العرب ، في خطوطه الكبرى على الأقل ، حتى لنستمع إلى فلوبير يقول : « ان النقاد ايام لاهارب كانوا لغويين او نحاة ، وايام سانت بيف وتين نراهم مؤرخين ، فمتى ، متى ، يكونون فنانين ، ولا شيء غير فنانين » .

---

١ ــ عبد المنعم خفاجي : موقف النقاد من الشعر الجاهلي ص ١٥

النقد عهد البستاني

في البلاد العربية: لغة ومهاترة

« إن حالة اللغة في الكتابة كانت بين فئة تتعهد كلامها، وفئة ترسل الكلام كما يجيء، لا تكلف نفسها تنقيحاً ولا مراجعة. تلك تشد بالنواجذ على النصاب العربي، وهذه تريد ان تتفلت منه بعد ان افاضت إلى منفسح من تصورات دخيلة وتعابير دخيلة. وكان ان انقبض اولئك عن الحلاوات الاجنبية في اسلوب الكتابة، وبالغ هؤلاء فيها، فقنع نفر بقيام المعنى دون الالتفات إلى قيام المبنى، وقنع النفر الآخر بركوب السجع في كل مقام وسوق المترادف بلا وجه ... فتفشى الغلط وفسدت السلائق وراجت البضاعة الخفيفة. وهكذا ضاع البيان على ايدي الاولين وضاعت اللغة، وسلمت اللغة على ايدي الآخرين وضاع البيان. ولولا الفئة الناجية وهي التي رزقت الاجادة وسلامة الاداء في آن معاً، لما جاءنا عن زمانهم هذه الحسنات الكثيرة [1] »

ومن هذه الفئة الناجية احمد فارس الشدياق، وابراهيم اليازجي اللذان

---

١ — امين نخلة: الحركة اللغوية في لبنان، من محاضرات الندوة سنة ١٩٤٧ ص ٤٩ — واليها نعود في بعض الشواهد لهذا الباب.

تركا طابعهما العميق في الحقبة الاخيرة من القرن المنصرم .

أما اليازجي فقد بدأ حياته الأدبية بنقد وردّ على نقد . ولكن نقده في الغالب – شأن اكثر معاصريه – كان يدور على الناحية اللغوية اصلاً مع تطرق إلى الاساليب البيانية (من قوة عبارة وحسن تماسك ، إلى مطابقة لقواعد اللغة وصيغ البيان) . وحسبنا العلم ان مناظرته مع الشدياق طالت حول لفظتي المرابط والمرابض وإذا كانت هذه الأخيرة تستعمل لكل دابة ، ام يقصر استعمالها على الغنم وحده . ومن هنا كثر تفقده لغة الجرائد والمجلات ، بما يجعل مقالاته في الضياء ، مرجعاً قيّماً « لا يكاد يوجد في الذين كتبوا في التخطئة والتصويب في زماننا من لم ينظر إليها » .

ولئن تميز نقده احياناً بالقسوة والسخرية ، فانه يظل بعيداً عن الاسفاف والبذاءة ، هدفه الكشف عن الحقيقة وخدمة اللغة على تجرد واخلاص نادرين . قال في تعليقه على رواية عذراء الهند لأحمد شوقي : « نومىء إلى بعض ما فيها من مطارح النظر قضاء لحق النقد ووفاء لما ارصدنا له أنفسنا من الخدمة العلمية ، وهو ولا جرم شأن كنا نود التفادي منه حرصاً على ولاء المؤلف ... ولكن معاذ الله ان نكون ممن يقبل على الحق رشوة ، أو يرضى عن امانة العلم ثمناً » . وجاء في رد له على الامير شكيب ارسلان : « يعز علينا أن نرى ما نشرناه من النقد على هذه الرسالة (الدرة اليتيمة) قد ساء اكرم صديق علينا ، وأعظمهم حرمة عندنا ... ومعاذ الله ان يكون مثل هذا مما يصل إلى مكان الذمة فيفسدها . بل الذي نتيقنه اننّا واياه اعوان في نصرة الحقيقة حيث كانت ، شركاء في الذود عن حياض العلم ولو بالاخذ له من انفسنا »

ذاك مثال النقد النزيه ، المجرّد ، الذي يسوقه اليازجي وقت كان

الكثيرون يعتبرون النقد ضرباً من التجريح والتحقير فنستمع إلى الشدياق في بعض ردوده : « اما ترجمة ابراهيم اليازجي فهو صاحب السفاهة الكبرى والقذف والافتراء ... وقد بلغني ممن يوثق بكلامه انه من أهل الاسواق واولاد الزقاق ، واننا قبل وقاحته هذه لم يكن لنا علم بوجوده في الاحياء ، ولم يذكره ذاكر في الاحياء » . أو نستمع الى يوسف الاسير في نقده كتاب السهم الصائب لسعيد الشرتوني « ان ذلك السهم جاء طائشاً ، وصاحبه قد هام في تيه الاوهام هياماً فاحشاً ، ولم يشعر انه جاء من شرتون ، فوقع في شر اتون ... وافتخاره بالعلوم كافتخار الزنوج السود بسبط الشعر وبياض الخدود . وقد خبط في تلك الخطبة خبط عشواء ، وهزج في ديباجته المدبّجة بقلة الحياء » . وموقف الأحدب ابراهيم ، لا يقل عنفاً عن موقف زميله الاسير ، عندما يتحدث عن « نكرة لا تطيب بالتعريف لخبث النشر من شرتون »

وربما كان الامير شكيب ارسلان ابعد مناظري الشيخ عن الاسفاف والمغالطات ، وبالتالي أقربهم الى النقد الصحيح بدراسة الاثر الفني ، وعرضه على ميزان العدالة الادبية والذوق السليم .

وهكذا نرى النقد الادبي في مستهل القرن العشرين ، يوم ظهور الالياذة ومقدمتها ، اساسه اللغة على قليل من الالتفات إلى الاساليب البيانية ، وعلى كثير من الغمزات الشخصية والمهاترات .

في أوروبا : لون جديد

كان القرن التاسع عشر في اوروبا ، قرن نهضة وثورة في الادب والنقد . فان التحرر السياسي والاجتماعي ، الذي نادت به ثورة فرنسا ،

استتبع انتفاضة قوية شملت نشاط الفكر في شتى معالمه . فترتبت مذاهب النقد الكبرى بنظرياتها المختلفة حسبما رأينا ، مع امثال وردسورث ، وكولردج ، ولامب ، وهازلت ، وكارليل ، وارنولد في إنكلترا ، وسانت بيف ، وتين ، وبرينتيير ، وجيل ليمتر ، وفاجيه في فرنسا ، وجوته ، وشيلر في المانيا .

ونشأ مع هذا العصر لون جديد من البحوث الادبية ، صبغ النقد صبغة خاصة وكان من شأنه ان يجمع الاتجاهات الفكرية والادباء من كافة البلدان ، تحت لواء «عالمية عقلية» . ذاك هو الأدب المقارن الذي يقوم على دراسة احتكاك الآداب العالمية بعضها ببعض ، مع العوامل التي ادت الى هذا الاحتكاك ، والمجاري التي قادت اليه ، والمظاهر التي تجلى فيها ، والنتائج التي ترتبت على كل ذلك . والادب المقارن «يحاول ككل علم تاريخي ان يشمل اكبر عدد من الوقائع المختلفة الاصل . وتقرير المشابهات والاختلافات بين كتابين أو مشهدين او موضوعين أو صفحتين من لغتين او اكثر ، انما هو نقطة البدء الضرورية التي تتيح لنا اكتشاف تأثر او اقتباس ، وتتيح لنا بالتالي ان نفسر اثراً بأثر [١]» فهو بذلك فرع من تاريخ الأدب يعنى بروابط الفكر العالمي ، وبالحالات الانفعالية والصور الفنية المشتركة . انه يرمي الى وصف انتقال . انتقال شيء إلى خارج حدوده اللغوية [٢] متوقفاً على التطورات التي لحقت هذا الانتقال مع كل اديب وكل امة [٣]

واذا كان بعض كتاب الثلث الاول من القرن الماضي قد خلقوا جواً ملائماً لنمو الأدب المقارن ببحوث ومحاضرات تلقى على نحو غير منتظم ، فان الثلث الثاني منه رأى ظهور الأدب المقارن نهائياً إلى الوجود مع

١ – فان تيجم : الادب المقارن ص ٢٠ .

٢ – فان تيجم : الادب المقارن ص ٧٤ .

٣ – م . ف غوريار : الادب المقارن ص ٦ .

دراسات واسعة – ولكنها عامة – في العلاقات الأدبية بين الامم كفرنسا وايطاليا مثلاً ، او فرنسا وانكلترا واسبانيا . بيد ان فورة هذا الأدب سوف تشتد في اواخر القرن حتى تشغل حيزاً خاصاً بها ، فيظهر سنة ١٨٨٦ اول كتاب موقوف بكامله على نظريات هذا العلم وهو كتاب «الأدب المقارن» لمؤلفه الانكليزي م . ه . بوسنت . كما يظهر في هذه الفترة نفسها «مجلة الأدب المقارن» في المانيا ومحاضرات برونتيير في دار المعلمين ، ومقالاته في مجلة العالمين حيث «يقف حماسته النضالية على نشر افكار مناصرة لقضية الأدب المقارن » .

ثم انتقل النشاط في هذا الحقل الادبي الجديد من الافراد إلى الجامعات ، فافتتح في فرنسا عهد التدريس النظامي للأدب المقارن بأن خصص له منبر في جامعة ليون سنة ١٨٩٦ . وتبعتها جامعة كولومبيا في نيويورك عام ١٨٩٨ فأنشأت له منبراً وشرعت باصدار مجموعة «مكتبة الأدب المقارن» . وعقد في باريس صيف ١٩٠٠ بمناسبة المعرض العام ، مجلس عالمي للتاريخ فيه شعبة خاصة بتاريخ الادب المقارن ، رئيسها الناقد الشهير برونتيير . ثم تتابعت في مستهل القرن العشرين منابر تدريسه في مختلف الجامعات ، في السوربون وستراسبورغ ، وليل والكوليج دي فرانس ، لدرجة اصبحت معها اليوم مقارنة الآداب جزءاً متمماً لكل دراسة ادبية جامعة .

واتسعت حلقات البحث ، لتنتقل من علاقات ثنائية بين كاتب وكاتب ، وأدب وأدب ، إلى دراسات عامة متصلة بالأنواع والأساليب والعواطف والأفكار في عدة آداب معاً . وهذا هو الأدب العام أو « الأدب الكلي » الذي يعتبره فان تيجم امتداداً طبيعياً للأول ، له ميدانه الخاص ووظيفته الخاصة ، فهو يوضح الروابط الروحية التي تجمع عدداً كبيراً من الناس في حقبة من الزمن أو في اجيال مختلفة ، وهو يساعد

الباحث على تركيز أدبه القومي في نطاق الأدب العالمي فتـأتي بذلك دراسته أعمق واكمل . أمـا الوقائع التي يتناولها الأدب العام فمتعددة مظهراً وجوهراً ، تارة هي نزعة انسانية عميقة كالتولستوئية مثلاً ، ومرة هي تيار فكري أو فني عام كالكلاسيكية والرمزية ، واخرى هي صورة مشتركة من طريقة وفن كالمأساة والملهاة ومـا اليهما « والغاية الأساسية على كل حـال هي ان نكتشف ونحدد وندرس من خلال الاختلافـات التي تفصل الآداب بعضها عن بعض ، الحالات المشتركة والمتعـاقبة من الفكر والفن في طوائف الأمم الكبرى ذات الحضارة المتشابهة إلى حد ما ... وايا كان الموضوع الذي يطرقه الأدب العـام فانه يهدف فيه إلى جمع ما فرقته المناهج الأخرى ، فهو إذن ادنى إلى الدقة والتجريد في آن واحد ... انه يتناول ظاهرات أوسع رقعـة ولكنها أقصر مدة [١] » .

---

١ – فان تيجم : الأدب المقارن ص ١٨٠ و ١٨٢

النقد مع البستاني

مقوماته

عدّة الناقد الحق في مهمته الصعبة :

بصيرة نافذة تصل إلى العميق من المرامي البعاد ،

وخيال متوهج دقيق على شعور دائم التنبه ، يبعثان في النص حياته التي أرادها له المؤلف ،

وذوق مرهف سليم يسبر الأثر الفني فينقل ما فيه من تجربة شعورية ومستتر جمال ،

وثقافة واسعة تكشف الروابط الموحية بين مختلف الآداب والعصور والفنون والأدباء .

ونظرة شاملة على مرونة وسرعة استجابة لكل التأثيرات . يضاف إلى ذلك تعمق في اللغة ، ولصوق بالحياة ، ودقة في الملاحظة ، وتجرد في الحكم ، وجرأة وصراحة في قول الحق . فالناقد حسب سوبرفيل يتحلى بصفات الفنان والبحاثة على فلسفة نفسية تحيط بغور الفكرة وتحسن التقدير .

وكان البستاني على بسطة من كل هذه المزايا . وساعده اطلاعه الواسع أدباً ولغة على أن يجاري الفكر العالمي ويتعرف مناهجه ، فيتأثر بها ويحاول ان ينقلها إلى بني قومه ، وتكون نتيجة ذلك مهر اللغة العربية بالادب المقارن وبالبحث المنهجي المركز في الادب والنقد . وكان له من سليقته الشعرية خير عون في هذا السبيل ، فحقق بذلك شرط من يتشدد على ناقد الشعر فيفرض فيه ان يكون شاعراً متذوقاً ، إذ لا يحكم بدقة على المريض غير الطبيب الشرعي ، ولا يدرك مناعة الجسور وصلاحية القناطر سوى المهندس المختص . وقد تطرف في هذه القسوة عدد من الادباء حتى ليعتبر غوستاف فلوبير « ان الكاتب ينصرف إلى النقد حين لا يمكنه ان يكون اديباً متفنناً » ويتحدث تيوفيل غوتيه عن الكراهية الطبيعية التي يحملها النقاد للشعراء – النقاد الذين حرموا موهبة الشعر – فيشبهها بكراهية العقم للانتاج والجواد للمهاز . ومثل هذا الاعتبار يدفع اندره سوريس الى القول ان الناقد – بواقع تحديده بالذات – عدو الآثار التي يدرسها لانه لا يستطيع ان يبدع نتاجاً فنياً قيماً فيصب نقمته على نتاج الغير . اما سكوت جيمس في كتابه : العملية الادبية ، فيذهب إلى ان الناقد «هو المختص الوحيد الذي يستفتى ويفتي في ما لا يتقن من علم أو فن . انه يفتي في الشعر ولو سألناه ان يكتب بيتاً واحداً لما استطاع . فماذا يكون اذن ؟ جاهل يفتي فيما لا علم له به ».

بيد ان مترجمنا البستاني ، وقد جمع الى ملكة النقد شاعرية مقلة ولكنها نافذة ، يظل بمنجاة عن مثل هذه التهجمات العامة حين يطالعنا في تعاليقه على الالياذة وفي مقدمتها ، بالمحاولة الخصبة لتاريخ الادب على ضوء تقدير القيم لا على ضوء تعداد الاسماء .

مَنهجهُ في البحث

استقراءٌ واستنتاج

تقع المقدمة بمئتي صفحة من القطع الكبير . تناول فيها المؤلف طائفة من المسائل الادبية ، جعلت يعقوب صروف في مجلته المقتطف يقرنها بمقدمة ابن خلدون وما كان لها من بعيد اثر في دراسات العمران والاجتماع . بل هي برأيه تفضلها بدقتها وحسن تنسيقها ، «فنسبتها الى مقدمة ابن خلدون من حيث دقة البحث نسبة العلم في هذاالعصر اليه في عصر ابن خلدون [١] »

بدأها بفصل واف في تحقيق شخصية هوميروس . وما كان من تشعب الاقوال فيه وتباين المزاعم حول اسمه ولقبه ونشأته واسرته «فاذا ولد اختلفوا في ابيه ، واذا دب اختلفوا في ربيبه ، وإذا شب تنازعته الامصار ، واذا انشد الشعر ذهب فريق إلى انه انشده مترنماً كامرىء القيس ، وقال الأكثرون بل تغنى به مستجدياً كزهير ، وهكذا ظلوا يتقولون في مناحي حياته الى ان تناولوه ميتاً فأماته بعضهم كمداً ميتة نحوّينا سيبويه [١] »

---

١ – المقتطف عدد يوليو سنة ١٩٠٤ .

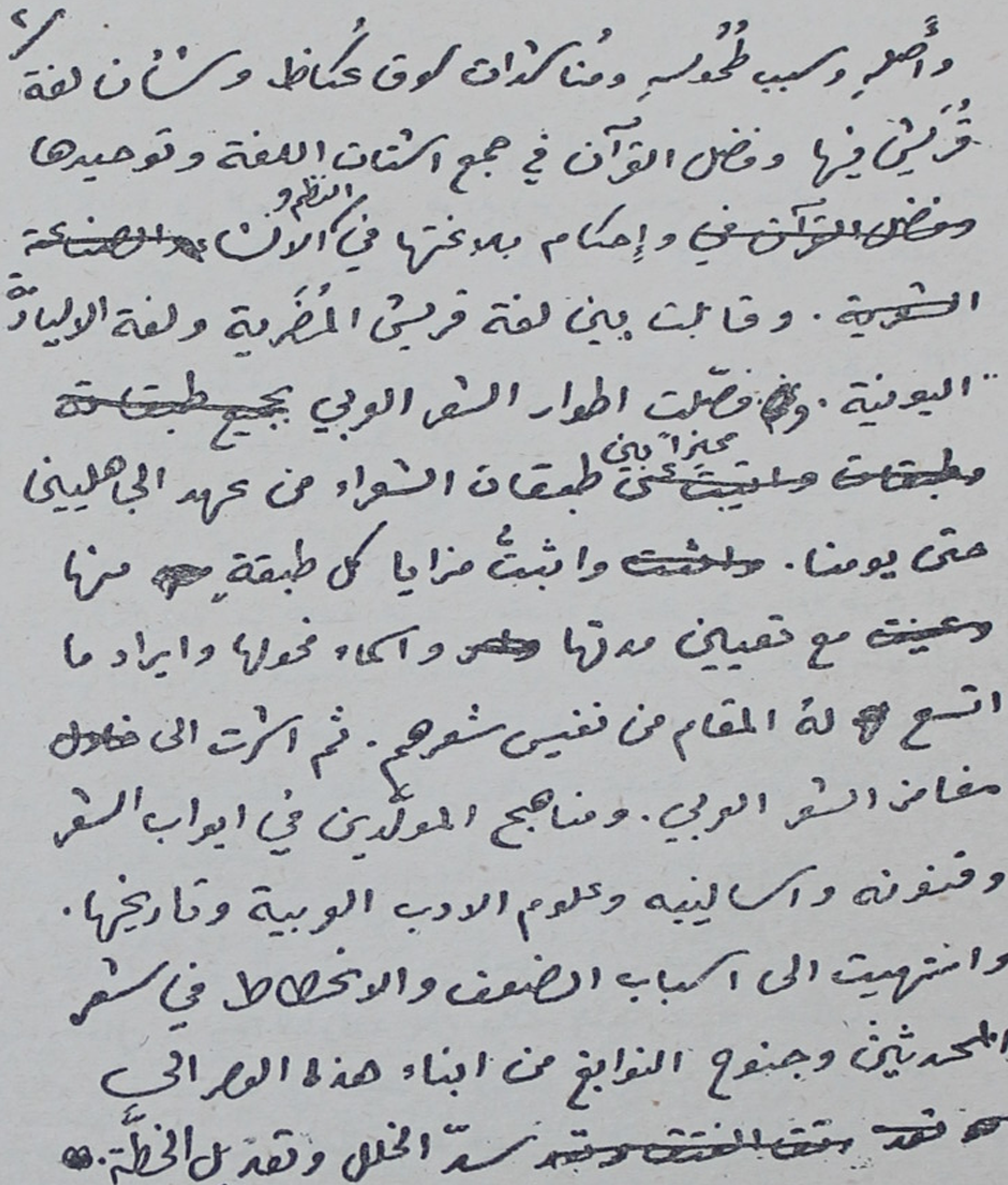
١ – مقدمة الالياذة صفحة ١٨

ويحاول المؤلف أن يستخلص صورة صادقة من هذا التضارب – وما الامر بالسهل اليسير – معتمداً كتب قدماء اليونان والرومان من ايفوروس وفلوطرخس ، إلى ارسطو واسطرابون ، وبلينيوس وشيشرون ، فيجد لدى التحقيق أن أقوال هيرودوتس ابي التاريخ أصدق ما كتب في هذا الباب ، ولكنها على جلائها وصراحتها لم تخل من مظان اعتراض جلّها مقصور على العرَض لا يتناول الجوهر بشيء .

فاذا تمت له الصورة في إطارها المادي والتاريخي ، راح يرسم مداها في الزمن وما أحاط بها من هالات الوهج والاكبار منذ أقدم العصور إلى عهدنا . فهذا ارسطو فيلسوف اثينا الأكبر يلصق نسب هوميروس بالآلهة . وذاك الاسكندر يحمل معه في حروبه واسفاره نسخة من الالياذة ويعتبر مجده ناقصاً حين يقف على قبر أخيل ويناجيه : « طوباك ، طوباك فقد أوتيت منتهى السعادة بقيام شاعر كهوميروس يخلّد ذكرك » . وأولئك صولون وليكرغوس وفقهاء اليونان ومشترعوها ينصحون بالقاء مقطوعات من الشعر الهوميري على العامة تهذيباً للأخلاق وتثقيفاً للعقول . وهوذا العامة ، من يونان ورومان ، تتلقى فرائد اقواله تلقّيها للآي المنزلة ؛ فتقبس منها على نحو ما يقبس اليهود من التوراة والنصارى من الانجيل ؛ ثم تبالغ في تعظيمها لدرجة الخرافة او القدسية ، فتتخذ منها حروزاً وتعاويذ .

ويذهب رينان – في القرن الماضي – الى الجزم بان شعر هوميروس وحده مرشح للخلود ، اذا قدر لآثار الادب القديم ان تندثر باستثناء واحد منها . اما ولهلم الاول قيصر المانيا ، فيحث اساتذة الجامعة في برلين على تلقين شعر الالياذة « لان الامة التي يرسخ في ذهنها وصف صبا الامم على ما يبسطه هوميروس لايسارع اليها العجز والهرم » .

وهو في كل بحوثه يتبع طريقتي الاستقراء والاستنتاج وفق ما تقتضيه



وأصله وسبب تحوله ومناشدات سوق عكاظ وشأن لغة
قريش فيها وفضل القرآن في جمع اشتات اللغة وتوحيدها
~~وفضل القرآن في~~ وإحكام بلاغتها في الاوزان النظم و ~~الصناعة~~
الشعرية. وقابلت بين لغة قريش المُضَرية ولغة الالياذة
اليونانية. ~~و~~ وفصّلت اطوار الشعر العربي ~~بجميع طبقاته~~
~~وطبقاته وبينت~~ مميزاً بين طبقات الشعراء من عهد الجاهلية
حتى يومنا. ~~وكشفت~~ واثبتُّ مزايا كل طبقة منها
~~وعينت~~ مع تعيين مدتها ~~و~~ واكفاء فحولها وايراد ما
اتسع له المقام من نفيس شعرهم. ثم اشرت الى خلل
مغاني الشعر العربي. ومناهج المولدين في ابواب الشعر
وفنونه واساليبه وعلوم الادب العربية وتاريخها.
وانتهيت الى اسباب الضعف والانحطاط في شعر
المحدثين وجنوح النوابغ من ابناء هذا العصر الى
~~تقد~~ ~~بعث النقد وتجدد~~ سد الخلل وتقويم الخطة.

مقطع من ديباجة الالياذة بخط المؤلف

الحاجة . يرتفع من الخاص إلى العام الشامل مرة ، ويتسلسل من الكليات إلى الجزئيات اخرى ، وينصرف في اي حال إلى المقارنة ودرس الاسباب من قريبة وبعيدة .

يعرض لنظم الالياذة وتناقلها عبر الزمن ، فيلمّ اولاً ، وان سريعاً ، بحالة الكتابة في اليونان عهد هوميروس ويرجح – عكس ما يذهب اليه الفرنجة – انها لم تكن معروفة آنـذاك أو كانت في بدء طفولية « لا تكاد تتسع إلا لتدوين ما عظم من حوادث التاريخ والا لخلّفت ولو اثراً ضعيفاً كما خلّفت في مصر وبابل » واذن فقد حفظت الالياذة في اذهان الرواة يتناقلونها جيلاً عن جيل .

وفي سبيل رأيه يحشد الادلة متماسكة متلازّة ، ليثبت ان الانشاد كان مهنة شائعة بين الناس تفتح لصاحبها باباً من الرزق واسعاً ، وتوفر له من المنزلة والكرامة ما يحسد عليه . فقد ذكر سقراط وافلاطون ان المنشدين كانوا يتهافتون إلى المجتمعات العامة في كل عيد ديني او احتفال وطني ، ويتبارون بإلقاء ما حفظوه من الالياذة وغيرها . وطالما جنح الواحد منهم الى التغني ببطل معين أو منظومة محددة ، يفني العمر بتردادها على نغم القيثارة والشبّابة .

ولا يستغربن احد نقل الالياذة حفظاً على طولها ، لأن ذاكرة الرواة – وبخاصة منهم العميان الذين يتحول نور بصرهم الى بصائرهم – كفيلة بهذا العمل . وما الشواهد على ذلك بقليلة عند مختلف الامم . سلك الالمان هذا المسلك في حفظ الاناشيد الجرمانية القديمة (غريم) ونقل الفرنسيون اغانيهم الجميلة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر على نغم شبابة عربية ذات ثلاثة اوتار (فوريل) . وتلا حفاظ العجم شعر شعرائهم بما لا تكاد تصدّق ان ذاكرة تعيه ، إذ يظل المنشد يتغنى بأشعار الشاهنامه نهاراً كاملاً (شدزيكو) . اما العرب فقد بلغ رواتهم من قوة الذاكرة وسرعة الحفظ درجة الاغراق والاغراب . فان حماداً الراوية مثلاً ينشد تباعاً في

مجلس الوليد بن يزيد الفين وتسعمئة قصيدة من شعر الجاهلية ، والاصمعي يحفظ عدة آلاف من الاراجيز خلا القصائد والمقاطع .

وإذا اطمأن البستاني إلى قيام حجته على القديم ، عرّج على اسباب ضعف الذاكرة اليوم وارتقاء قوى المخيلة ، فرد ذلك إلى عامل العادة والمثابرة « بناء على الناموس القاضي بترقّي القوى البشرية وانحطاطها بكثرة المزاولة وقلتها » لأن الاستكانة إلى الاوراق والكتب قضت على الحافظة بالخمول ، ومحت دورها في الاستظهار والنقل عبر الاحقاب . ومع هذا فقد عرف المؤلف نفسه ، من حفّاظ التوراة والانجيل والقرآن مئات ، ومن رواة الشعر في بادية العرب وبلاد فارس من إذا جلست اليه وهو ينشد شعر الفردوسي أو جلال الدين الرومي « لظننته يتلو كتاباً يتصفحه حرفاً حرفاً » . كما سمع من زجّال مصر ولبنان من يردد بعد مرور بضعة عقود من السنين ، ما كان يرويه في صباه دون زيادة فيه او نقصان .

الرأيُ الولفي

وما هو ان يستقيم له تحقيق شخصية هوميروس وطريقة نقل الالياذة ، حتى تعترضه مشكلة جديدة سال فيها من الفكر الاوروبي مداً وجزراً ، تراث ضخم ، بارز المعالم ولكنه غير واضح القسمات . تلك هي مشكلة الوحدة التي تطالع أي باحث لدى دراسته التآليف المطولة عهد الأدب الشفهي . فقد قام جماعة من الادباء ينكرون على الالياذة وحدتها وعلى هوميروس نظمها ، ويزعمون انها مجموعة من القصائد لمجموعة من الشعراء . وكان على البستاني ان يجلو هذه القضية قبل ان يتوغل في البحث والتفصيل . فاستعرض بسرعة اشهر «الخوارج على هوميروس» ، وبسط

اهم حججهم منذ اواخر القرن السادس عشر مع كازوبون الفرنسي الذي لم يكد يعبأ بقوله احد ، إلى فيكو الايطالي الذي وجه افكار العلماء نحو هذا البحث الجديد ، إلى ولف الالماني ١٧٥٧ - ١٨٢٤ الذي شدد الحملة ونشر مقدمته على الشعر الهوميري ، فاربى بكتابته على جميع من تقدمه وفشا مذهبه في اقطار اوروبا فهدم عظمة هوميروس » وعمّ القول بانه هيّ بن بيّ الاغريق ، راوية لم تلده انثى وإنما ولدته قصائد الشعراء المندرسة اسماؤهم في غوامض الغيب »[١].

وهنا تبرز خاصة لا تكاد تفارق البستاني ، هي ميزة التعليل لربط النتائج باسبابها . لمَ انتشر المذهب الولفي في اخريات القرن الثامن عشر ولم يلاق كبير انتشار في القرنين السابقين مع افراد ذوي شأن خطير في عالم الفكر والأدب ؟ ويرد ذلـــك إلى نفسية الشعب وروح العصر في الحقبتين . فالقرن السادس عشر عهد محافظة على القديم يرى فيه كل الخير ولا يقوّم الاشياء إلا بما يعتمده من موازين . اما القرن الثـامن عشر فعصر ثورة وانطلاق في الفكر والسياسة ، تستبد به روح التحرر فيتشبث بكل رأي جديد يرمي إلى تقويض اي مذهب تقادم عليه العهد من اصول الدين ، إلى اصول التاريخ ، حتى قواعد الانشاء . «وكأنهم ارادوا ان ينكروا على رجـــل فرد الاستئثار بتلك السلطـة الفكرية فوزعوها على عامة الشعراء ، كما انكروا على الملوك والحـكام الاستئثار بالسلطة الحاكمة فنهضوا إلى توزيعها على الامة[٢]

من الحق ان كبار الباحثين في القرن التاسع عشر ، امثال مُلـَّر ، وولكر ونِتـش ، تناولوا هـذه القضية بتفصيل وعمـق . فتعهَّـد الاول بنفسه زيادة المواقع التي ورد ذكرها في شعر هوميروس ، وكتب

---

١ ـ مقدمة الالياذة ص ٤٨

٢ ـ مقدمة الالياذة ص ٤٩ .

تاريخاً مطولاً لأدب اليونان الاقدمين . وافاض الآخران في درس الشعر الهوميري بما لا يبقى معه سبيل الى انكار وجود المؤلف ، ولا ريب في تحقيق شخصيته وعلاقته بالمنظومتين . أما القضية التي ظلت بحاجة الى بحث علمي موضوعي فهي اثبات ما اذا كانت الالياذة « كلها » من نتاج قريحة واحدة .

مَوقِفُ المعرب

وقد عطف البستاني الى درس تحليلي موجز للالياذة ، يقنص منه الحجج المسندة الى بينات ، فيدحض بها مزاعم الخصوم ، ويثبت ان المنظومة كل متماسك الاجزاء ، مترابط الحلقات ، تسيّره شريعة التدّرج في الحوادث والتسلسل في السياق .

نظر الى نعوت الاشخاص فوجدها متفقة في جميع الاناشيد ، والى اخلاق الابطال وعواطفهم فألفاها تتكرر على وحدة عجيبة حتى لنكاد اذا عرض لنا وصف بطل ان ننطق باسمه قبل ان نبلغه مهما تباينت المواقع وتباعدت الفصول . فهذا أخيل شهم ودود ، وبطل خارق ، وحقود جريء ، ترتسم صفاته في ذهننا منذ النشيد الاول ويسيطر غضبه على مجرى الملحمة فلا نقرأ نشيداً منها سواء ظهر فيه البطل او لم يظهر ، الا ونشعر انه لا يزال محتدماً بسعير الغيظ والغضب ، وتشتد المعركة ، ويتراوح النصر بين المعسكرين ، ولكن النتيجة النهائية في غموض : انها وقف على انحلال عقدة الغضب . وليس في الكتاب كله عبارة يشذ بها الناظم عن هذا المرمى .

وهوذا هكطور عماد قومه ، مقدام عن غير طيش ، ورع عن

صدق عقيدة ، يسير سير الزعيم ويحسن الذود والبلاء ، ولا يفتأ على المثال الذي صوّره به الشاعر حتى يذهب شهيد الدفاع . وانما ممنون امير خطير وقائد محنك ، وفطرقل فتى كريم وخلّ باسل ، ونسطور شيخ حكيم ، وفاريس عاشق متأنق ، واندروماك زوجة امينة وفية ... وكذلك سائر الابطال لا تتغيَّر صفتهم بشيء ولو فصل بين مواقفهم وظهور اسمائهم آلاف من الأبيات « لأن الشاعر رسم لكلٍ رسماً لا ينحرف فيه بشيء عن الوضع الذي وضعه له سيان ذلك في اول الكتاب وآخره .. وهيهات ان يتفق هذا التناسب لغير ناظم واحد[١] »

أما النشيدان الأخيران فقد حامت حول ارتباطها بالالياذة اصلاً ، ظنون وشكوك . فقال البعض بانهما من نظم شاعر آخر الصقهما بالملحمة ؛ وقال غيرهم بان هوميروس اخطأ في اضافتهما . وحجتهم على ذلك ان وقائع الالياذة انتهت بمقتل هكطور وليس في هذين النشيدين شيء من مواقع الطعن والضرب . بيد أن البستاني يخطئهم جميعاً اذ ان موضوع القصة غضب اخيل وليس مقتل هكطور وذاك بيّن من اول بيت في اول نشيد . ولو توقف الشاعر حيث يريدون له ان يتوقف ، لما كان اظهر من أخيل سوى أوجه محدودة اهمها الحقد والعنف والانتقام ؛ وما تلك بمزايا الفارس الكريم الذي بعد أن شفى غليله عاد الى طبعه العامر بصفات النبل والمروءة ، والى قلبه الزاخر بمعاني البطولة من كرم وحلم ، وعفو ورفق ، وشعور انساني عميق .

ولا يكتفي المعرب بهذه الحجج بل يعرض لصفة الاماكن فيرى ان الشاعر لم يناقض نفسه ولو بكلمة مما وصف به بلدة أو علماً جغرافياً ، ويتتبّع طريقة التأليف والنفس الملحمي فيستنتج أنّ « ناظم النشيد الاول إنما هو ناظم النشيد الاخير . فكأنما هي (اجزاء

---

١ - مقدمة الالياذة ص ٥٢

الالياذة) مرقاة يصعد بك صاحبها درجة بعد اخرى حتى تستقر في آخرها وانت متبين كل ما وراءك ... يبسطه لك الشاعر بسطاً يزيد ايضاحاً كلما خطوت خطوة ، وينتهي الامر بما ترتاح اليه نفسك شأن القصاص الذي يروي لك خبراً واحداً بنفس واحد [١] »

اغفال نقل الالياذة
ملاحم الجاهليين

ومن الطبيعي — والالياذة سفر جليل حلّ في المقام الاول بين نتاج القرائح منذ ثلاثة آلاف عام وتناولته الامم في قديمها وحديثها بالحفظ والشرح والترجمة — ان يبحث البستاني موقف العرب منها وسبب اغفال نقلها الى لغتهم ، مع انهم احرص الملل على علوم الادب واحفظهم للشعر واكثرهم اخذاً عن اليونان فقد بلغت حركة النقل عندهم حد النهم مع المأمون ودار الحكمة في بغداد ، وتجاوزت الكتب المنقولة عن اليونانية المئات ، في مختلف العلوم والفنون ، وشتى مناحي الفكر خلا الادبية منها . وعلى انتشار الالياذه بين الادباء الاعاجم يتناشدونها في مقرّ الخلافة بالذات ، فانها ظلت غريبة على العرب . ويعزو البستاني ذلك إلى حوائل كثيرة : منها عامل الدين . لان العرب ، وقد خرجوا من جاهليتهم واخذوا بديانة التوحيد وحطموا الاصنام ومحوا من الشعر العربي ما يدل عليها ، لن يعودوا الى احياء الشرك بما تزخر به الالياذة من آلهة وانصاف آلهة .

ومنها الحاجة . لانهم بعد تنظيم امرهم واتساع رقعة ملكهم ،

١ — مقدمة الالياذة ص ٥٤

وجـدوا انفسهم إلى العلوم التجريبية كالطب والصـيدلة والحساب والهندسة ، احوج منهم إلى الشعر والادب . فالطب والصيدلة للتداوي من اوبئة تنشر الهول والموت في المدن والثغور البحرية خاصة ، والحساب لضبط موازنة الدولة وفرض الضرائب وجبايتها ، والهندسة لبناء القصور والمدن والطرقات والجسور والقلاع والاسوار .. الخ ...

ومنها اغلاق اليونانيـــة على العرب ، وتقصير المترجمين السريان في نظم الشعر واوجه البيان .

ومنها اخيراً اعتقادهم « انه ليس في لغات الارض لغة يربو شعرهـا على الشعر العربي ، ويجاري قصائدهم بلاغة وانسجاماً ودقة واحكاماً »

وتساءل عن النفحة الملحمية في شعر الجاهليين ، وعما تركوه في أدبهم من صور قصصية تامة لمناوشات قبائلهم وبطولات فرسانهم واخلاق عصرهم وعقائده ، كما هي الحالة عند اليونان وغيرهم من الشعوب القديمة . فرأى ان الملاحم الطويلة بمفهومها العام لم تظهر عند العرب . ولعل السبب راجع الى عجزهم عن تفهّم معنى الوحدة القومية والشعور الوطـــني ؛ والى بعدهم عن الآمال الموحَّدة والاهداف المشتركة ؛ والى ضيق الخيال عندهم تبعاً لفقر البيئة ورتابة الموحيات ؛ والى سطحيتهم في الدين اذ كانوا مع عبادة الانصاب يميلون الى التوحيد والتسليم للاحكام العلوية ، فلم يوغلوا في التخيّلات الشعرية الى النظر فيما وراء الحياة وفي أحوال الآلهة وعلاقتها ببني البشر .

بيد ان مردّ ذلك بوجه عام الى طبيعة الجاهلي وفطرته . ومعلوم ان الملحمة تبنى على الغيرية بينما انانية العربي تمنعه من الانسلاخ عن ذاته ليقصر شعره وشعوره على الغـير . فالمهلهل في حرب البسوس مثلاً ، لا يعدو ان يترجم عن شعوره وما يعتريه من ألم ولوعة وما يجيش في نفسه من ثورة وانتقام .

مع عنترة

وعنترة بن شداد لا يصوّر بطلاً في معركة ، بل يصوّر بطولته هو في هـذه المعركة . نتعرّف في معلقته صوراً متلاحقة لمبارزة فردية او هجوم جماعي . فهنا بطل كره الكماة نزاله لانه ثابت في الحرب مستميت لا يهرب ولا يستسلم ولذا فخطره على الخصم شديد . وهناك عملاق جمع الى البطولة الخارقة شرف المحتد وسماحة اليد فهـو فرد زمانه لا توأم له فكأنه لهيكله وثباته جذع شجرة لفّت عليها الاثواب ؛ وهو حامي الحقيقة وحصن القبيلة ؛ قميصه في الحرب درع سابغة متينة الحلقات ، وحذاؤه من الجـلد المدبوغ دلالة الرفه والشرف ، . . . هـذان البطلان - وامثالهما كثير - من يقضي عليهما بعـد ان هابهما كل دارع كميّ ، وسدّت مخافتهما على الناس سبل الهرب والحياة ؟ انه الشاعر بالذات ؛ عنترة الذي اتخذ طريقة تفرّد بها فعرفت له ، ثم تناولها عنه الشعراء بعد ذاك ، وهي تقوم بالانصراف الى تصوير الخصم وتعظيم قدره ، حتى اذا بلغ مرتبة تقصر دونها العيون والاعناق ، برز عنترة ليقضي عليـه بضربة سيف او بطعنة رمح ، على كثير من اليسر والسهولة ، بل على تكرّم وجود سريع :

ومدَجَّجٍ كره الكماةُ نزالَهُ ... لا ممعنٍ هرَبـاً ولا مُستسلِمِ
جادَت له كفّي بعاجلِ طعنةٍ ... بمثقَّفٍ ، صدقِ الكعوبِ ، مقوَّمِ
فشكَكْتُ بالرمحِ الأَصمِّ ثيابَهُ ... ليسَ الكريمُ على القَنا بمُحَرَّمِ
فتركتُهُ جَزَرَ السباعِ يَنُشْنَهُ ... يَقْضَمْنَ حُسنَ بنانِهِ والمِعْصَمِ

وَمِشَكٍّ سابِغَةٍ هَتَكْتُ فُرُوجَها بالسيفِ عن حامي الحقيقةِ مُعْلِمِ
فَطَعَنْتُهُ بالرُمحِ ثم عَلوتُـــه بمُهنَّدٍ صافي الحديدةِ مِخْذَمِ

واذا انتقل الى تصوير زحف جماعي او معركة شاملة ، مدّ الخطوط قوية بارزة : الجو قاتم رهيب يلفـه الموت من كل جانب ، والارض مستنقع دم تغوص فيه قوائم الجياد ، وجلبـة القوم على نخوة واندفاع تبعث الخوف والهلع ، وصرخة الرعب تمتزج بأنـة الالم ثم يطغى عليهما معاً وقع السيوف والرماح وغمغمة الأبطال ... وبينا نحن في المعركة وقد ملكتنا روعة الفن وبراعة التصوير وجلال الموقف فرحنا ننتظر النتيجة وظهور المعجزة ، اذ بأصوات الفرسان ترتفع من الجـانبين بنداء عنترة بعضها للتحدي وبعضها لطلب النجدة ، واذ بالرماح والسهام تنهـال على جواده فيتسربل بالدم ويزورّ من وقع القنـا والم الجراح فيشكو بعبرة وحمحمة ، واذ بعنترة رخيّ النفس منشرح الصدر وقد شفاه وأبرأ سقمه ان يكون اسمه في مواقف الروع وساعة الخطر ملء الافواه والمسامع :

في حَوْمَةِ الموتِ التي لا تَشتكي غَمَراتِها الأَبطالُ غيرَ تَغَمْغُمِ
أيقنْتُ أنْ سيكون عندَ لِقائِهم ضَرْبٌ يُطيرُ عن الفِراخِ الْجُثَّمِ
يَدْعُونَ عَنْتَرَ والرِماحُ كأَنَّها أَشْطانُ بِئرٍ في لَبانِ الأَدْهَمِ
وَلَقَد شَفَى نفسي وأبرأَ سُقْمَها قِيلُ الفَوارسِ ويكَ عنترَ أَقدِمِ

وهكذا نجد ضمير المتكلم او « الأنا » يطالعنا في كل صورة ملحمية عند عنترة اذ يظل الشاعر محور الحديث ومدار الوصف ، يطل علينـا من خلال المفردات نفسها : « جادت له كفي ... فشككت ... فتركته

... فطعنته ... أيقنت ... ولقد شفى نفسي ... أغشى الوغى واعف عند المغنم » .

مع شاعر تغلب

اما عمرو بن كلثوم فقد بنيت معلقته على « نحن » و « نا » . واذا كانت شخصيته لا تبرز كعنترة بشكل فردي ، فما ذاك إلا لأن القبيلة بنظره شخصية معنوية يجد كل تغلبي فيها عزته وكرامته . ومن هنا تعداده مفاخر تغلب ومعارك ابطالها ، وتهديد خصومها من عراقيين وبكريين . يصف المعركة بما فيها من جياد جرد عتاق اصبح الكرّ لها عادة وفطرة ؛ ومن رماح لينة نافذة ؛ وسيوف تجز العنق او تفلق الهام يتلاعب بها الرجال بجرأة ومرونة عجيبتين ، فاذا الجماجم تتساقط كالاكر ، واذا الثياب والرايات مخضوبة بالنجيع ، واذا الرقاب طعام شهي لسيوف البكريين . ولا عجب فهم حفظة مجد ضخم ، ورثوه عن آباء صدق وهم يعيشون في أجوائه ويرون الموت في سبيله واجباً لذيذ الطعم والمساغ ، ويذودون عنه بالحديد المسربل لا يخلعونه إلا وقد صدىء على الجسوم وظل المجد مشرقاً مصوناً .

فمعلقة عمرو ، على ما فيها من نفثات ملحمية ، قطعة تضج بالفخر والغنائية وتستريح الى الـ « نا » التي يمدّها الشاعر بكل صدق واعتزاز على تبجح ومبالغة :

بأَنّا نُورِدُ الرَّاياتِ بيضاً ... ونُصْدِرُهُنَّ حمراً قد رَوِينا

نُطاعِنُ ما تراخى الناسُ عنّا ... ونَضرِبُ بالسيوفِ اذا غُشينا

وأنا المُطعمونَ إذا قَدَرْنا وأنا المُهلِكُونَ إذا ابتُلِينا
ملأنا البرَّ حتى ضاقَ عنا وظهُر البحرِ نملأهُ سَفينا
اذا بَلغَ الفِطامَ لنا صبيٌّ تخرُّ له الجبابِرُ ساجِدينا

نسق وأسباب

وشعر الجاهليين عامة قد صبغ صبغة غنائية وجدانية ، لا تتنكَّر للذات لتنصرف الى الموضوعية ، ولذا تظهر لمحات سريعة ينقصها طول النفس وبراعة السرد وتفصيل الحوادث ونسيان الأنا لتشكل بناء ملحمياً تاماً . وهذا ما ترك للعصر الجاهلي لوناً آخر من الملاحم القصيرة أو من المظاهر الملحمية في المعلقات وبعض القصائد تبرز فاقدة اللحمة غير ملتئمة « كالحجارة المنحوتة أُحكم صنعها وبقيت ملقاة في ارضها غير مرصوصة بالبناء » .

وربما جاء وصف حرب البسوس اشبه بالشعر التمثيلي لأن لكل حادثة شاعراً ينطق بها بخلاف نهج الملاحم حيث نجد شاعراً واحداً ينطق بلسان الجميع . فالعرب لم ينظموا « الملاحم الطويلة المحكمة العرى مع توقّد القرائح وتوفّر معدات الفصاحة في اللغة ، لأن ذلك النسق في النظم لم يكن في طبعهم ... ولم يتجاوزوا بنظمهم أحوال فطرتهم وطرق معاشهم ؛ فكانوا ينتقلون بالشعر من باب إلى آخر ، انتقالهم من حي إلى حي ، يجيدون في كل ما يقولون ، ولكنهم لا يطيلون المقام

فلا يشيدون المنازل الفسيحة الأركان [١] ... شاعرهم مندفع بسائقة الطبيعة يفكر في محسوس بين يديه ، وشعيرة تختلج في صدره ، وصورة مرسومة في مخيلته منعكسة عن طرق معيشته وفطرته ، لا يتطلع إلى ما وراءها ولا يتكلّف الزخرف والتنميق [٢] » فكان نتيجة ذلك ان طبع الشعر الجاهلي بطابع الخشونة المادية والنُقلة وعدم البناء ، وهذا يوافق مشهودهم ومحسوسهم بما فيهما من وصف ابل وسرعة وعدم استقرار . وقد توقف توفيق الحكيم عند هذه الظاهرة ففصّلها بما لا يخرج عما جاء به البستاني ، قال : « كل تفكير العرب وكل فن العرب في لذة الحس والمادة ، لذة سريعة مختطفة لأن كل شيء عند العرب سرعة ونهب واختطاف ... قد يحسّون كل شيء إلا عاطفة الاستقرار . وحيث لا استقرار لا تأمل ، وحيث لا تأمّل ، فلا ميثولوجيا ولا خيال واسع ولا تفكير عميق ولا احساس بالبناء فالأدب عندهم لا يقوم على البناء ، وإذن لا ملاحم ولا قصص ولا تمثيل » .

وتأليف الملاحم يحتاج إلى « إحاطة » بالموضوع على تفرّع واستيفاء والشاعر الجاهلي « لا يفرع البحث الواحد إلى ابحاث متعددة على ما هو شأن الأمم الآرية ... فينشد الشعر حيث يحسن وقعه واكثر ما يكون ذلك في الوصف والخطاب والجواب ... والشاعر القصصي من اليونان كان إذا قص حادثة رواها كلها شعراً » [٣] ولا اخال احمد امين في كتابه فجر الاسلام ، إلا موسعاً هذه الخطوة الصائبة ، عند تحليله العقلية العربية ومقارنتها بالعقلية اليونانية من حيث الاحاطة والشمول ، في سبيل معرفة الفوارق وتحديدها . وفي ذلك يقول : « العربي لم ينظر إلى العالم نظرة عامة شاملة كما فعل اليوناني مثلاً ، بل

---

١ - مقدمة الالياذة ص ١٧١

٢ - مقدمة الالياذة ص ١٢٠

٣ - مقدمة الالياذة ص ١٧١ .

كان يطوف فيما حوله فاذا رأى منظراً خاصاً اعجبه تحرّك له وجاش صدره بالبيت من الشعر والحكمة أو المثل... فهو إذا نظر الشيء لا يستغرقه بفكره بل يقف منه على مواطن خاصة. وعلى الجملة فالعقل اليوناني ان نظر إلى شيء نظر اليه ككل يبحثه ويحلله، والعقل العربي يطوف حوله فيقع منه على درر مختلفة الانواع لا ينظمها عقد».

وبعد هذه الجولة الواسعة في الالياذة والفن الملحمي عند العرب والاعاجم، يخلص المؤلف إلى الاستنتاج ان فقدان الملحمة الطويلة لا يضير الشعر الجاهلي في شيء «اذ ليس من اللازم ان يكون شعر جميع الامم على نسق واحد بل ربما كان هذا التباين من الاسباب المؤدية إلى ابراز انواع الجمال كافة على اختلاف صوره واشكاله».

مُقابلة الآداب

ينبغي لكل دارسٍ مقارن :

المام دقيق بعدة لغات، يمكّنه من الاطلاع على النصوص بلغاتها الأصيلة، ومعرفة عميقة بأهم مذاهب الادب وتياراته في عصوره الكبرى وفي العهد المخصص بالدراسة،

واطّلاع صحيح على العوامل المؤثرة في الأدب من علم وفن، وفلسفة ودين، وسياسة واجتماع،

وعناية شديدة بكتاب الطبقة الثانية أو الثالثة، الذين غالباً ما يجد الباحث في آثارهم، عناصر المقارنة ومقوماتها.

وقد كان زاد البستاني من كل ذلك غزيراً، وتأثره بفورة الأدب

المقارن عميقاً . فنهد إلى شرح الالياذة لتقريب منالها ، ورأى أن ينهج اسلوباً جديداً يأنس معه القارىء العربي بالرجوع إلى أخلاق امته في جاهليتها وبعض حضارتها ، فيقايسها مع نظيرها من الأمم الغابرة في العادات والعقائد ، ومناهج الشعراء ومواقف الابطال . وقاده الامر إلى مطالعة الاسفار الطوال من كتب العرب والاعاجم في الادب والشعر والتاريخ . وربما قرأ ديوان شاعر بكامله طمعاً في بيت واحد او استعارة لفظية ، مما جعله يصرف من الزمن في تدوين الشرح ضعفي ما صرفه في النظم . وقد ظهر أثر ذلك في تعاليقه المستفيضة على المتن حتى لتشكل دراسات مستقلة واسعة بحدّ ذاتها . ويكفي ان نعلم انه استشهد بمئتي شاعر عربي من جاهلي ومخضرم ومولّد ، وذكر لهم الف بيت من الشعر وردت في مثل معاني الالياذة ومناسباتها ، بالاضافة إلى ما جاء من تلميحات إلى اليهود والرومانيين والبابليين والفرنجة ، يكفي ان نعلم ذلك لندرك مدى اهتمامه بهذا النوع من المقابلات والمقارنات .

في العقائد والعوائد

قبليّة وفطرة

قابل بين جاهلية العرب وجاهلية اليونان . فاذا اوجه الشبه كثيرة في الاخلاق والعوائد ، وطرق المعاش والحروب . وإذا أقدم ما اتصل بنا من الشعر الجاهلي مقول معظمه في مثل المواقف التي قال فيها هوميروس الياذته .

حياة قبلية تخضع لملوك او امراء ، يختصمون فيما بينهم على ناقة ترعى أو جواد يسبق . وتثور القبائل فتلتحم « بايام » يذيع ذكرها كيوم الجفار والنسار وخزازى وتحلاق اللمم ، ويتغنى بها الشعراء تغنّي هوميروس بيوم القناطرة ويوم الايتول والكوريت . بيد ان هذه القبائل لا تلبث ان تتحالف في سبيل ثأر يؤخذ او عار يدفع كما تكاتف أمراء اليونان ـ على ما بينهم من نفور وخصام ـ في حربهم ضد طروادة .

ومعيشة فطرية ، تأخذ بالسذاجة الخلقية المتحررة ، وتترك مشاكلة باهرة في اللباس والرياش وطرق الاجتماع ، مع سبق اليونان في حلبة الحضارة : فسراة الالياذة كاكسيل ، يتسابقون الى قرى الاضياف كحاتم الطائي ويبنون بيوتهم على مضرب السبل في قارعة الطريق ؛ وامراؤها كأخيل وفطرقل ينحرون الذبيحة بمداهم ويتولون بأيديهم توزيع الزاد على الضيفان ، على نحو ما يفعل الامير الكندي امرؤ القيس وغيره من أسياد العرب ، وابناء ملوكها كولد فريام يفتخرون برعاية المواشي وتربية الانعام ، اعتزاز خالد بن الوليد امام ماهان الارمني : « اما ما ذكرت من فقرنا ورعينا الابل والشاء ، فما منا من لم يرع ، واكثرنا رعاة . ومن رعى منا كان له الفضل على من لم يرعَ . »

واشخاص كبار في جاهلية العرب ، يلتقون بالقول والفعل مع زملاء لهم كبار في جاهلية اليونان « فمن بطل كعنترة ترتجف لصوته القبائل ارتجافها لصوت أخيل ، يغاظ مثله فيعتزل القتال فينكّل العدو بقومه حتى يهبّ من عزلته فيفعل فعل اخيل في عودته . ومن خطيب كنسطور يقف واعظاً موقف قس بن ساعدة فيرشد ويرغب ويرهّب ... ومن شياطين وجنيات تلقّن الشعراء فصيح الكلام تلقين القيان لهوميروس [1] .

١ ـ مقدمة الالياذة : ص ١٦٩

عَقيدة وَخرَافة

وهذا الاجمال في المقدمة ، يجد تفصيله على رحابة ودقة في سياق الشرح والتعليق . فكأنما المعرب يتتبّع هوميروس في صوره ومواقفه ومعانيه وعوائد قومه ، ليعرضه على حياة العرب في الجاهلية ويكشف عن صلات التشابه أو وجوه الاختلاف مع تقدير العوامل التي أدت إلى حصول هذه او تلك .

إذا جاء في مستهل الالياذة ذكر احتدام أخيل وما جرّه من وبال على الجيش اليوناني « ففدت جنده تخر فلولا » ، وتعرضت جثث قتلاه لوقوع الطير والكلاب عليها ، توقّف على بحث هذه الظاهرة وعطف منها بمناسبات مختلفة إلى خرافات الطير وكيفية نظر الجاهليين إليها مع تعليل الاسباب والنتائج . ففي العقائد اليونانية ان احراق الجثة ودفنها يسهّلان على الميت اجتياز السبيل إلى مقام السعادة الاخروية ، ولذا فقد كانوا يؤثرون هلاك الابطال ودك المعاقل وتدمير المدن ، على عار تحقير الجثة ، أو بقائها في العراء تعبث بها الطير ، وتنهشها الكلاب والوحوش . أما العرب فما كانوا على شيء من هذا الاعتقاد ، ولا ربطوا بين تكريم الجثة وولوجها دار السعادة ، فكثر في شعرهم ذكر وقوع الطير والوحش بجثث القتلى دونما تخوف أو تورّع . بل ربما أصبح ذلك امنية البطل المحراب عندهم كما جاء في دعاء عنترة العبسي :

فيا ربِّ لا تجعلْ حياتي مَذَمَّةً ... ولا مِيتتي بينَ النساءِ النوائِحِ
ولكنْ قتيلاً تدرُجُ الطيرُ حولَه ... وتشرَبُ عِقبانُ الفلا من جوانِحي

ويعرض للعيافة أو زجر الطير ، وما يبنى عليها من تفاؤل

أو تشاؤم عند الشعوب ، فيردها الى البابليين والاشوريين ، وعنهم اخذها اليونان ولكن لم يكن لها عندهم ذاك الشأن الخطير الذي سيصبح لها بعد حين عند الرومان والعرب . ويبسط طرق العيافة لدى عرب الجاهلية وما كان لها من اثر في حياتهم وخرافاتهم ولغتهم وخصائص كهانهم . فهم يزجرون الطائر ، فان ولّى القوم ميامنه تفاءلوا وان ولاهم مياسره تشاءموا ، ومن هنا قولهم لغة بالتيمّن وبتسمية الطير الآخذ من اليسار سانحاً ، ومن اليمين بارحاً . واكثر ما تشاءموا بالغراب فزعموا أنّ منه الغربة والاغتراب ، واضافوه إلى البين فقالوا : غراب البين ، وظل هذا في معتقدهم حتى نسخه الدين الاسلامي ، وفي الحديث : « لا طيرة في الاسلام » . وهكذا اليهود ايضاً ، ظلوا يأخذون بها حتى جاء تحريمها في سفر اللاويين . بيد ان الجاهليين - شأنهم بذلك شأن الرومان وخطيبهم شيشرون - لم يعدموا طائفة من الشعراء تندّد بهذه الخرافات وتسفه مزاعم العافة ، ومن ذلك قول لبيد :

لَعَمرُكَ ماتدري الطوارِقُ بالحصى ولازاجراتُ الطيرِ ،مااللهُ صانعُ

ومثله قول طرفة بن العبد :

إذا ما أَردتَ الامرَ فامضِ لوجهِهِ وخلِّ الُهوينا جانباً مُتنائيا
ولا يمنعنكَ الطيرُ مما اردَته فقد خُطَّ في الألواحِ ماكنتَ لاقِيا

ولم يكن بد من جعل الحيوان مشمولاً بعناية الآلهة ، ترعاه بنظرها وتحدد اجله وتعنى به عنايتها بالانسان . واليونانيون في هذا الاعتقاد يبتعدون عن العرب ويلتقون مع ما نصّت عليه الكتب المنزلة . فرفق الله بالحيوان كان من جملة الدواعي لارجاء خراب نينوى كما جاء في سفر يونان في التوراة ؛ وسقوط عصفور الى الارض لا يتم بدون ارادة الله كما نصّ على ذلك الانجيل ؛ وفي القرآن نصوص شتى

منها قوله : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبض ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير » .

قدر وطالع

الاعتقاد بالقضاء والقدر من مميزات الشعبين ، حتى ليستسلم المرء امام ما يعتقده محتوماً ولو كان باستطاعته التهرّب والمدافعة . فزفس الاغريق (رب الارباب) لا مردّ لقضائه ولو اجتمعت عليه قوى الانس كافة :

ولكنَّ زَفسَ إذا ما نوَى فما للوَرَى ردٌّ ما قد نوَى

وامور العرب يصرّفها قدر لازم هو اقرب الى قانون طبيعي مستقر. وفي ذلك يقول السموأل :

ولكنْ لها آمرٌ قادِرٌ إذا حاوَلَ الأمرَ لا يُغلَبُ

وعبدالله بن يزيد :

ما أقربَ الأشياءَ حين يَسوُقها قَدَرٌ ، وأَبعَدَها إذا لم تُقْدَرِ

وكذلك آمن الاغارقة بظهور ارواح الموتى . بعضها يظهر للاصدقاء دلالة على التواثق وارتباط المودة حتى ما بعد هذه الحياة ، وبعضها يظل هائماً في العراء شاكياً متذمراً اذا قصّر الاهل في تكريم الجثة لتخفيف وطأة العذاب عن النفس . هذا الايمان نجده عند العرب الجاهليين في اعتقادهم بانه اذا قتل الرجل ولم يُثأرَ له خرج من رأسه طائر يسمّى الصدى او الهامة ، فلا يزال يصيح اسقوني حتى يؤخذ بثأره . والى ذلك

يشير طرفة في معلقته للرد على لائميه :

فَذَرْني أُرَوّي هامتي في حياتِها سَتَعْلمُ ،إن مُتْنَا،صَدىً أَيّنا الصَدِي

وجميل معمر في تقرير حبه ووفائه لبثينه :

يَهْوَاكِ ،ماعشت ، الفؤادُ فإن أَمُت يَتْبَعْ صَدَايَ صَدَاكِ بينَ الأَقْبرِ

ومجنون ليلى في مناجياته الوجدانية العميقة :

فلو تلتقي في الموتِ رُوحي وروُحها
ومِن دونِ رَمسَيْنا منَ الأرضِ مَنْكِبُ
لَظَلَّ صَدَى رَمْسي وَإن كنتُ رِمَّةً
لِصَوتِ صَدَى لَيلى يَهِشُّ ويَطرَبُ

أما كشف الطوالع بشكل عِرافة وكهانة واجالة قِداح ، فقد التقت فيه الأمتان على رحابة في المعتقد وعمق . كلخاس اليوناني عرّاف ماهر ، معزّز مكرّم يهدي سفن قومه بعد تيهها ، ويستطلع كنه السرّ في غضب أفلّون . وكاهنات الالهة تنطق بالسنة الارباب فتفتي بعظائم الامور وتنبىء بمقبل الايام . والقِداح يستقسمون بها بعد رسم اشارة خاصة على كلٍ منها ؛ وطريقتهم في ذلك تقوم بجمعها في خريطة توضع في يد رجل عدل [١] ثم باجالتها لمعرفة النتائج . وهكذا ايضاً كرّم العرب كهّانهم وعرافيهم . فكان العراف عندهم ساحراً وطبيباً ومنبئاً بالغيب ؛ واخبار شقّ وسطيح شائعة في تاريخ الأدب والعقائد . وكانت النساء تتعاطى الكهانة ، واشهرهن طُريفة التي أنبأت بانفجار سدّ مأرب

١ ــ وضعت في يد نسطور بمعسكر اليونان ، وفي يد هكطور بمعسكر الطروادين .

وسيل العرم ، والزرقاء بنت زهير التي انبـأت بني خزيمة بنزولهم في هجر ثم بارتحالهم إلى الحيرة . وكثر استفتاء العرب بالقداح أمام اصنامهم كما جرى لامرىء القيس الكندي . وغالباً ما كان ذلك يقع في حالات أخرى بعيدة عن الصبغة الدينية ؛ فيعهدون بالسهام الى رجل ٍ ذي شأن تؤمن على يده غـائلة الانحياز الى فريق دون آخر ، ولهذا قالوا : لقمان بن عاد اضرب الناس بالقداح لأنه كان موكلاً بهـا « لنقـاوة ذيله وامن جانبه » . أما إجالة القداح في الميسر أي المقامرة التي عرفها العرب وحرّمها القرآن فليس لها من أثر في الالياذة .

قسم وتنظيم

وإذا اقسم أخيل بصولجانه ، واخذ الشرّاح على هوميروس جعـله القسم بقطعة من خشب لا تملك نفعاً ولا ضراً ، هبّ البستاني يبرر هذا القسم ويرد على الاعتراضات . فالشعوب في بداوتها يكثر قسمهـا بشيء محسوس يملأ البصر ، ولذا كان حلف العرب بالبيت والركن وزمزم والحطيم ، أكثر منه بمعبوداتهم وأصنامهم . بالاضافة إلى ان الصولجان شعار الملك والقوة ، واذن يصح القسم به . ولنا في سفر احشويرش في التوراة شاهد بيّن على ذلك .

اما مواقف الابطال والقواد في المعارك وتنظيم الجند وبعث الشجاعة في النفوس ، فقلما اختلفت عند العرب واليونان . أخيل معتزاً بيأسـه ، مهدداً اغا ممنون باعتزال القتال ، مقدّراً حاجة اليونان الملحّة إلى ساعده حين تشتبك السيوف ، كعنترة في اعتزازه وتوجهه بالتهديـد المبطن إلى قومه عبس وملكهم قيس .

سيذكرُني قومي إذا الخيلُ أقبلتْ

وفي الليلةِ الظلماءِ يُفتقدُ البدرُ

ونسطور الشيخ الحكيم ، يقف في جنده محرضاً على الصبر والجلد ومبادرة الاعداء ، موقف عمرو بن معدي كرب في قبيلته زبيد غداة موقعة اليرموك ، وهو في العشرين بعد المئة من سنيه . والنتيجة واحدة في الحالين : فان منظر الشيخ المهيب بآياته البيِّنات وحماسه المتقد ، يبدِّل في نفوس القوم من الاحجام اقداماً ومن الرهبة رغبة واندفاعاً .

وترتيب الهجوم عند هوميروس ، من طليعة تكون فيها الخيل ، وساقة يُرصف فيها المشاة ، وقلب يحشر فيه الضعفاء حتى لا يهولهم الكرّ ولا يسهل عليهم الفرار ، شبيه بنظام الهجوم عند العرب في أواخر الجاهلية واوائل الاسلام . حتى لنراهم يدعون الفيلق التام بالخميس، دلالة على انه مؤلف من خمسة اقسام : هي الطليعة والساقة والقلب والميمنة والميسرة . وروي عن هنيبعل القرطاجي انه تبع هذا النحو في معركة زاما وأودع قلب جيشه كل عاجز جبان .

وهناك عادة متبعة عند اليونان والرومان تقضي بأن يقدم الفارس المتخلف عن الحرب بدلاً عنه من جياد او رجال . وكان البدل مألوفاً عند العرب فان أبا لهب لم يحضر غزوة أحد بل أرسل من ينوب عنه فيها .

مَواقِفُ نساء

وتناول البستاني مواقف النساء في الالياذة ، يقارنها بمواقف نساء العرب في الجاهلية من حيث الحفاظ على شرف ذويهن ، ودفعهم الى الحرب

واسعار نار الحمية في صدورهم مع هذا الحدس الاليم بالخطر المحدق وليس موقف ايقاب وقد أمسكت بيد ابنها هكطور وخاطبته بشيء من التعنيف والاستغراب لتركه المعركة رغم شوقها اليه وحنانها عليه ، ليس موقفها هذا بالبعيد عن موقف الخنساء ، العجوز الشاعرة ، من بنيها الاربعة في معركة القادسية . فقد رافقتهم إلى الموقعة وشددت عزيمتهم بما يدفعهم الى النصر أو الموت . قالت : « اصبروا وصابروا . فاذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها ، وحللت ناراً على ارواقها ،فتيمّموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها فتظفروا بالمغنم والكرامة ، في دار الخلد والمقامة » . فتقدموا واحداً بعد واحد حتى قتلوا عن آخرهم . ولما بلغها الخبر رفعت رأسها الى السماء قائلة : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وارجو من ربي ان يجمعني بهم في مستقر الرحمة . ومثل هذه الحالة من المرأة كانت تهيب بالزوج إلى التخوّف الدائم من سبيها بعد موته ، فتحزّ هذه الفكرة في قلبه ويتفانى في بطولته للذود عن حياضه . يلتقي في ذلك هكطور الذي يجد من نفسه صبراً على هلاك ابيه وامه واخوانه وخلانه ولا يجد صبراً على سبي زوجته :

بيدَ أن الخَطبَ كلَّ الخطبِ آه ان تَكُوني من سَبيَّاتِ العداهْ...
يالحُودَ الارضِ واريني الترابْ قبل ان يدهمني هذا المصَاب
وأنِلني ايها الخطبُ البِلا قبلَ ما زوجِيَ للسبي تنُيلْ

مع عنترة يخاطب عبلاه متخوفاً من مصيرها بعده :

لهِفي عليكِ إذا بقيتِ سبيَّةً تَدعينَ عنترَ وهو عنكِ بعيدُ
يا عبلَ إن سفكُوا دمي ففعائِلي في كل يومٍ ذكرُهنَّ جديدُ

وتودع اندروماك زوجها هكطور مع احساس دقيق بالخطب الذي

ينتظره :

لم يُقَلْ بعدُ أبادَتْهُ العِدى إنما نُحنَ كما لو كان قيل

وداع عبلة زوجها عنترة :

لقد ودَّعتني عبلةٌ يومَ بينِها وَدَاعَ يقينٍ أنني غيرُ راجعِ

ومع ذلك فقد كان اليونان اكثر رعاية للنساء من العرب ، واوفر اهتماماً بالسبايا حتى ليصرح اغا ممنون زعيم الزعماء – في خلافه مع أخيل على سبية جميلة – بأنها ملكت قلبه وفضلت لديه زوجته الحليلة . أما السبيّات عند العرب فكن من جملة المتاع ، ولم يرفع لهن قدر إلا في صدر الاسلام بعد ان كثر السبي من الروم والفرس وظهر منهن نساء محمودات ولدن من نبغ في شؤون وفيرة .

فِتَنُ النساء

وامر آخر يلتقي فيه اليونان بالعرب هو جعل المرأة في اساس اكثر الفتن والحروب . فكما كانت المناوشات القبلية تكثر عند هؤلاء في سبيل امتلاك انثى او صيانة عرض ، هكذا كانت هيلانة الجميلة سبب حرب طرواده ، وكانت ابنة كاهن افلون سبباً في انهيال غضب الآلهة على اليونان وضربهم بالوباء والدمار . ثم تفاقم الخطب ووقع الانشقاق في معسكر أثينا بعد نزاع اغا ممنون وأخيل على سبية فاتنة . وما نجا مركز الالوهة ذاته من جمال المرأة فاذا لها اوفر نصيب في ما نشب من فتن بين ارباب الاولمب .

ويعجب البستاني من تشدّد هوميروس في هذه القضية على ما عرف عنه من انصاف النساء ومدح اخلاقهن واثبات فضائلهن . ويتساءل : « اهي سنّة في خلق الله ام تحامل من المشترعين والشعراء ان تعزى نشأة الفتن والشرور الى ربّات الجمال وبنات جنسهن منذ أغوت امنا حواء ابانا آدم ؟ » ثم يستنتج ان هوميروس كان مصوراً قصّر عن شأوه في وصف احوال الطبيعة كل شاعر ورسّام فالـمّ بها من جميع اطرافها ومثّل ما حسن منها وما ساء « وللمعجبين بوليّات المحاسن ان يقولوا دفاعاً عنهن انه لما كان الجمال مطمح بصر الرفيع والوضيع وللنساء منهن النصيب الاوفر ، كان هو منشأ النزاع . فما بعد ذلك جريرة لصاحب ذخر ثمين يتنازع الناس على احرازه . فان كان ثمة إثم فهو إثم المتنازعين من الرجال [١] » .

ولا يكتفي المعرّب بهذه المقارنات النفسية والاجتماعية ، بل ينصرف إلى نوع من الدراسات الحقوقية التاريخية ، في زواج الفتيات ، ومهرهن وحريتهن ، في اختيار الزوج مروراً باليونان والعبرانيين والعرب في الجاهلية والاسلام ، على توقف عند ظاهرة طريفة لدى البابليين . كان المهر والزواج في بابل يخضعان لنوع من التنظيم الحكومي أو الشعبي ، فتجمع الاوانس الفتيات والعوانس مرة كل سنة ، ثم تُطرح الجميلات منهن بمزايدة علنية يشترك فيها العزّاب طالبو الزواج ، وتقع الفتاة المعروضة في نصيب من يدفع فيها المهر الاغلى . فاذا نفقت الجميلات ، أخذ مهرهن جميعاً واعطي للباقيات اللواتي يطرحن بمناقصة ، ينال الفتاة فيها من يقنع بأقل مبلغ من المال تحمله اليه وهكذا فالجميلات يمهرن رفيقاتهن ، ولا يكون للعرائس أو لذويهن شيء من المهر ، بل يؤدّى لفريق من الازواج ما يؤخذ من الفريق الآخر .

١ - الالياذة ص ٢٢٠

وُجُوهٌ أُخْرَى

تبعة وتحريض

ومن وجوه المقارنة بين الشعبين تعامي الآباء عن هفوات ابنائهم واستسلامهم لمطالبهم – ولو أدى الامر الى حرب انقياداً لعاطفة الابوّة وعصبية الدم . فقد حمل فريام ملك طروادة تبعة تهور ابنه فاريس ، كما تلبَّس مُرة امير بكر بجريرة ابنه جساس قبل حرب البسوس . وكما قال فريام في مجلس الطرواديين يدعوهم الى القتال :

وَبعدُ ، نصولُ وَلَن نَجبُنا لِيَقْضِيَ رَبُّ القَضا بَينَنا

قال مرة في مجلس البكريين وقد خشي خذلان قومه لابنه جساس :

فَإنْ تكُ قد جَنيتَ عَليَّ حرباً تُغِصُّ ٱلشَّيخَ بالماءِ القَراحِ

يَسأَلبسُ ثوبَها وأَذُودُ عنّي بها عارَ المذَلّةِ والفَضاحِ

ولكن ثوب الجلاد هذا كان لا بد له ان يغرق بالدماء وان يُطالب بالثأر . وللثأر صفة شبه دينية الى جانب كونه شهوة انتقام ومظهر بطولة ، فلا يبرح القاتل على تخوف وحذر ، ذاك ان الدية والفكاك والتلويح بالمال كلها امور لم يكن في بعض الاحوال ليسدّ شيء منها مسدّ الدم المطلوب بالثأر . فقد وقع احد ابطال الطرواد اسيراً في يد منيلا (زوج هيلانة واخ لاغا ممنون) وراح يضرع اليه متذللا ويطمعه بالكنوز فكاكاً لنفسه ، وكاد منيلا يعفو عنه لو لم يبادر اغا ممنون فيعنفه على رفقه

بعدوّ لا يستحق الا السيف :

تَعِستَ مَنِيلا وَأَنْتَ تُلامْ ... عَلامَ رَحِمْتَ أُولاءِ اللِّئَامْ
أَجل فَلْيَبيدوا ويَفنَ الجميعُ ... فَتَاهُم وشَيْخُهُمُ والرَضيعُ

وربما لاح هذا التحريض بربرياً فظاً خالياً من كل شعور انساني نبيل ، غير انه في الواقع تمثيل صادق لاطوار ذلك الزمن حيث كان الانتقام يقضي على كل رحمة وتسامح . وفي اخبار العرب قبل الاسلام من اشباه ذلك شيء كثير وهذا ابو أُذينة يحرّض مليكه على الايقاع بالخصوم الاسرى ورفض اي فدية او شفاعة ، لان التنازل عن الدم بحفنة من المال ذل وعار ، وإعمال الشفقة مع من لم يعرفها قبل ذاك ضعف ومكمن خطر :

أَيَحْلُبُون دَماً مِنّا وَنَحْلِبُهُمْ ... رَسْلاً ! لَقَد شَرَفُونا في الوَرى حَلَبا
عَلامَ نَقبلُ منهم فِضَّةً وَهُمُ ... لا فِضةً قَبِلوا منّا ولا ذَهبا ؟
لا تَقْطَعَنْ ذَنبَ الأفعى وتُرسِلَها ... إن كنتَ شهماً فأَتبِعْ رأْسَها الذَنبا

بل اننا نجد هذا اللون من التحريض الجماعي حتى بعد الاسلام الذي اقرّ الدية حقناً للدماء ودفعاً لاثارة الضغائن وشريعة الثأر البدائية . فهوذا سديف الشاعر يدخل على الخليفة السفاح وقد اخذته رأفة بسليمان ابن هشام فينشده :

لا يَغُرَّنْكَ ما تَرَى من رجالٍ ... إنَّ تحتَ الضُلُوعِ داءً دَوِيّا
فَضَعِ السيفَ وارفعِ السوطَ حتى ... لا تَرى فوقَ ظَهرِها أُمويّا

فيأمر السفاح بقتل سليمان ، ممثلاً بذلك دور منيلا بعد ان وقف منه سديف في الحض والاستثارة موقف آغا ممنون من أخيه . وتلك عادة متملكة من الشعوب القديمة ، حتى ان الانبياء انفسهم لم يكونوا أرأف بالعدو من سائر الناس ؛ فقد جاء في التوراة ان صموئيل النبي سخط على شاول الملك لابقائه على خصمه أجاج سيّد العمالقة .

امارة وشورى

وكانت طريقة الحكم تختلف مع ظروف الحياة . فملوك اليونان مقيدون في حالة السلم بمجالس شورى يأخذون رأيها ، ولكنهم زمن الحرب يحصرون السلطة بيد فردٍ منهم يعودون اليه في كل أمر وتدبير ، شأن اغا ممنون زعيم الزعماء في حرب طروادة الشهيرة . وكذلك كانت طريقة العرب ، فامير القبيلة لا يستقل بالرأي دون شيوخها واقيالها [1] . حتى اذا دهمت حرب تحالفت فيها القبائل واسندت الرئاسة طيلة القتال الى امير يختار بالقرعة او بالاتفاق كما ولي حرب بن امية على قبائل قريش في حرب الفجار . فاذا انتهت المعارك لا يبقى لهذا الامير مزية على سواه .

١ ـ صور ذلك طرفة بن العبد مفتخراً بانه يحضر مجالس القبيلة وحلقات قومها الى جنب رغبته في اللهو واللذة :

فإن تَبْغِني في حَلقَةِ القومِ تَلْقَني ،
وإنْ تَقْتَنِصْني في الحوانيت تَصْطَدِ

ولكن اكثر ما عرف العرب حالة الشورى مع الخلفاء الراشدين . قال ابو بكر في خطبته يوم بويع بالخلافة : انا متبع ولست بمبتدع . فان استقمت فتابعوني وان زغت فقوموني . « وخطب الفاروق عمر قال : ايها الناس من رأى منكم في عوجاً فليقومه » فرد احد العامة : والله لو رأينا فيك عوجاً لقومناه بسيوفنا . ولم يغضب عمر لهذه الجرأة بل اجاب شاكراً : «الحمد لله الذي اراني من يقوم عوج عمر بسيفه».

رُوح الضِّيافَة

ومن الطوابع العميقة في نفسية الامتين ، صفة الضيافة والسخاء . حتى لنجد الامير اليوناني – كما ذكرنا ذلك مجملاً – يخدم زواره بنفسه مبالغة في التكريم ، فينحر الجزور ويقيم الولائم ، ويبحث عن الضيوف في الطرقات والمفاوز ، بانياً داره على مفرق السبل ليكون عوناً لكل مستغيث ، شأن اكسيل الذي :

في مضربِ السبُلِ كانَ يَطُوفْ يُغيثُ العِبادَ ، وَيَقْري الضيُوفْ
وَفوقَ الطريــقِ بَنى دارَهُ لِيُكــرِمَ بالقربِ زُوَّارَهُ

وإننا لا نكاد نقرأ قصيدة في الفخر العربي أو المديح ، دون ان نجد فيها اعتزازاً بالقرى والنجدة . فمن قولهم بمعنى كلام هوميروس :

نَصَبُوا بقَارِعَةِ الطَرِيقِ خِيامَهُم يَتَسابَقُونَ الى قِرَى الضِيفَانِ
ويكادُ مُوقِدُهُم يَجودُ بنفسِهِ حبَّ القِرى ، حطباً على النيرانِ

ومثل هذا قول طرفة وقد جعل الضيافة واغاثة الملهوف احدى لذائذه الثلاث ، التي لولاها لما خشي الموت ولا اهتم للحياة :

وكَرِّي إذا نَادَى المُضَافُ مُحَنَّباً كَسِيْدِ الغَضَا ، نَبَّهْتَهُ ، المُتَوَرِّدِ

أما حاتم طيّ فقد صار مثلاً يضرب في السخاء حتى الجود بالذات . فناره مشبوبة ابداً ، وقدره مهيّأة ، ولا باب يوصد في وجه طارق :

وَأبرِزُ قِدْري بالفضاءِ ، قَليلُها يُرى غيرَ مَضنونٍ به ، وَكَثيرُها

وليسَ على ناري حِجابٌ يكنُّها لُمستَوبِصٍ ليلاً ولكن أُنيرُها

وقد بلغ من مغالاة العرب بقرى الضيف أن جعلوا ذلك شرعة نسبوها إلى جدّهم الأعلى ابراهيم ، فهم يتبعونها سنّة كفريضة الحج والصلاة في مكة المكرمة :

وَحُرمَةِ الشيخِ الذي سنَّ القِرى وأَسَّسَ المَحجُوجَ في أُم القُرى

شاهد طريقة

ولعل من الخير ، للتدليل على طريقة البستاني في التعليل والمقارنة ، ان نثبت النص الكامل لشرحه مطلع الالياذة :

رَبَّةَ الشعرِ عن أَخيلَ بنِ فيلا أَنشدِينْا واروي احتدَاماً وبيلا

فقد جاء في التعليق عليه . « شرع الشاعر في استنشاد الاهة الشعر والقريحة ، وبنى منظومته على كيد اخيل بن فيلا اشد أبطال القوم بأساً .

كان اليونان في جاهليتهم ورعين في عبادتهم ، مخلصين في معتقدهم ، يجنحون إلى التماس عون آلهتهم في كل شأن من شؤونهم ، ويعتقدون الوحي والالهام ، ولهذا شرع الشاعر في استمداد المعونة من ربة الشعر لتبثّ فيه روح النظم والانشاد ، بل زاد على ذلك بأن جعلها هي المنشدة فكأنها هي صاحبة الفضل ، وهو إنما كان ناقلاً يملي على الملأ ما

يتلقنه من فيض روحها . وهنا منتهى الورع وسلامة الاعتقاد . هذا فضلاً عما تجد النفس من الارتياح بالاستكانة والاستسلام إلى عضد قوي تتوكأ عليه ، فتصرف عنها اليه عبء العناية بالعمل اثناء القيام بأمر خطير . ولقد حذا حذو هوميروس سائر الشعراء في جاهلية اليونان والرومان ، ولا سيما في مطولات ملحماتهم ، كقول فرجيلوس كبير شعراء اللاتين : Musa , mihi causas memora

ولما انتشرت النصرانية في البلاد الاوروبية وانصرف اهلها إلى عبادة إله واحد هو رب الشعر والشعراء وكلّ معقول ومحسوس ، لم يبق لربات الاغاني والاناشيد محل في عقيدتهم . ومع ذلك فان فريقاً منهم ظل يستمد عونهن على سبيل الاستعارة ، فكان شاعرهم كأنما يستغيث خصلة من صفات الباري عزّ وجل ألا وهي فيض الغوث الالهي . وعلى هذا قال تاسو في فاتحة منظومته « اورشليم المحرَّرة » O Musa , tu spira al Petto mio celesti ardori وقال ملتن الانكليزي في « الفردوس الغابر » : Sing Heavenly Muse فاستنشدا ربة الاغاني وعرّفاها بالمنشدة السماوية . وهلم جرا .

اما العرب في جاهليتهم فلم يكونوا على شيء من هذا التزلف إلى معبوداتهم ، ولا إلى جنيات الشعر اللائي كن بزعمهم يوحين اليهم . ولم يكن شاعرهم يستنشد إلا سليقته مستحثاً فطرته الشعرية ليس إلا . فان امرأ القيس وقف موقف المنشد والمستنشد بقوله :

قفانبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ   بسِقْطِ اللِوى بين الدَخولِ فَحَوملِ

وهكذا يقال في استهلال طرفة :

لِخَولَةَ أَطلالٌ بِبُرقَةِ ثَهْمَدِ   تَلوحُ كباقي الوَشْمِ في ظاهرِ اليدِ

وقس عليها . على انه لما جاء الاسلام ، ورسخت صحة الدين في أذهان العرب ، أخذوا يفتتحون مصنفاتهم ومؤلفاتهم بالبسملة عملاً بالحديث القائل : كل امر ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو ابتر (أو اقطع او اجذم) . ثم يأتون بالحمدلة والصلاة والسلام على النبي . فانك لا تكاد تجد مؤرخاً أو مؤلفاً أو شاعراً نظم في علم أو فن إلا رأيته نحا هذا النحو ، إلا في قصار المنظومات كقصائد المدح والهجاء والغزل والرثاء فليست كلها بامور ذات بال .

شاهد جديد

بعد غضب أخيل واعتزاله وقومه القتال ، بان النقص في جيش اليونان فطمع بهم خصومهم . ورأى اغا ممنون ضرورة مراضاة أخيل فوجَّه اليه وفداً يحمل العروض المغرية والوعود السخية ومنها ان يقدِّم له احدى بناته الثلاث زوجة وفيّة دون مهر أو صداق :

ولستُ بِباغٍ مَهرَها ، وأَزِيدُها جداً لم يَجُدْ فيه أَبٌ منذُ أَدْهُرِ

وتستدعي لفظة « مهر » شرح البستاني فيتوقف عندها باستفاضة بارعة . قال :

« المهر منذ القدم من حقوق العروس وابيها أو من قام مقامه من ذويها ولم يصر من حقوق الزوج في بعض الاحوال إلا في عصرنا او ما ماثل ما ذكره هيرودوتس عن زواج البابليات اذ كانوا يجمعون الاوانس الفتيات والعوانس اللائي طال بهن القعود ، مرّة كل سنة فيجتمع اليهن كل عزب وطالب ثم ينادى باجملهن وتُدفع لدافع المهر الاعظم . ثم

ينادى بمن تليها حسناً وهكذا الى ان تنفق الجميلات ؛ فيؤخذ مهرهن جميعاً . وينادى بالباقيات مع اضافة مبلغ الى كل منهن وتدفع الفتاة التي لم ترزق الجمال ، للقانع بايسر مبلغ الى ان تتم المناقصة في الدور الثاني كما تمت المزايدة في الدور الاول . وهكذا فالجميلات يمهرن رفيقاتهن . وعلى كل فليس من المهر شيء للعرائس وذويهن بل يؤدى لفريق من الازواج ما يؤخذ من الفريق الآخر . على ان هذه الحكمة لم تؤثر إلا عن بابل . وأما العبرانيون والعرب فكانوا كاليونان . والمهر مهران أحدهما للأهل والآخر للفتاة . فابراهيم الخليل أهدى خرجاً من الذهب وسوارين الى رفقا خطيبة ابنه اسحق . ويعقوب خدم لابان سبع سنين بمهر ابنته ليئا وسبعاً أُخر بمهر اختها راحيل .

والمهر في جاهلية العرب كان في الغالب لأبي البنت أو أهلها حتى لقد كانوا اذا ولد لأحدهم بنت يقولون له : هنيئاً لك النافجة . أي المعظمة لمالك ، لأنك تأخذ مهرها فتضمه إلى مالك فينتفج . وربما تجاوز الاهل عن المهر لابنتهم اذا كانوا من ذوي اليسار . والظاهر ان العرب لم يكونوا جميعاً على مذهب واحد من هذه الوجهة اذ لو كانوا كلهم يرجون السعة وازدياد الثروة من وراء البنات لما فشت بين الكثير من قبائلهم عادة الوأد او دفن البنات وهنّ حيّات .

اما القول بزواج البنت فكان لأبيها او وليّها ؛ يزوجها ممن اراد كما كانت العادة عند اليونان . وربما رجعوا الى خيار الابنة او اكرهوها في خيارها كما روي عن ليلى عشيقة المجنون . قال صاحب الاغاني : « لما شهر امر المجنون وليلى وتناشد الناس شعره فيها خطبها وبذل لها خمسين ناقة حمراء ، وخطبها ورد العقيلي وبذل لها عشراً من الأبل وراعيها . فقال اهلها نحن مخيّروها بينكما فمن اختارت تزوجته . ودخلوا اليها فقالوا : والله لئن لم تختاري ورداً لنمثلن بك فقال المجنون :

أَلا يَا لَيلَ إِنْ مُلّكْتِ فينا خِيـارَكِ فانظُري لِمنِ الخِيَارُ
ولا تَستَبدِلِي مِنَّـا دنيًّـا ولاَ برِماً إِذا حُبَّ القُتَـارُ
يُهَروِلُ في الصَغيرِ إِذا رآه وَتُعجِزُهُ مُلِمَّاتٌ كِبارُ

فاختارت ورداً فتزوجته على كره منها . ينبئك هـذا السياق ان خيار البنت لم يكن حقيقة لها الاّ في حالات مخصوصة .

ولما جاء الاسلام اقرّ المهر والخيار كليهما للابنة وجعلها لها حقاً يضمن لها الراحة بعد الزواج . وقسم المهر الى قسمين العاجل وهو مـا يؤدى لها عند الزواج والآجل وهو مـا تعطاه فيما اذا طلقت فتستعين به على المعيشة بعد الطلاق . »

وحسبنا من هذين الشاهدين دليـلاً على طريقة البستاني في معالجته الشرح والتعليق . فالبيت الواحد عنده يفسح المجال لموضوع رحب جمّ الفائدة متعدد الجوانب . ولكن ، من الحق الملاحظة انه ينظر في بحوثه الى التاريخ وعرضه اكثر من نظره الى الناحية الفنية المجردة .

في الصُوَرِ وَاوجُهِ البيَان

استعارة وتشبيه

قلمـا طالعتنا صورة في الشعر الهوميري ، ولم نجد لهـا قريناً في أدب العرب .

تفشى وباء في معسكر اليونان مردُّه إلى شدة الحر وفرط العناء وفساد الاطعمة ، فصاغ هوميروس ذلك بقالب شعري جميل وجعل السبب سهماً راشه افلّون إله الشمس الذي يتخذ من أشعتها نبالاً . واستعارة الأسهم للرزايا والنبال للمنايا ، تكثر في الشعر القديم والحديث ، عند العرب وغيرهم . كقول داود النبي : « فيرميهم الله بسهم ، وضرباته تكون بغتة » . أو كقول المتنبي :

رَماني الدهرُ بالأَرزاءِ حتى فؤادي في غشاءٍ من نِبالِ
فصِرتُ إذا أصابَتني سهامٌ تَكَسَّرَتِ النِصالُ على النِصالِ

وتشبيه النطق اللطيف بالشهد كما جاء في الالياذة « والشهد من شفتيه بالنطق انسكب » ، كثر وروده في كلام العرب نثراً ونظماً ، أخذاً عن الطبيعة مأخذ هوميروس نفسه . فمن ذلك قول الصاحب بن عبّاد :

باللهِ لفظُكَ هذا سالَ من عَسَلٍ ام قد صَببْتَ على أفواهِنا العَسَلا

وقول الثعالبي :

سُبحانَ ربي ، تباركَ اللهُ ما اشبهَ بعضَ الكلامِ بالعَسَلِ

وتكنية أخيل وأياس بحصن اليونانيين وقت الملمات ، جاء في الشعر العربي بمفهومين مختلفين : الأول للدلالة على علو الهمة بالذود والكفاح كما ورد عند العبسي :

انا الحِصنُ المَشيدُ لآلِ عبسٍ إذا مـا شادَتِ الأبطالُ حِصنَا

والآخر للدلالة على الحكمة واصالة الرأي اللتين تقومان مقام الحصون كقول الزمخشري : « كهول معقل الطرداء فيهم » .

وتصوير زحف الجيش وتشبيه افواجه المتراصّة بامواج البحر ، ابرزه هوميروس باطار عنيف يفرض الخوف والمهابة :

تَدَفَّقتِ الأَجنادُ ايَّ تدفُّقِ إلى الحربِ تجري فَيلَقاً إثْرَ فَيْلَقِ
كَثَائرِ أَمواجِ البحارِ تَهيجُها من الريحِ انواءٌ بغيرِ تَرَفُّقِ
يُدفِّعُ بعضاً بعضها فوقَ لُجِّها الى حيثُ فوقَ الجرفِ بالعنفِ تلتقي
فَتَنقَضُّ أعلى الصخرِ عن زَبَدٍ غثا تُغَرْغِرُ عن قصفِ الهديرِ المصفِّقِ

وقد تداول العرب هذه الصورة وتفننوا بعرضها فنقلوها من مجال الحرب المادي الى نطاق الكرم او الالم المعنوي المحض . قال عنترة العبسي يصف الجيوش :

تموجُ كموجِ البحرِ تحتَ غمامةٍ
قدِ أنتسجتْ من وقعِ ضربِ الحوافرِ

وقال امرؤ القيس في وصف ليله وقد تراكم فيه الهم من كل جانب :

وَليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدولَهُ عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليَبتَلي

واستعار البحتري صورة الموج المتدافع ليبرز بها نعم ممدوحه :

إلى فتىً يُتبِعُ النُعْمى نظائرَها كالبحرِ يُتبِعُ أمواجاً بأمواجِ

بلاغة وايجاز

بيد ان هذا التفنن في العرض والتفصيل يفسح المجال – حين يقتضي المقام – لايجاز بليغ يجمع الكثير من الصور والمعاني في القليل المعبّر من اللفظ . ففي النشيد الثامن عشر ينقل رسول الى أخيل نبأ مقتل صديقه فطرقل فيذكر اسم القتيل واسم القاتل وفوزه بسلاح اخيل وتجريد جثة القتيل والتحام الحرب من حولها ، وذلك كله ببيت واحد من الشعر وطأ له ببيت آخر هيّأ فيه أخيل لسماع ذلك الخطب الجلل وللاذعان والتجلد فالامر كان بمشيئة لامردَّ لقضائها ولا حيلة لبني البشر في دفعها :

قال: ابن فيلا مُصابٌ قد دُهِمْنَا به   يا حَبَّذَا لو بَنُو العَلياءِ مَا دَهمُوا
فَطْرُقلُ مُلقىً ، وهكطُورُ بِشَكَّتِهِ ،   والجسمُ عارٍ ، عليهِ النَقْعُ مُلْتَحِمُ

وذاك منتهى البلاغة والايجاز فالموقف موقف سرعة واهتمام لا مجال بحث وكلام . ويتمثل اليونان بهذين البيتين تمثل الرومان بقول يوليوس قيصر : Veni, Vidi, Vici ومعناها : اتيت ، فرأيت ، فظفرت وهي كلمات ثلاث كتبها الى مجلس الشيوخ بروما بعدما حمل فائزاً من مصر على بلاد متريدات في آسيا فاكتسحها .

وعندنا في العربية امثلة كثيرة لجمع المفاد الطويل في الكلام القليل . فامرؤ القيس في مستهل معلقته : « قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل » ، وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل بشطر واحد . وقول بعضهم :

رَأى فَحبَّ فَرامَ الوَصْلَ فَامْتَنعُوا فَسَامَ صَبْراً فأعيا صَبْرهُ فَقَضَى

هي حكاية الحب تبدأ مع النظرة الأولى متدرجة الى الهيام فالمحاولة، فالاخفاق فالحسرة فالصبر فالقبر . وقول شوقي أمير شعراء العصر الحديث :

نَظْرَةٌ فابْتِسَامَةٌ فَسلامٌ فَكَلامٌ فَموْعِدٌ فَلِقَاءُ

انما هو تحديد تام لسلّم الحب يرصفه درجات آخذة ببعضها البعض . وكان للنثر نصيب بعيد من هذا الايجاز وخاصة في التواقيع التي كانت مشيئة الامراء . فقد وقّع جعفر البرمكي في كتاب جاءه في شكوى أحد عمّاله : « لقد كثر شاكوك وقلّ شاكروك ، فإما اعتدلت واما اعتزلت » . ووقّع الى سجين يسأله العفو : « ولكل أجَل كتاب » .

صُوَرٌ وتَشخِيص

اما استعمال الحلم لمضي الزمن « إن لم يكن كالحلم ماضي الزمن » فهو من الصور المتواترة في كل الالسنة . عند أبي تمام الذي تمر به الايام وأهلها « فكأنها وكأنهم أحلام » . ولدى البحتري الذي تصرمت أيام وصله فكأنما هي « اضغاث وأحلام نائم » . وفي قول بشار والمتنبي وغيرهما من شعراء العرب .

والطيف الذي ارسله زفس رب الأرباب رؤيا خبيثة لإغراء اغا ممنون أسهب الشراح في الكلام عليه وكفّروا هوميروس في إنزاله زفس منزلة لا تليق بأبي الآلهة والبشر بارسال طيف كاذب يخدع بما لا يكون . ولا

يرى البستاني في هذا السياق إلا وصفاً شعرياً ، تقتضيه قوة الربط وحسن التسلسل ، ورد مثله في كتب اليهود والنصارى والمسلمين كتسلط الروح الخبيثة على نفس ايوب ليبلوه بها ربه . ويرجح ان هوميروس لم يكن مستنبطاً في هذه الصورة بل ناقلاً عن التوراة . تناول ما قاله ميخا النبي على سبيل المجاز والرمز . وصاغه بقالب الحقيقة كجاري عادة اليونان في تجسيم ما وراء الطبيعة . فقد جاء في التوراة :

« قال الرب : من يغوي احاب ملك اسرائيل ، حتى يصعد ويسقط في راموت جلعاد ... فخرج روح ووقف بين يدي الرب وقال : انا اغويه . فقال له الرب ، بماذا ؟ فقال : اخرج واكون روح كذب في افواه جميع انبيائه . فقال الرب : انك تغوي وتقتدر فاخرج واصنع هكذا » .

وربما كان من أجمل الصور التي يلتقي فيها هوميروس بشعراء العرب ، تلك التي يذكر فيها تعاقب الاجيال من الناس . ولكنها تحمل معه بالاضافة الى التلاشي فكرة النمو والتجدد ، فورق الشجر يندثر ليخلفه ورق جديد ، وزهر الحقل يذوي ليتلوه نبت غضيض . بينما هي ترمي مع العرب كالمتنبي وأبي العلاء المعري الى تقرير واقع يتمسك بابراز معنى الزوال والتبدّد ، على تطرق سريع الى فكرة الاستمرار . أما التوراة فقد عبّرت عن ذلك مع ابن سيراخ بما لايختلف في شيء عما جاء به هوميروس : « فكما ان اوراق شجرة كثيفة بعضها يسقط وبعضها ينبت ، كذلك جيل اللحم والدم بعضهم يموت وبعضهم يولد » .

والقنطير ، ذلك المخلوق الخرافي الذي كان شطر انسان على شطر حصان ، إنما هو عند اليونان اسطورة فرسان محنكين ، مازال أصحابهم يغالون في اطراء مهارتهم حتى الصقوا الفارس بالفرس . وقد جاءت هذه الصورة عند العرب ، ولكنها ظلت خيالاً شعرياً غير عالق بعالم

الأساطير . وفي ذلك يقول ابو الطيب – واصفاً فروسية البعض – ولا يستبعد ان يكون استمد فكرته من هذه الخرافة التي رسمها بطليموس ونقلها العرب :

فكأنها نُتِجَتْ قياماً تحتهم وكأنَّهم وُلِدُوا على صَهَواتِها

ويحتمل ان تكون لفظة القنطير ، بمعنى الداهية في لغتنا ، مأخوذة من هذه المادة .

وجياد أخيل وعنترة تذرف العبرات أسىً وحزنا في مواقف الهول فتشعر شعوراً انسانياً واعياً يرفعها درجات في سلّم الطبيعة . فبينا صافنات أخيل « في عزلة تذرف دمعاً » على مقتل فطرقل ، اذا بجواد عنترة وقد تسربل بالدماء يشكو بعبرة وتحمحم :

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي

في السَّرِقة وتوارد الخواطِر

ويستطرد البستاني إلى التمييز بين السرقه في الادب وتوارد الخواطر : فيأخذ على العرب تشددهم في هذا الباب ووصمهم بالنقل والسرقة صوراً ومعاني بديهيّة تمر بخاطر الشاعر الذي تسيطر عليه حالة روحية كتلك التي عرفها زميله ، أو يعيش في بيئة توحي اليه بمثل هذه الصور .

من باب توارد الخواطر ان يصف الليل بالطول كلُّ من هام فيه على يأس وألم أو رغبة وانتظار ، فذاق قلق النفس مع مرّ السهر . ومن



القنطــير

نوع البديهيات ان يشبّه فقد عظيم ، ببدر هوى من كبد السماء وان يتواتر ذلك على لسان الشعر في امة صفا جوها وسامرت القمر والنجوم . وليس من النقل في شيء ان يعبّر أب عن حزنه لفقد وحيده بمثل ما عبّر به أب آخر ، لأن مشاعر النفس الانسانية ثابتة على الزمن ، وإذا ما لحقها بعض التغير فانما يكون ذلك في الشكل والعرض دون الجوهر والأساس .

وأما شعراء اللاتين والفرنجة ، فلم يحاذروا مثل هذه المحاذرة في نقل صورهم ومعانيهم ، ولا سيما بالنظر الى الالياذة ، « فانهم اغاروا عليها ونقلوا أو نسخوا ، واقتبسوا وعـارضوا وضمّنوا وتصرفوا ، وهم في الغـالب لا يضمرون السرقة بل يفاخرون بان يعلم انهم تحدّوا هوميروس [١] » . فوصف الالياذة لاندفاق هكطور في صدر الجيش وتشبيهه بجلمود صخر قذفه السيل من عل ، فراح يتدحرج إلى القـاع حيث يستقر بعنف ويرتج له الغاب ، نقله فرجيل في « انيـاذته » اللاتينيـّة ، واخذه تاسو الايطالي في « اورشليمه المحررة » . واقوال زفس في مشاجرته مع اخيه واستكانة هذا الاخير ، اخذها ملتن الانكليزي في « فردوسـه المفقود » ليصف ارتداد جبريل عن ابليس . ونجوى زفس للطرواد مع صراع النسر والافعوان ، وقد التف هـذا على النسر يلسع صدره بعنف ، والنسر ينشب فيه مخالبه مصعّداً في الجو ، ثم يتركه خضيباً هاوياً إلى الأرض ، تناولها فولتير في مقدمة منظومته « كاتلينا » على ضروب من التصرف والتفنن . « وان امثـال هذه المنقولات عن المعاني الهوميرية مما يملأ الاسفار . ولم يُعب عليهـا هؤلاء الشعراء ، إلا من تعمّد السرقة وشفّ نهجه عن ادعاء الابتكار على نحو مـا نرى

١ ـ مقدمة الالياذة : ص ١٨٢

الكثيرين من المتطفلين على الشعر في هذا العصر [1] » .

ذاك قبس من كثير ، مما جاء عند البستاني في مقارنته الاداب . وقد رأيناه تارة يتناول ذلك في المقدمة وغالباً ما يتوقف عليه في الشرح والتعليق ، مبرزاً أوجه الشبه أو أوجه الاختلاف مع العوامل التي ادّت إلى ذلك . فمرة يردها إلى المجتمع واخرى إلى البديهة ، وحيناً إلى النفس الإنسانية وطوراً إلى الأخذ والنقل . وإذا قيل أن الأدب المقارن يفرض وجوده أثر ، وعلاقة ، وانتقال – كأثر رسالة الغفران للمعري في الملهاة الإلهية لدانتي وفقاً لما اظهره ميكال أسين بالاسيوس – وإن البستاني لم يدرس هذا الأثر وكيفية انتقاله أو عدم امكان انتقاله من اليونان إلى العرب ، فالإجابة على ذلك يسيرة . فانه إذا لم يكن قد قابل بشكل واسع بين الجاهليتين بمفهوم الأدب المقارن الحديث ، فقد قام بمقارنة عميقة موفقة بين طبيعة ادبين وامتين واقليمين ، وهو في الغالب من بحوثه يأخذ الجانب الرحب من الأدب المقارن ، جانب الأدب الكلي أو العام « الذي يرى أن من مهماته الاساسية إحصاء أكبر عدد ممكن من الوقائع الأدبية التي تمثّل وجود مشابهات اكيدة في بلدان مختلفة ، وأن يحاول تفسير هذه المشابهات بتأثير علل مشتركة بعثت على وجودها في كل من هذه البلدان [2] » .

خلاصة

وهكذا نجد البستاني مدقّقاً في بحوثه ، لا يصدر حكماً ما لم تتوفر لديه ادلة الثبوت ، ولا يتعلق بنتيجة إذا لم يشبعها درساً وتمحيصاً .

١ – مقدمة الالياذة ص ١٨٤

٢ – فان تيجم : الأدب المقارن ص ١٩٥

وكان من انفتاحه على الغرب ، ان لقح النقد العربي بنظريات ادبية جديدة ، اظهرت ان البحث الحق شيء وراء درس الالفاظ واغلاط اللغة ، وسرقات الشعراء وعرض الاساليب البيانيّة والبديعية .

اخذ المقاييس العلمية الحديثة منهجاً يسير عليه .

فهو في بحثه لغة الالياذة يلتقي مع الناقد الفرنسي « برونتيير » في تطبيق نظرية النموّ والتطور على الادب ، إذ ان سنّة النمو والتحوّل وتفرع الاصل الواحد إلى اصول شتى تشمل اللغات كسائر المخلوقات » .

وفي تناوله اطوار الشعر العربي مع طبقات الشعراء بزمانهم ومكانهم وجنسهم ، لا يعدو منهج المؤرخ « تين » الذي يعتبر الاديب اثراً من آثار الجنس والبيئة والزمان ، يخضع لكل هذه العوامل في حياته الفكرية كما يخضع لها في حياته الاجتماعية .

اما شخصية الأديب وضرورة تركيزها . فيسلك في دراستها مسلك « سانت بوف » الذي كان يتتبع حياة الكتّاب الشخصية للكشف عن اذواقهم ومزاجهم وعاداتهم في سبيل تحقيق ما كان يسميه « وعاء الكاتب » .

وفي بحثه فعل الحضارة في التشبيه والمجاز ، يؤمن « كمدام دي ستال » و « فيلمان » بالعلاقة الوثيقة بين الادب والحضارة ، ولا ينكر ان الانقلاب الذي يطرأ على مفاد التعبير مرده غالباً إلى عامل حضاري : « ليس منا اليوم من يستحسن تشبيه كريم قوي الجنان ربط الجأش بالحمار ، ولا تشبيه باسل مغوار بالخنزير . على ان اليقين أن ابناء الجاهلية من كل قوم لم يكن هذا شأنهم ايام كانت الفطرة تأخذ بالظاهر ولا تتكلف التأويل ، وتتشبث بالحقيقة مهما ثقلت [١] »

---

١ - مقدمة الالياذة - ص ١٨٥

ولكن مترجمنا لم يكن من اولئك الذين يقحمون النظريات الحديثة في دراسة الآداب القديمة اقحاماً دون مراعاة طبائع اللغة والادب والعصر، بل اخذ بروح العلم فكان كما يطلب من الناقد العلمي الحق « مقتصداً في احكامه، موضوعياً غير مسرف ولا مبالغ، متقصّياً للتفاصيل، بانياً حكمه على ما جمع من معلومات دقيقة، ثم مسبباً له بالحجج العقلية التي تصحّ لدى الغير [١] » وللوصول الى ذلك كان يقول « ببرود الناقد امام الاثر الفني بحيث لا يتأثر بعواطف خاصة نحو المؤلف، وبالشك في كل ما يقال عن المؤلف قبل ان يتحقق، وبالعدل والعلم في سبيل النقد الصحيح [٢] »

١ - محمد مندور : في الادب والنقد ص ١٤

٢ - سهير قلماوي : محاضرات في النقد الادبي ص ٣٩

المعرب

يا باعث الاعمى البصير ، من العصور الخاليات
يهلهل في الضاد ، ملء الدهر ، ملء فم الرواة
يتساءل البلغاء فيه عن البحور الزاخرات
هل كان هوميروس يملي فوق تلك الانملات

رشيد نخله

العرب والتعريب

في الجاهلية: أثر شفهي

العرب في باديتهم قبائل متفرقة في صحراء قاحلة ، ماؤها قليل وهواؤها حار . يختصمون على ماء ، ويصطرعون على كلاء ، ويفنون العمر بحثاً عن غريم يثأرون منه . همهم منصرف الى كسب قوتهم والذود عن حياتهم ، مشغول بهذه المرافق الحيوية عن البحث في مشاكل الكون ، وتطلّب العلم والمعرفة لفك الغاز الوجود وسبر أغواره الخفيّة . ولم يقدّر لهم ان يختلطوا اختلاطاً نافعاً بالفرس والروم جيرانهم ليكتسبوا طرق التفكير والانسلاخ عن المادة إلى التجريد والمعقول . فظل احتكاكهم تجارياً يدور على السلع ولا يأخذ من العلم والحضارة إلا بقدر يسير . كان يتوقف على اسماء هذه السلع التي بها يتاجرون ، ويقبس عن الكلدان والاشوريين والفرس والهنود ، معلومات في الطب والعقاقير والنجوم وما إلى ذلك . ويبرز اثر هذا الاحتكاك في مفردات دخيلة كخيزران ، وفلفل ، وآبنوس ، وببغاء ، وسجنجل (مرآة) ، وكافور ؛ وفي نسب عربية تعود أصولها إلى اللغات الجارة كأن يسمى السيف المحكم الصنع : المهنّد ، والهندي ، والهندواني ، ويُشتق منه

فعل هنـّد ، بمعنى شحذ ، وما يلحق بـه من صيغ ، ويطلق اسم هند على طائفة من نساء العرب .

ولكن هذا الاثر ظل سطحياً وغير مدوّن . فاعليتـه محدودة ، تلامس القوالب اللفظية ولا تحرك الافكار ؛ وقيمته ضئيلة ، تغزر مادة المعجم ولا ترفع مستوى العلم .

في صدر الاسلام : محاولات فرديَّة

ويشاء الله ان ينزل رحمته بالحجاز . فهناك ، في غار قرب مكة ، رجل منصرف إلى نفسه وربه ، يتلقى رسالة العلاء إلى الارض . ينقلها همساً أول الأمر ، ثم يرتفع الصوت ويمتد فيغمر الجزيرة نوع من الوعي جديد ، وتتوحد قبائلها امـة وقومية ، وديناً . وتطغى من تخومها على الجيران موجة كاسحة من المغازي والفتوح ، تركز بنودها من الاندلس غرباً إلى الهند والسند شرقاً .

ويدخل تحت اللواء الجديـد امم عريقة وحضارات سامقة . فمراكز العلم تزخر بها الشام والعراق ومصر وفارس ، ومدارسه تنشر التعاليم مذهبية دينية أو طبيعية ثقافية . فمن مدرسة الاسكندرية حيث العناية بالفلسفة وعلوم الطبيعة ، إلى جُنديسابور مركز الطب والصيدلة ، إلى حرّان وشهرتها بعلم الفلك ، إلى الرها ونصيبين وقنسّرين وراس العـين وكلها مدارس لاهوتيه راقيـة موزعة بين مذهبي اليعاقبـة والنساطرة ، آخذة بالفلسفة والمنطق في سبيل دفع الحجة ودعم البرهان .

وكان طبيعياً ان يتأثر العرب بهذه المجاري ، وان يحاولوا نقل مـا

فيها من تراث . بيد ان عامل الحاجة صرفهم في أول عهدهم إلى ناحية خاصة من هذه العلوم يترجمونها . اهتموا منها بما يساعدهم على تنظيم الدولة سياسياً وادارياً ، وعسكرياً ومالياً ، وكان في نفوس الامم المغلوبة على امرها ظمأ لنشر تاريخها وثقافتها بدافع من مباهاة واعتزاز ، أو بباعث من ثقافة ونفع فظهرت الترجمات في تواريخ الدول وسير الملوك ، وفي الحساب والطب والفلك والهندسة .

ثم كانت المناقشات بين الفرق والبدع ، وبين علماء الاسلام وأهل الذمة وإذا بالحاجة ماسّة إلى منطق ارسطو واشراق افلوطين ، فنقلت الكتب الفلسفية . ثم لم يلبث دافع المنفعة ، ان اختفى أمام الرغبة الملحّة تنبعث في النفس فتطلب المعرفة للمعرفة ، لا قصداً لفائدة عملية أو وسيلة لمآرب .

وقد مرّت الترجمة بعهدين مع بني امية وبني العباس . أما العهد الاموي فحركة النقل فيه محدودة . انها « محاولات فردية » يقدم عليها الراهب اسطفانوس بناء لرغبة تلميذه خالد بن يزيد ؛ فيترجم عن اليونانية كتاباً في الكيمياء ، هو حسب قول ابن نديم « أول نقل في الاسلام » . أو ينشط سالم كاتب هشام في نقل رسائل ارسطو إلى الاسكندر ، ويعمل ماسرجويه وزملاؤه في ترجمة عدد من الكتب الطبية لمروان بن الحكم وعمر بن عبد العزيز . واذن فقد ظلت الترجمة مقصورة على بعض العلوم الطبيعية دون أن تتعدى ذلك إلى العلوم العقلية كالمنطق وعلم النفس وما وراء الطبيعة . ذاك انه – كما جاء في طبقات الامم لصاعد الأندلسي – كانت العرب في صدر الاسلام « لا تعنى بشيء من العلم الا بلغتها ، حاشا صناعة الطب لحاجة الناس طراً اليها ، ولما كان عندهم من الأثر عن النبي ﷺ في الحثّ عليها حيث يقول : « يا عباد الله تداووا ، فان الله عزّ وجلّ لم يضع داء إلا وضع له دواء . إلا واحداً وهو الهرم » .

في العصر العباسي : عهد ذهبي

وادال الله للعباسيين ، فازدهر النقل معهم حتى بلغ عهده الذهبي ، واتّسع افقه فامتد إلى مختلف العلوم في لغات كثيرة ، وخضع لتنظيم دقيق صار معه « عمل امة لا عمل افراد » . وتوفرت له اسباب ساعدته على الازدهار . منها : الطمأنينة والدعة بعدعهد المغازي والفتوح وتغلّب اللغة العربية على الالسنة الاصيلة في مناطق الاحتلال .

ومنها انتقال الخلافة إلى العباسيين . ونفوذ الاعاجم في البلاط ، وميلهم إلى إغراق هذه الدولة « الاعجمية الخراسانية » كما يدعوها الجاحظ ، بألوان من ترفهم وحضارتهم .

ومنها رقيّ السريان الفكري الذي وفّر عنصر النقلة من اليونانية والسريانية إلى العربية ، مع أمثال حنين بن اسحق وقسطا بن لوقا ومدرستها .

ومنها تشجيع الخلفاء ، وبخاصة المأمون الذي بنى داراً في بغداد عرفت « ببيت الحكمة » والحق بها مكتبة ومرصداً ، ومدرسة ومعهد ترجمة « وأقبل على طلب العلم في مواضعه فداخل ملوك الروم واتحفهم بالهدايا الخطيرة ، وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة ؛ فبعثوا اليه بما حضرهم من كتب افلاطون وارسطاطاليس وابقراط وجالينوس وغيرهم من الفلاسفة ، فاستجاد لها مهرة التراجمة ، وكلّفهم إحكام ترجمتها وحضّ الناس على قراءتها ؛ فنفقت سوق العلم في زمانه وقامت دولة الحكمة في عصره [1] » . وجارى الامراء والوزراء ، خلفاء المسلمين في هذا العمل فكان عند البرامكة وآل الفضل والفتح بن خاقان طائفة من مشاهير

١ ـ طبقات الامم ص ٤٧

المترجمين تنقل الكتب في شتى العلوم ، ومختلف اللغات .

وكان لهذه الترجمات أثر عميق في النشاط العقلي عند العرب ، ظهر في اللغة والشعر والتفكير .

في اللغة ، مرنت العبارة وانتقلت من الايجاز إلى التفصيل ، فاذا هي صالحة للتعبير عن الرياضيات والفلسفة والطب والمنطق ، وإذا هي مع سيبويه وابن فارس مركّزة على قواعد علمية ثابتة تأخذ من ارسطو معلماً وهادياً [١] ، وإذا بها غنية بالمفردات الجديدة من دخيلة ومشتقة تكثر في اسماء النبات والأدوية والحيوان والجواهر والمآكل والآلات ، بالاضافة إلى مصطلحات الفلسفة والعلوم .

والشعر ، بعد ان كان غنائياً وجدانياً ، أصبح في العصر العباسي حافلاً بالمرامي الفلسفية والتعابير الخاصة . نعرف فيه التهتك والزندقة مع « عصابة السوء » كأبي نؤاس وبشّار ، وحمّاد ووالبة ، وخلف ومطيع ؛ ومذهب الشك والانكار وفلسفة الوجود مع أبي العلاء ؛ ونفحة الزهد المنظم المذهب مع أبي العتاهية ؛ ومواجد التصوف باختلاف مبادئه مع ابن الفارض وابن عربي والحلّاج ؛ ومصطلحات المنطق والفلسفة مع ابي تمام الذي رافق الترجمة واخذ منها دون هضم أو تمثّل .

والفكر العربي ، اكتسب دقة وتنظيماً ، واتّجه وجهة علمية تظهر مع الخوارزمي وابن حيّان ، وفي كتب الفقه والبلاغة التي تسودها روح الضبط والتسلسل والقياس والبرهان ، بعد ان كانت مزيجاً من معلومات شتى ومصادر متعددة دون ترتيب أو تعليل . كما اتجه ناحية المنطق ، فقامت ثورة فكرية على التقليد تخوف منها الفقهاء والمتكلمون حتى قالوا : « من تمنطق شهراً تزندق دهراً » . ولكن ذلك لم يمنع

١ - « قال ارسطو : ان الزمان والمكان كالوعاء للأشياء ... وهذا أصل تسمية النحويين للمفعول فيه ظرفاً أي وعاء » محاضرات غويدي ص ٨٥ .

المفكرين من الأخذ بنتاج العقل اليوناني كما عرفوه في ترجمات السريان ، ومن محاولة التوفيق بينه وبين تعاليم دينهم . ومن هنا نشأت فلسفة الانتقاء والوفاق التي صبغت الفكر العربي في كل عصوره وبقاعه مع كبار قادته في المشرق والمغرب كالفارابي وابن سينا ، وابن طفيل وابن رشد وغيرهم .

ويغالي بعض المستشرقين في تقدير هذا الاثر حتى ليقول ارنست رينان : « ليست الفلسفة الاسلامية سوى فلسفة اليونان القديمة مكتوبة بحروف عربية » . ويقول غيره : لم يكن العرب سوى نقلة وحفظة للفكر الاغريقي . أما دي بور ، فعلى اقراره بعمق الاثر اليوناني ، لا ينكر الشخصية العربية في كتابه تاريخ الفلسفة في الاسلام : « ظلت الفلسفة الاسلاميه طول حياتها فلسفة انتخابية قوامها الاقتباس مما تُرجم من كتب الاغريق ، ومجرى تاريخها ادنى ان يكون استمداداً من معارف السابقين لا ابتكاراً ... ولكن كان في الاسلام رجال وهم وان اتشحوا برداء اليونان فإن هذا الرداء لا يخفي ملامحهم الخاصة »

في عصر النهضة : جهد لبناني

وعى الشرق العربي نفسه بعد خمسة قرون من الخدر العقلي عهد المماليك والاتراك ، فإذا هو مغلق على ذاته ، متخلف عن ركب الحضارة ، متأخر في قرنه التاسع عشر عما كان عليه في القرن التاسع مع الرشيد والمأمون ، منكمش على ثقافة وعلم لا يغنيان في زحمة الحوادث ، ولا يرفعان في بناء الامم عماداً .

ادار وجهه شطر الغرب ليرى عمراناً جديداً اساسه العلم والاختراع، وثقافة صاعدة هدمت تراث الاقدمين وبرزت بصنوف والوان من القيم الخصب في مجامع الفن والجمال . ولا سبيل لوصل لغة العرب بحضارة اوربا دون وسيط، ولا وسيط إلا في لبنان . لأن اللبناني كان منفتحاً على الغرب آخذاً بلغاته، بفضل بعثاته العلمية إلى العواصم الاوربية، وبفضل الارساليات الأجنبية والمدارس الوطنية التي كانت تلقن فيه عدة لغات معاً .

وجبهت كل ناشط للتعريب، حلقات من المصاعب أثارها خلوّ العربية من مصطلحات العلم والصناعة الحديثة، وطبيعة اللغة العربية بالذات . لانه إذا اكتفى بان يعبر عن الاسماء بما يدل عليها أو بما يقاربها ويدخل تحتها أو بما يجمع بينه وبينها علاقه من علائق المجاز، فانه لا يجوز في الافعال ان يعرّب شيء منها بلفظه . ذاك ان للافعال عندنا ابنية مخصوصة وصيغ اشتقاق تابعة، من مصدر وصفة مشبهة، واسمي فاعل ومفعول، واسمي زمان ومكان، وصيغ مبالغة، وكلها قوالب وأوزان لا تجد اللفظة الأعجمية سهولة وطواعية في تلبسّها .

وقد صور هذه الحالة الشيخ ابراهيم اليازجي في مقالة بمجلة الضياء : « أصبح الكاتب مضطراً إلى وضع مئات بل آلاف من الاسماء التي لا يجد لها رديفاً في لسانه ولا في وسعه نقل تلك الألفاظ بصورتها إلى لغته لشدة التباين بين طبيعة هذه اللغة ولغات اولئك الاقوام ... ولا يمكن ان تدس اللفظة الاجنبية بينها (الألفاظ العربية) إلا بعد أن تجانسها وتؤاخيها . »

أما أحمد فارس الشدياق، فقد عبّر عن مشاق التعريب ونكده باسلوب شعري لا تعدوه الواقعية :

وَمَن فاتَهُ التعريبُ لم يدرِ ما العَنا ولم يَصلَ نارَ الحربِ إلاَّ المُحارِبُ
أَرَى الفَ معنىً ما لهُ من مُجانسٍ لَدَينا ، والفاً ما له ما يُناسِبُ
والفاً من الالفاظِ دونَ مُرادِفٍ وَفصلاً مكانَ الوصلِ ، والوصلُ واجبُ
وأُسلوبَ ايجازٍ اذِ الحالُ تَقتَضي اساليبَ إطنابٍ لِتُوعَى المطَالِبُ
فيا ليتَ قَومِي يعلمونَ بأَنـــني على نَكَدِ التعريبِ جَدِّيَ ذاهبُ

وما كانت هذه المشاق لتفتّ في عضد اللبنانيين . فهبوا إلى الالفاظ العربية ينحتونها . والى المدلولات الاعجمية يوسّعونها وطلعوا على اللغة بمصطلحات فرضت نفسها على الاقلام « حتى عدَّت وكأنهـا من متن اللغة الاصلي » جاء عند الشدياق امثال لفظ : الجريدة ، والمؤتمر ، والحافلة ، والمنطاد ، والسلك البرقي ... وعند الشيخين خليل اليازجي ونجيب الحداد : الجواز ، والردهة ، والقفاز والصحافة ... وعند سعيد الشرتوني ويعقوب صروف : العاديات ، والقطار والقاطرة ، والمصح ، والصلب والنشوء والارتقاء ... وعند ابراهيم اليازجي : المجلة Revue ، والمقصف Buffet ، والبائنة Dot ، والتبليد Acclimatation ، والطلاء Vernis ، والشعار Armoiries ، والشحنة Police ، والمقصلة Guillotine وغيرها وغيرها من المعربات . ومع مشكلة التعريب ، واجـه الشيخ ابراهيم مسألة النطق بالكلمات الاعجمية ، فرأى ان تلفظ على أصل مخارجها ، ووضع لذلك حركات خاصة حفرها وامهات الحروف العربية بشكل جميل .

وأخذ الكتّاب مع نهضة الصحافة ينقلون بحوثهم عن الاجانب ، تارة ترجمة حرفية واخرى اقتباساً . فكان من نتيجة ذلك ازدهـار المقالة

العلمية مع يعقوب صروف في « مقتطفه » وابراهيم اليازجي في « ضيائه [١] » وظهور الفن المسرحى مع مارون نقاش في « بخيله » ، وانتشار القصة مع طانيوس عبده في « راويه » ، وتتويج حركة التعريب بأضخم محاولة مع سليمان البستاني في « الياذته » .

---

١ - يراجع : مجلة الضياء لابراهيم اليازجي . سنتها الثانية ١٨٩٩ - ١٩٠٠ النشرة الاولى من محاضرات الندوة اللبنانية : امين نخله في « الحركة اللغوية في لبنان »

البستاني والتعريب

حكاية التعريب

الناس أمام كل فكرة كبيرة فئتان : واحدة تقيس العمل بما يفرضه من صعاب ، وتهولها الموازنة فتنقلب الفكرة لديها امنية خائبة ما كتب لها النجاح لان قسطها من الشدائد فوق قسط صاحبها من الهمّة والطموح . والثانية لا تجد لذة في العمل ولا سخاء في الكدّ ، إلا بقدر ما تذلّله من عقبات ، فكأنما الصعب لها مشحذ عزيمة ومضاء ، كالجواد الكريم يرتاح الى طول المدى وينهد اليه .

ومن هذه الفئة الآخيرة كان مترجمنا البستاني .

ملكه منذ الصغر ميل إلى مطالعة الشعر القصصي والخياليات ، فعمد الى منظومات الاقدمين في هذا الباب يقرأها بلغاتها او بترجماتها وفق ما يساعده الاطلاع . وازداد اعجابه بالالياذة [1] التي وان تكن

---

[1] الالياذة ملحمة للشاعر اليوناني هوميروس بناها على « غيظ أخيل او احتدامه » . تقع في اربعة وعشرين نشيداً بما يقارب الستة عشر الف بيت من الشعر اليوناني القديم على وزن سداسي يعرف بالـ Hexa mètre تكثر فيها الخوارق وتدخل الالهة ، وتتناول حوادثها اياماً قلائل من السنة العاشرة لحصار اليونان

اقدمهن عهداً « فهي لاتزال احدثهن رونقا ، وابهرهن رواء ، واكثرهن جلاء واوسعهن مجالاً ، وابلغهن جميعاً . نسج صفوة الشعراء على منوالها فلم يبلغوا شأوها ، واستقوا من بحرها فملأوا بجارهم ولم ينقصوها شيئاً [١] » .

وناجته النفس بتعريبها ، ليضم إلى روائع الأدب العربي سفراً نفيساً قامت دونه الحوائل في عهد بني العباس ، وحق له أن يطلق اليوم من عقاله . ولكن الطريق طويل ، والمسالك وعرة ، ونفقات النشر باهظة ، وقراء العربية لا ينشطون إلى مثل هذه المجازفة . على أن ذلك كله ما جزعت له نفس البستاني وفيها ما يستسهل الصعب في سبيل أمر عقدت عليه العزم . ورحم الله شاعر حلب إذ يقول : وتصغر في عين العظيم العظائم .

عاصمة الطروادين ، في الحرب التي شنها الاغارقة لاسترجاع هيلانة زوجة منيلاوس ملك اسبرطه ، بعد ان فتنها فاريس بن فريام ملك طروادة وفر بها الى بلاده .

وينشب خلاف - وهنا تبدأ المنظومة - بين أخيل « عنترة الاغريق » واغا ممنون زعيم زعمائهم ، على سبية جميلة وقعت في سهم البطل فانتزعها منه الزعيم . وكاد أخيل ان يبطش به لولا ان اثينا الهة الحكمة وحامية اليونان ، هبطت من الاولمب وصدته عنه ووعدته باسم هيرا زوجة زفس رب الارباب ان تنيله « جبراً بعد ذا الكسر » . واعتزل أخيل وعشيرته المرامدة القتال ، فانخلعت قلوب اليونانيين لغياب « حصنهم » ، وملكتهم هيبة هكطور بطل طرواده الذي انزل بهم النكبة تلو النكبة وكاد ان يحرق سفائنهم ويردهم خائبين . واخفق رسل اغا ممنون بما يحملونه من عروض مغرية في ترضية أخيل وجره الى المعركة ، ولكنهم حركوا وطنية صديقه فطرقل الذي انتحب كالطفل لبؤس قومه ، فقلده أخيل سلاحه واذن له بقيادة عشيرته للقتال . وابلى فطرقل احسن بلاء ، ولكنه خر صريعاً أمام هكطور الذي سلبه شكته . وعظم الأمر على أخيل فتحولت نقمته عن اليونانيين الى خصومهم وصالح اغا ممنون ، واغار على الطروادين فبطش بهم والجأهم الى الحصون ، وقتل بطلهم هكطور ومثل بجثته . ثم سكن غضبه ورق لتوسلات فريام الشيخ فدفع اليه بجثة ابنه القتيل .

١ - مقدمة الالياذة ص ٦٩ .

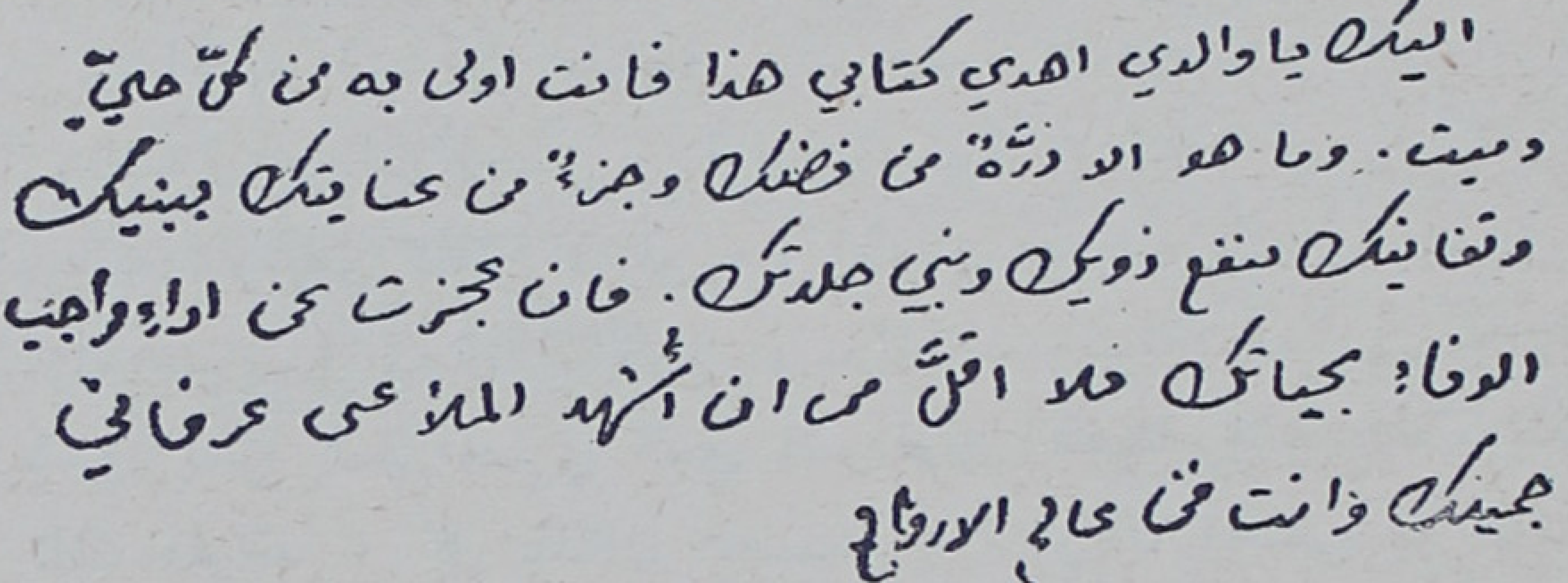
واذ كان يجهل اللغة اليونانية القديمة – لغة هوميروس – اعتمد ترجمات الالياذة إلى الفرنسية والانكليزية والايطالية . وباشر التعريب في اخريات سنة ١٨٨٧ في القاهرة . فنظم أول الامر ثلاث قصائد من أناشيد مختلفة (الأول ، والخامس عشر ، والثالث والعشرين) وعرضها على جماعة من رجال الشعر والأدب ، فوجد من التقدير والتشجيع – وبخاصة من صاحب المقتطف – ما زاده نشاطاً واندفاعاً . ولكنه ما كاد يصل إلى نصف النشيد الثاني حتى ظهرت فروق بين الترجمات صعب معها تبيّن الرجحان لنسخة دون اخرى . فاوقف النظم معتبراً أن النقل الصحيح لا يؤخذ من غير منبعه . واكبّ على درس اليونانية مع راهب يسوعي بضعة اشهر حتى إذا انس من نفسه قدرة على ورود الاصل ، استأنف التعريب . ودعاه السفر ، فكثر تطوافه ، مدى تسع سنوات ، بين الشرق والغرب : من العجم والهند ، إلى سوريا والعراق ، إلى اوربا وامريكا والاستانة . وكان بديهياً ان لا يفرغ للالياذة إلا في ساعات فراغه من العمل . وربما مرت الاسابيع دون أن يتمكن من النظر فيها ، حتى إذا عاد اليها كان ذلك « في رؤوس الجبال وعلى متون البواخر وقطارات سكك الحديد ، فهي بهذا المعنى وليدة أربعة أقطار العالم ... وظللت – يقول البستاني – بين وقوف ومسير إلى أول صيف ١٨٩٥ فخرجت بعائلتي [١] إلى مصيف فنار باغجه في ضواحي الاستانة ، وظللت فيها اربعة اشهر فرغت في نهايتها من عناء التعريب [٢] »

وانصرف إلى اعداد الشرح ، بيد ان عوامل هامة حالت دون انجازه ، منها اشتغاله باصدار الجزءين العاشر والحادي عشر من دائرة المعارف ، ومنها اعتلال في الجسم لزمه عام ١٩٠٢ لدى مباشرة الطباعة ،

١ ـ كان البستاني قد تزوج اثناء وجوده في العراق من مريم ابنة سربوس البغدادي .

٢ ـ مقدمة الالياذة ص ٧٢

وحمله بعد اشهر إلى لبنان حيث قضى فصل الصيف ووضع المعاجم والملاحق وقسماً من المقدمة . حتى إذا عاد إلى القاهرة نشر الالياذة في مطابع الهلال ربيع سنة ١٩٠٤ ، ورفعها إلى روح شيخ مهيب ظهر رسمه في صدرها مع هذا الاهداء :


اليك يا والدي اهدي كتابي هذا فانت اولى به من كل حي
وميت . وما هو الا ذرة من فضلك وجزء من عنايتك ببنيك
وتفانيك بنفع ذويك وبني جلدتك . فان عجزت عن اداء واجب
الوفاء بحياتك فلا اقل من ان اشهد الملأ على عرفاني
جميلك وانت في عالم الارواح

اهداء الالياذة بخط المؤلف

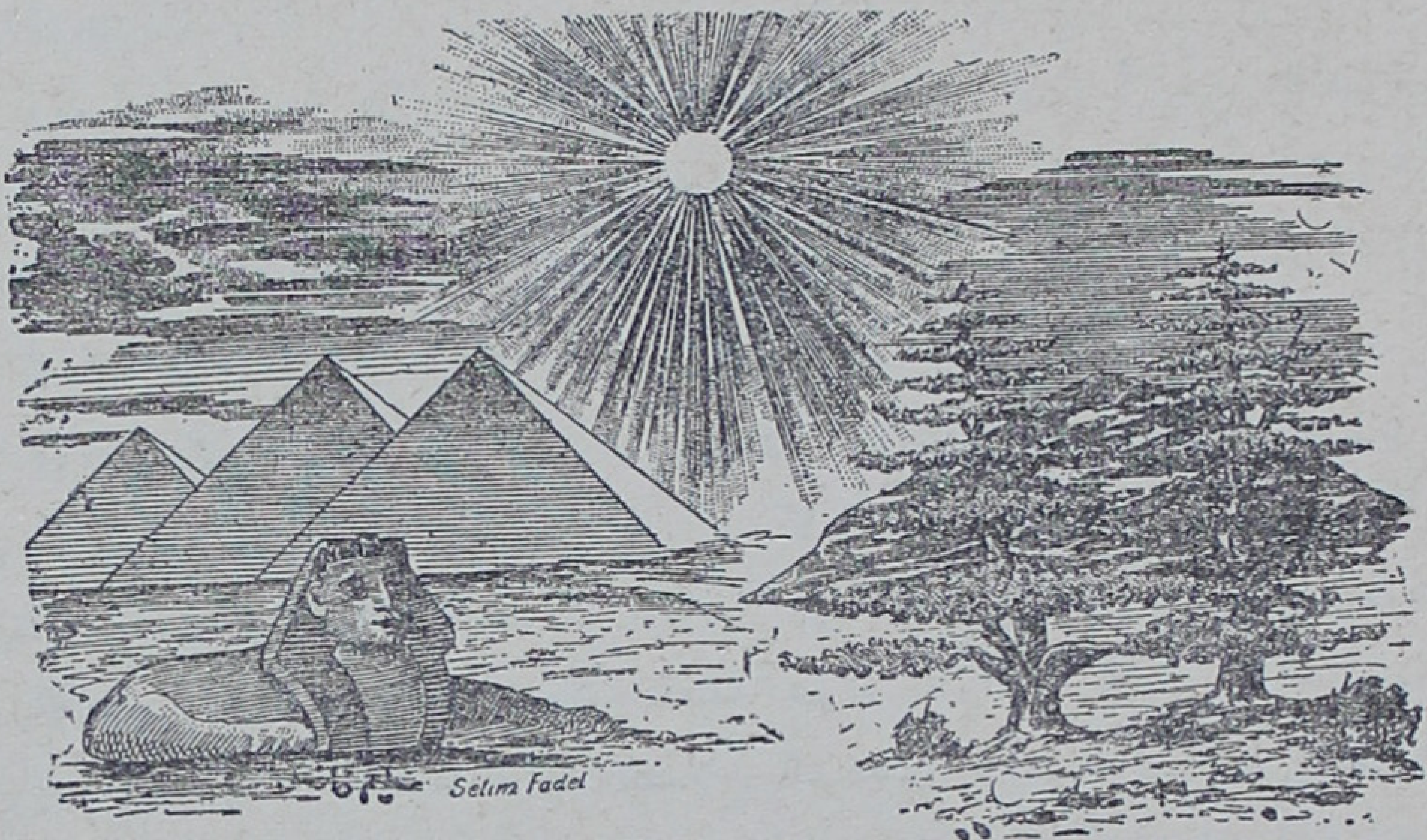
واستقبل الادباء في مصر والاقطار العربية ، هذا الأثر الجليل ، على انه حدث القرن في عالم الادب . فافردت المجلات والصحف ابواباً في درسه وتقريظه ، وتنادى ذوو العلم والوجاهة إلى تأليف لجنة تعنى بتكريم المعرب في مهرجان كبير اقيم في فندق شبرد مساء الثلثاء ١٤ حزيران ١٩٠٤ . وكان هذا المهرجان الاول من نوعه في بلاد العرب ، اشترك فيه عشرات من قادة الفكر والعلم ، والسياسة ورواد النهضة الحديثة ، أمثال : محمد عبده مفتي الديار المصرية . وسعد زغلول ، واسماعيل صبري ، وعبد الخالق ثروت ، وعمر لطفي ، واحمد شوقي ، وخليل مطران ، وحافظ ابراهيم ، وابراهيم اليازجي ، ويعقوب صرّوف ، وفارس نمر ، وجرجي زيدان ، وجبرائيل تقلا ، وداود بركات ، وشبلي

شميل ، وغيرهم ... وقدمت جريدة الاهرام لوصف هذه الحفلة بقولها : « ابتسم ثغر العلم في ليلة امس ابتسامة ما عرفناها منه قبل امس تحت سماء الشرق . إذ اجتمع في فندق شبرد تسعون وجيهاً وعالماً واديباً يحتفلون بالعلامة البستاني مؤلف دائرة المعارف وصاحب الالياذة العربية التي ظهرت منذ عهد قريب ظهور الكوكب الدرّي في عالم الادب ، فابرقت اسرّة الادباء والفضلاء بشراً لها . وكان بروزها كالروح الحية ترسل في الجسد الساكن منشطة ... حضر المدعوون في الساعة الثامنة تماماً والفندق مزدان احسن زينة وابهاها ، تتلألأ في واجهته الانوار الكهربائية . وتتدلى تلك الانوار من اشجار حديقته الشماليه بالوان مختلفة واشكال متباينة تروق الناظرين . والموائد منسقة خمساً بين الزهور والرياحين بظل العلم المصري الذي نشر فوق الحديقة ، فاختلف المدعوون إلى تلك الموائد ، كل بالمكان المعد له . وكان المحتفى به جالساً على المائدة الاولى وإلى يمينه سماحة السيد توفيق البكري نقيب الاشراف وشيخ الطرق الصوفية ، والدكتور يعقوب صروف ؛ وإلى يساره سعادة إسماعيل باشا صبري وكيل نظارة الحقّانية ، والعلامة الشيخ ابراهيم اليازجي » .

وامام كل من الحضور ، دليل تضامن وإخاء هو بطاقة رسم عليها الهرمان وابو الهول وجبل لبنان وارزتان من ارزه ، وشمس المعارف فوقها تفيض شعاعاً جامعاً بين شعاري مصر ولبنان ، مع ابيات من الشعر شارحة :

حُيِّيتَ يا وطناً تَصبو القُلوبُ إلى أَرجائِهِ وبِهِ الأَرواحُ تَغتَبِطُ

شمسُ المعارِفِ في علياهُ جامِعةٌ أَطرافَهُ ، وَهْيَ فيما بَينَها وَسَطُ



فَفِي ذُرى الأرزِ حبلٌ من أَشِعَّتِها يُلْقَى. وَحبلٌ على الأَهرامِ يَنْبَسِطُ

أُصُولُ التَّعريب

لمحة قاسية من النقد الرصين يوجهها البستاني إلى بعض منتحلي فن التعريب قبل ان يشرع بعرض مسلكه فيه. لقد ابتدعوا لانفسهم أصولاً جرت معها أقلامهم وفق ما يريدون هم، لا ما يريده الواضع. فأصبحوا بين متصرف بالاصل أو ماسخ، ومتسرع بالنقل أو عاجز، ومغير على الأثر الأجنبي ينقله كله أو بعضه ثم يعرضه على الناس حصاداً من نتاج عبقريته «ويقوم هؤلاء الكتّاب ويسمّون ما كتبوا تعريباً وأولى بهم أن يسموه تضميناً أو اختصاراً أو معارضة أو مسخاً» أو

سرقة جريئة .

ويعرّج على مترجمي الفرنجة ، فينكر عليهم ضروباً من التصرف الغريب فيما يقدمون عليه من حذف أو اضافة حتى ليحوك أحدهم من أربعة أبيات لهوميروس ، اربعاً وثلاثين بيتاً ضمّنها من الصور والمعاني ما لم يمر ببال صاحب الالياذة .

أما معرّبو العرب فقد تبعوا في النقل طريقتين : الحرفية ، والمعنوية . تقوم الأولى بأن ينظر الناقل إلى كل كلمة من مفردات الأصل ويأتي بلفظة عربية ترادفها . وترتكز الثانية على تحصيل معنى الجملة أو المقطع في الذهن ، والتعبير عنه بجملة تطابقه سواء ساوت الألفاظ أم خالفتها . ويرى البستاني – متابعاً بذلك الصلاح الصفدي – أن هاتين الطريقتين هما المعوّل عليهما في النقل حتى يومنا . ولكنه يعتبر الأولى لغوية مدرسية تصلح لطالب اللفظ دون المعنى ، ولذا درج عليها كتاب الافرنج في التآليف الرامية إلى تعليم اللغات . وفائدتها مضمونة شرط ان يكتب الأصل إلى جانب التعريب ، وان يكون بازائه ترجمة أخرى تكشف عن غوامض المعنى ، فهي من الناحية الأدبية « لا طلاوة فيها ولا احكام ولا إعراب ولا انسجام » – أما الطريقة الثانية فانها ترسم المعاني رسماً صحيحاً ، وتنقلها بلغة سليمة « فاذا قرأ المطالع فيها كتاباً معرباً فانما هو يقرأه عربياً ولا يقرأه اعجمياً » . وقد تبع صاحبنا هذه الطريقة في تعريبه الالياذة ، مع محاولته البقاء في حدود سابقتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وأهم ما يطالعنا في مسلكه :

تحرّي الصدق والامانة على دقة وإحكام . فقد حافظ على المفردات والصور والمعاني ؛ ما حذف لفظة إلا اذا كانت من المكررات التي لا تحسن في لغتنا ، او من الكنى والالقاب التي يمكن الاستغناء عنها . أو

من النوافل التي يسهل استخراجها من سياق المعنى : « وطنّت النفس على أن لا أزيد شيئاً على المعنى ولا انقص منه ، ولا أقدّم ولا أؤخر ، إلا فيما اقتضاه تركيب اللغة ... وان قدمت أو أخرت فكل ذلك في فسحة قصيرة يقتضيها السبك العربي ، وكان هذا أعظم قيد قيدت به نفسي [1] »

واجتناب حوشي الكلام ليظل في فهم المطالع ووعيه . فهو إذا اثبت لفظة لغوية عويصة فلأنها وضعية لا يمكن استبدالها ، أو قافية لا يسهل العدول عنها ، أو تعبير ليس له ما يفضله .

والاهتمام بالالفاظ التي لا مرادف لها بالعربية . فكان مرة يرجع الى معنى اللفظة اليونانية فيعرّبها بما يرادفها او يقاربها عند العرب كالقيان لربّات الغناء والكوثر لشراب آلهة اليونان ، والعنبر لطعامهم . ومرة يسمي الموصوفات العلوية بما ينطبق عليها في العربية : فالاهة الفتنة ، فتنة ، وإله الشقاق ، شقاق ... الخ .

ومراعاة النبر في اللفظة وموسيقاها . وغالباً ما يظهر ذلك في الاعلام التي حافظت على الاصل اليوناني مع مراعاة صحة اللفظ العربي الذي اقتضى بعض المد او البتر كفوذيس بدل فوسيذون ، وطفطام بدل طفطاميوس وآرس بدل آريس .

واختيار التراكيب الوضعية . فقد ورد في الالياذة طائفة من النعوت اللاصقة بالابطال كوصف أخيل بخفة القدم ، وهكطور بهزّ الخوذة . فصاغها البستاني بما يجمل بميزان الذوق والشعر كقوله في هاتين الصفتين مثلاً : طيّار الخطى ، وهيّاج التريكة .

وتخريج الحروف التي لا مقابل لها . فليس في اليونانية طاء وقاف ، وصاد ودال ، كما انه ليس في الهجاء العربي أحرف مشدّدة أصلاً كالباء (P) أو الـ (V) – وقد سد هذا الفراغ بما يضمن له جمال الاخراج

١ – مقدمة الالياذة ص ٧٧ و ٧٨

على موسيقى لفظية بارعة . فبدأ بالفاء بدل P في فطرقل وفريام ، وجعل الباء بدل الفاء في اولمب وما اليها .

والتنبّه إلى تحريف النساخ وتصحيفهم ، لدى الاعتماد عليهم وبخاصة فيما يتعلق باسماء الاعلام الاعجمية . إذ كثيراً ما نقرأ فيلفوس ، وفيلنوس ، وفنلتوس ، ويكون المراد فيلبُّس ابا الاسكندر . أو نقرأ بودنطه ، وثيرنطه ، وبيريظه والمقصود بيزنطه . أو يجبهنا لدى المؤلف الواحد مرة اسم انطياقوس ، واخرى اسم ابطيحش ، والمراد في الحالين انطيوخس . وربما تحوّل الفكر من علم مشهور إلى آخر يضارعه شهرة فتضيع الفائدة كجعلهم بولس بدل يوليوس قيصر ، أو غير ذلك من اخطاء .

وهو في كل ذلك يتوخى البساطة فيما يكتب ، والوداعة في تقدير عمله ، دون أن يستفزه زهو مشروع أو يعتريه غرور . فاذا ذكر مسلكاً حققه في الترجمة أشار إلى ذلك بكثير من التواضع ، مستعملاً المفردات التي تحصر هذا العمل وتخفف من أهميته : كبعض ، ويحسن... « راعيت هذا الترابط في بعض الأناشيد ، فأدت تلك المراعاة الى فائدة يحسن التعويل عليها في بعض الأحوال » واذا عرض لسلامة التعريب ودقته ، فعل ذلك بمثل قوله : « واني ابرأ إلى الله من العصمة .. وجلّ ربك وليّ العصمة والسداد »

النظم في التعريب

صعب على المعرب أن يتناول بالنظم ستة عشر الف بيت ، ينقلها إلى لغة ما عرفت المنظومات الطوال ، ولا تحررت تماماً من

وحدة الوزن والقافية . وكان الامر يهون لو خلا التعريب من الأسماء الأعجمية التي تختلف مخارجها وموسيقاها عن اسماء العرب ، وتزخر بحروف ما وجد لها في اللغة العربية قرين . وهذا ما دفع البستاني إلى وضع دراسة موجـزة على شمول ، في استيعاب الاوزان وضرورات القوافي ، يبسطها في المقدمة ويحققها في النصوص . فاحدث بذلك قواعد جديدة تزيد الشعر رونقاً وطلاوة .

الاوزان : فهو في سرده الحوادث وتدوين الاخبار ، يعمد الى البحر الطويل لانه يستوعب من المعاني والصور ما لا يقدر عليه غيره من البحور ، ويتسع للفخـر والحماسة والتشابيـه والاستعارات . وبهذه الصفة كثر استعماله في قصـائد المتقدمين من شعراء العرب وفي المعلقات . وقريب منه الوزن البسيط ، يقصّر عنه ليناً في التصرف بالتراكيب ولكنه يفوقه رقة وجزالة مما جعل المولـّدين يأنسون إلى الأخذ بـه .

واذا كان لا بد من ليانة ورقـة على موسيقى وجمال وقع ، فليس اطوع من البحر الوافر ، يرقّ ويشتد دون عناء . ويسهل في كل حال على الحفظ . ويتوفـق في تحريك العواطف في مـادتي الفخر والرثاء . يشاركه في ذلـك البحر الخفيف الذي هو « اخف البحـور على الطبع واطلاها للسمع يشبه الوافر ليناً ولكنه اكثر سهولة واقرب انسجاماً . وإذا جاد نظمه رأيته سهلاً ممتنعاً لقرب الكلام المنظوم فيه من القول المنثور ، وليس في جميع بحـور الشعر نظـيره يصلح للتصرف بجميع المعاني » . اما الكامل فهو اتمّ الابحر السباعية ، يتسع لكل نوع من أنواع الشعر فيكثر في نتاج المتقدمين والمتأخرين ويقرب إلى شدة الأسر ، ويجود في الخبر والوصف . ويبرز الخبب والرمـل : الاول منهما مجزأ موقـّع ، أخذ عن خبب الخيـل فهو أفضل ما يصور به زحف الجيش

أو وقع المطر والسلاح . والثاني ، عذب رقيق تسهل فيه الترجمة عن خوالج النفس وما يعتريها من حزن وفرح ولهو ووجدان ، ولهـذا كان آلة طيّعة بيد الاندلسيين يصرّفونه في ضروب من النظم ، ويخرّجونه في فنون من التوشيح .

القوافي: القافية في الشعر العربي رنّة وحلية . وإذا صلح الشعر في بعض لغات الغرب بدونها ، فإنه يخسر الكثير من روائه وايقاعه إذا تخلى عنها في الادب العربي . فلكلّ لغة خصائص ، ولكل طريقة جمال ، وما كانت القافية في انشاد الجاهليين سوى قرار للنغم ، يتموّج به البيت ويرتاح في نهايته على انسجام في كل وقفة وترديد . وهذه الرنة الموسيقية ، وموافقة الروي لاغراض النظم ، تقتضي براعة من الشاعر يرشد اليها الذوق السليم والسليقة المرهفة . وإذا كان حرف القاف مثلاً يفضل في الشدة والحرب ، والجيم والدال في الفخر والحماسة ، والميم واللام في الوصف والخبر ، والباء والنون في الغزل والرثاء ... فانما ذاك قول اجمالي يجوز غالباً ولا يصح اطلاقاً ، لان مناحي التحوّل من نغمة إلى أخرى في قافية الحرف الواحد اكثر من ان تحصى . فنغمة الراء مضمومة تختلف عنها مكسورة ومفتوحة ، ورنتها في بحر تختلف عنها في بحر آخر ... والمعاني الشعرية كاللآلىء المنثورة لا مرشد إلى احسان نظمها في سمطها خير من سليقة الناظم [١] .

بيد ان هذا الاتساع بالذات في مدلول القوافي واختلاف وقعها ، يحمل في طياته تضييقاً على الشاعر الذي يلفي نفسه امام فيض من امكانات يصعب عليه أن يفاضل بينها ويختار . وما يجدر به تجنبه ، هو طرق القوافي الصعبة الضيقة إذ تقوده إلى استعمال الكلام الوحشي والمهمل ، فتغلق عبارته ويعروها التكلف ، ويعسر عليه التصرف

١ ـ مقدمة الالياذة ص ٩٧ .

بالمعاني ، مما يجعله يحوّر البيت في سبيل القافية « مع ان الغرض من القافية ان تكون تتمة للبيت مندمجة في معناه . فاذا كره في القافية وهي كلمة واحدة ان تكون حشواً للبيت ، فكم يكره ان يكون جميع البيت حشواً للقافية [١] » .

تَصْوِيرُ الانفِعَالاتْ

وقد استطاع البستاني ان يتغلب على الكثير من هذه الصعاب . فينوّع النظم على طرق شتى ، منتقلاً في النشيد الواحد من وزن إلى وزن ومن قافية إلى اخرى ، على تساوق عجيب بين البحور والاغراض . فبينا هو في النشيد السادس مثلاً يقص في ساحة القتال تعارف بطلين ومذاكرتهما بطريقة رجز يجود في وصف الوقائع وايراد الأمثال والحكم ، إذ به ينتقل إلى الموشّح المثمن مع لقاء هكطور زوجه وولده . فيرسم لنا صورة من الحنان الوالدي والعاطفة الزوجية قلّ ان تصدر عن شاعر لم يمتزج على عمق واخلاص بحالة ابطاله . وقد ساعده هذا النسق من التلاعب بالاوزان والقوافي على تصوير جيشان النفس وما يصطرع بها من تقلقل يهزها بين مختلف العواطف والميول : هياجاً وسكوناً وحزناً وفرحاً . وما أروع اندروماخ في وداعها هكطور وقد وقفت بين عاطفة تدفع بها لإمساكه عن القاء نفسه في التهلكة ، وواجب يفرض عليها ان لا تعبث بهمّته ورفعته ، فاذا بقلبها فياض بالحب والقلق ، يحدث بالمصير القاتم وما ينتظرها وابنها من هوان ، بشعر يبعث الرهبة ويثير الدموع :

---

١ ـ مقدمة الالياذة ص ٩٦ .

يا شَقِيَّ البَختِ ، ذا البأسَ الوخيمْ سوفَ يُلقيكَ بِلُجّاتِ الجحيمْ
وَلِيَ الإرْمالُ والطِفلُ يتيمْ ...

إنْ تَمُوتَنَّ ، الأسى يخلدُ لي وَعنا النفسِ ، وَدمعُ المُقلِ
لا أبٌ اسلو به ، لا أمَّ لي

. . . . أنت امي واخي . انت ابي
انت بَعلي ، انت كلُّ الأرَبِ

انت كلُّ الأهلِ لي اذ انتَ حَيْ آهِ فارحَمْ وانعَطِفْ رِفقاً عَلَيْ
آهِ فارفِق بي وبالطفلِ لدَيْ ...

ولكنها لا تلبث ان تعود إلى روعها ، فتصطنع الصبر والتجلد ، وتزوّده بالأمل والدعاء :

أنا لا أَطمَعُ ان تَأبى الوَغى وعنِ الهيجاءِ جُبناً تَستَقيلْ
فَلَكَ النَجوُ ، وللجيشِ الظَفرْ وَلِيَ السلوى . وللطفلِ الرَجاءْ

وتنفجر في صدر هكطور ، لهذه المناجاة ، نيران طالما حاول كتمها ، وتشفّ عن رؤيا أليمة مزعجة :

سَوفَ تَنْدَكُّ بأليونَ القِلاعْ وَتُوافِينا المُلِمّاتُ الفِظاعْ
كلُّ هذا مِنهُ قَلبي لا يُراعْ

لا إذا أُمِّيَ في التُربِ ثَوتْ أو أبي من دمِهِ السُمْرُ ارتَوتْ

او رميمَ الأخوةِ الأرضُ احتوتْ

لا إذا الطــرواد بادوا وإذا   خَرقَ الزرقاءَ للجوِّ العويــلْ

* * *

بَيْدَ أن الخطبَ كلُّ الخطبِ آهْ   ان تكوني من سَبِيّاتِ العِداهْ

تذرفينَ الدمعَ عن مــرِّ الحياهْ

تَستَقينَ الماءَ كالعبَــدِ الأسيرْ   من مِسيسٍ أو ينابيعِ هِفِيْرْ

تنسجينَ القطنَ والقلبُ كسيرْ

كلُّ بؤسٍ ، كلُّ رزءٍ وعَنَــا   كُلُّه . إن حلَّ ذا الرزءُ قليلْ

* * *

فَلَكِ الرِقُّ وانواعُ العذابْ   يا لُحُودَ الارضِ واريني التُرابْ

قبلَ ان يَدهَمني هذا المُصابْ

وأنلني ايّها الخطبُ البَــلاَ   قبلَما زوجِيَ للسبيِ تُنِيْــلْ

وكأنمــا خشي بطل طرواده ان يفتّ في عزيمته منظر زوجــه وولده إذا أطــال المكوث ، فنفر إلى مغفره يلبسه ، وإلى زوجه يشددها إذ « ليس موت قبل ادراك الاجل » وراح يطلب ساحــة القتال وهو يردد : « وانا الايقاع بالابطــال لي » . وتثور في نفس فاريس همة عارمة بعد ان عنفه هكطور برفق لتركه المعركة والعودة إلى جميلته هيلانة . فيهبّ إلى الحرب مستطير الجوانح :

بعُدَّةِ فولاذٍ تألّــقَ نورُها   جرى وَهْوَ بين الطُرْقِ كالبرقِ رامِحُ

كَمُهرٍ عَتِيٍّ فاضَ مَطعمُه على ... رِبابِطه يبْتَتُّها وهو جامِحُ
ويَضرِبُ في قَلبِ المفاوزِ طافحاً ... إلى حيث قلبُ الأرضِ بالسيلِ طافحُ

وهنا نرى البستاني يعدل عن الرجز والمثمن ، إلى البحر الطويل الذي يساعد بفخامته على الوصف وتبيان القوة والعظمة .

صُوَرٌ ملحَمِيّة

وفي النشيدين الثاني والثالث ، يصف تأهب الجيشين للنزال وزحفهما الى المعركة بما يخيل الينا معه اننا نسمع وقع خطى الابطال وسنابك الخيل وحمحمة الجياد من خلال وزن الخبب الذي يصطفيه ، والمفردات المعبّرة التي يختارها لدرجة نتساءل معها امترجم هو ينقل عن الغير ، ام خلاّق لبق يتلاعب بالصور « فيشتد موضع الشدة ، ويرقّ موضع الرقة ، يقف بك تارة ترقب العواصف والانواء وقد اكفهر الجو واضطرب اليمّ ومادت الجبال وزلزلت الأرض زلزالها ، ثم ينثني بك طوراً وقد هاج العاطفة واستنزل الحنان بالتمثيل النافذ والتشبيه السهل الممتنع [١] »

اي تمثيل لجيش يمور في السهل زاحفاً ، اصحّ من قوله وابرع في تتابع أحرف الشد والقضب والتنوين . وكلها تعبّر عن قوة الزحف وتقطيع الخطى العسكرية المنظمة :

١ ـ حافظ ابراهيم : جريدة الاهرام ١٩٠٤

نَظَمَ القوّادُ سُرَى الجُندِ بحِمَى الجيشينِ على الحدِّ
زَحَفَ الطُرواذَةُ عن بُعدِ بصديدٍ عالٍ مُشْتَدِّ
وَدَوِيٍّ يَقصِفُ كالرَعدِ

والسهلُ طوَوْهُ على الأَثَرِ والقَسْطَلُ من عجٍّ الزُمَرِ
قد أَضحَى حجّابَ البَصَرِ عن اكثرِ من مَرمَى حجرِ
ككثيفِ ضبابٍ مُرْبَدِّ

وهذه الصورة الثانية :

تمضي فيالِقُهُم في أدرُعٍ سَطَعَتْ فوقَ الرَقيعِ لأَعلى قُبَّةِ الجَلَد
كالنارِ مُلهِبَةً غاباً على جبلٍ والنورُ منبعثٌ منها على أَمَد
وللحوافرِ وقعٌ ، والنعالُ لها خَفقٌ يُفَتِّتُ جِسمَ الجلمدِ الأَجِدِ

* * *

وكأنَّ السهولَ طارَت شراراً بمسير الاغريقِ فوقَ السهولِ
رَجّتِ الأرضُ تحت وقعِ خُطاهُم رجَّ آريمَ يومَ هولٍ مَهولِ
زَعقاتٌ من دونهِن صديدٌ بعجيجٍ وهيعةٍ وصهيلِ

انها تخلق فينا جواً من الامتلاء الشعري يسيطر عليه نفس ملحمي رائع بخيال رحب ملوّن قلما عرفناه مع غير ابي الطيّب ، فنمر بلمحات من الشاعرية الحقة تجعلنا واثقين من أن صاحبها لو لم يترجم الياذة هوميروس لترك في الأدب العربي ملحمة من وضعه لا تقصّر عن الملاحم

العالمية فناً وابداعاً .

ولا شك في ان هـذه اللمحات الكثيرة المتفوقة ، هي التي حركت أحد كبار الأدباء من معاصري المعرب إلى القول : « اذا كان شعر هوميروس في الياذته كشعر البستاني في ترجمته ، فأنا أول من يقر بعظمته » . ودفعت شاعر النيل حافظ ابراهيم إلى الكتابة : « جلس للتوفيق بين لغة العرب ولغة هوميروس فما رام عن مكانه حتى راض منهما الجماح وازال النفرة . وحتى أشكل الأمر على الناظر في الكتابين فلم يدر أيهما المترجم عن الآخر » .

وربما كان النشيد الثاني والعشرون – وفيه مقتل هكطور – أكثر ما استرعى اهتمام المؤلف والمعرب معاً » فكل ما تقدمه توطئة له ، وكل ما وليه ذيل ... جمع بين لين السهولة والبلاغة والشدة والرقة وأحاط بكل ما يتسنى للمخيلة ان تدركه . فبينا تراه يصعد إلى قمم الإلهام اذ به ينحدر إلى أعماق القلب فيثير العواطف ويهيج البكاء [١] » . وكأنما يخشى البستاني وهو ينبه المطالع إلى جمال هذا النشيد في الأصل ، ان يخفق في ابراز روعته فيضيف : « إذا صدق ظني به ، فليقل لله در هوميروس على هذا الاستنباط البديع الغريب ، والا فليقل سامح الله الناقل فقد قصّر في التعريب » . ألا ، فليطمئن الناقل إلى سمو نقله فان شهادة الادب فيه أبعد من ان تسلكه في عداد المقصرين .

وإذا اخذ عليـه بعضهم كالشيخ ابراهيم اليازجي ، وفرة اسماء العلم التي تذهب برونق الشعر وجمال التعريب ، فذاك انه لم يكن له معدى عن ذكر هذه الاسماء التي حاول تطويعها لمقتضيات النغم العربي ، فمرت تحت ريشته في الغالب دون ان تترك في الشعر نشازاً كقوله مثـلاً على ايجاز وبراعة في التصوير :

١ الالياذة ص ١٠١٤

قال : ابنَ فِيلا ، مُصابٌ قد دُهمتَ بهِ

يا حَبذَا لو بنو العلياءِ ما دَهمُوا

فطرقلُ مُلقىً ، وهكطورٌ بشِكّتِهِ

والجسمُ عارٍ ، عليهِ النقعُ مُلتَحِمُ

واذا قصّر نوعاً في استعماله بعض القوافي (كالضمائر) ، وفي تقليبه اسماء العلم (كأخيل ، وآخيل وآخل) ، فان هذه الهنات لا تضير التعريب ، بل تظل نزراً يسيراً أمام هذه المحاولة الجبارة التي أقدم عليها البستاني فابرز معها براءة الاليـاذة ومرونتها ، وقابلية الشعر العربي للاحاطـة بالموضوعات الرحبة واثار بها مشكلة الشعر والنقد ، والبحث والتعريب . وكأني به ، وقـد شعر بفقر الشرق العربي إلى الحضارة القديمة ، راح يفجر مركز الثقل الحضاري القـديم في مركز آخر للحضارة كان له في دورة من الزمن ، أن يمهر الفكر بدفقة من وعيه وروحه .

الشاعر

ان قضى قائد اليراع شهيداً فلقد دب روحه في الجنود
يا رسول الفكر الجديد سلام كم هديت العلى بفكر جديد
انما الفكر عـالم ما له حد سما فـوق عالم محدود

الياس ابو شبكه

مذهبه

حاول البستاني نظم الشعر قبل أن يتم عقده الثاني من أعوام الحياة ، فكان يخطىء ويتعثر ، ككل ذي خيال طفل يحالفه النجاح مرة ليخونه مراراً . ودفعه الصدق الفني إلى التنكّر لهذه الحقبة فيما بعد ، فإذا به يقول : « ولا يطالبني المطالع اللبيب بأمثلة من تلك القصائد فحسبي هزء نفسي به دون هزئه ، إذ لا أتمالك من الضحك كلما خطر على البال شيء مما علق في الذاكرة ... وهذا ولا بدع ، شأن كل كاتب تطاول الى فن دخله من غير أبوابه [١] »

ولكن شاعريته ما لبثت ان تفتحت – على كثير من التقليد بادىء الامر – لتجد نضجها مع الالياذة ، واختمارها في فراش الالم بأحد مستشفيات سويسرا .

أما مذهبه في الشعر ، فمزيج من حفاظ على الكلاسيكية مع ثورة عليها ضمن حدود ضيقة قلما تجاوزت الشكل الى الجوهر . يظهر ذلك في تفننه بالاوزان والقوافي ، وفي جعله السليقة القائدة ، أساساً لكل تجربة شعورية . فحالة الذهول التي تسيطر على الشاعر هي التي تحرك ريشته فترسم له الصور ، وتبعث فيه الأحاسيس ، وتفرض عليه هذا اللون او ذاك من العطاء : « فالشاعر المجيد اذا تصور أمراً فانما يتصور له ذلك الأمر على

١ – مقدمة الالياذة ص ٦٨

كماله فتهيىء له السليقة جمال الشكل كما هيأت له جمال المعنى .. والقريحة الجيدة نقادة خبيرة اذا طرقت باباً انفتح لها ملء رغبتها فتقع على البحر والقافية وهي لا تعلم من أين تأتـّى لها ان تقع عليها ، وانما هو الشعور الشعري يدفعها الى حيث يجب ان تندفع [١] »

وربما كان من الغريب ان البستاني الذي بدأ حياته الشعرية بمنظومات قصيرة في القصص ، واوقفها بعد ذاك على ترجمة شعر ملحمي ، قد ختمها بقصيدتين تشفان عن وجدان عميق ، وتطفحان لوعة وألماً ، فهما عصارة قلب حطمته الأيام ، فسال دفقة من أسى وانشودة من حنين .

فلذ وجدانيـّة

اجهده المرض في سويسرا واقعده اشهراً بين حي وميت في فراش من الاوجاع لايطاق ، يرصد الليل علّ في جنحه كرى ونسيان ، واذا بليل النابغة وابي الطيب ضيف عليه لجوج . ويرقب الفجر علّ في اضوائه رأفة وسنى ، وما الفجر له بالراحم ولا الشفوق . فكأن جسمه مستنقع عذاب في كل فلذة منه علة ، وفي كل لحظة وخز . لايهدأ فيه عرق حتى يثور آخر ولا يسكن ألم الا وفي اعقابه ضروب من الهمّ والوان .

ويروح الشاعر — على تدينه وتجلده — بفورة من اليأس تطلّ على التشاؤم ، وما الذي يرجوه من عيشة حية ميتة ، حلاوتها الى مرارة ، واملها الى قنوط ، وكل ما فيها على تناقض وانهيار خلا الألم

١ — مقدمة الالياذة ص ٨٩ و٩٠

فهو دوماً على ازدياد وشدة :

إذا انقشعَ الظلامُ رَصدْتَ ليلاً وإن هجمَ الدُجى راقبْتَ فجْرَا
كأنَّ بكلِّ عِرقٍ منكَ داءً تُسكّنُ عِلّةً فتثورُ أُخرى

ويبحثون له عن دواء . ويا له من علاج يتساءل المرء معه ايهما امرّ وادهى : أهو الداء يهصر العظم وينخس اللحم فيترك في البصر زيغاً ورجفة وجمرة تتلظّى ؟ ام هو الداء يلهب الجلد وينشر البقع فوقه سوداً وحمراً وينقل المريض من نار الى نار ؟ انها مغاطس الكبريت والرفادات الساخنة تكوي الجسم كياً فيشعر معه المرء ان نفسه تفيض مع كل أنة وزفرة ، انها مجاري الكهرباء بدعة القرن العشرين في التداوي ؛ وانها اشكال واشكال من الأبر النواخس يريدونها للسكون والرفق فلا تستجيب لما يبتغون . واذا ألم الداء أخف وقعاً من عذاب العلاج ، لولا ذلك الرجاء القانط ، يتعلق بخيط واهٍ من الطب ووسائله :

وألقى بعدَ ذلكَ في فِراشي زماناً خِلتُ منهُ الجزءَ دهْرَا

وَطنيَّة وَحنين

بيد ان هذا الألم وان برّح في خلايا الجسم فما هو سوى نزر يسير من ذاك الذي استقر في النفس يبعثه شوق حثيث الى الوطن ورغبة في مشاركة اهليه ما يعانونه من اوصاب . ما امرّها حالة لرجل طوّف في رحاب الارض يعمل لقومه وبلاده ، حتى اذا كاد يطمئن ويفيء الى حمى الاهل والوطن ، وجد نفسه امام قدر ظالم يقذفه الى البعيد مرة

جديدة . هو في سويسرا بلد الانس والحسن ولؤلؤة تاج الغرب ، ولكن هذه المظاهر باهتة ناحلة امام مريضٍ هاوٍ ، لا يجد الدفء والسكون الا في صوت قريب حنون او في نسمة هادئة تحمل من تراب ارضه عطر الزهور ونفحة الجبل ، فيطلقها آهة فيها من المرارة وصور النفس الكسيرة اطياف واشجان ، وقد سلَّ من ذاته شخصاً يخاطبه ويناجيه :

وَحيدٌ في بلادٍ لَسْتَ مِنها وإن طابَتْ وكانَ الأنسُ وَفْرا
بَعيدٌ عن حِمَى أهلٍ وَرَهْطٍ بهِ نَثَرَتْهُمُ الأَقْدارُ نَثْرا

لقد ظل لبنان ابداً في فم البستاني وقلبه انشودة عذبة يستطيبها مع كل رفَّة من خفقات صدره . يصبو اليه ساعة الهناء والدعة فتهيج عاطفتهُ وتعتريه رعشة الشاعر المستهام :

قد طالَ عهدي بالقَريضِ فَخلْتُني أُنسِيْتُهُ ببديعِهِ وَبيانِهِ
وَحلَلْتُ لبناناً فهاجَ قَرائحي ذكرُ الصِبا بحنينهِ وحنانِهِ
فإذا نَطقتُ فإنَّما هي جَمْرَةٌ في قلبِ من يَصبُو الى لبنانِهِ

ويطبق عينيه على خياله في مرارة العذاب وفورة الضنا فيجد راحة في الخيال واملاً . انه الوطني الحر يجعل من حب بلاده قانون ايمان ، ومن خدمة قومه رسالة وفاء . واذا كان يخشى الموت فما ذاك لأنه فراق بين النفس والجسد بل لأنه انقطاع عن تأدية هذه الرسالة السامية ، وعن وفاء هذه الديون بوقت يجب ان تجنّد فيه كل قوى الخير لرفع ما لحق بالوطن من ظلم وحرمان :

ولي وَطنٌ تَثقَّلَ كاهِلاهُ وأهلُوهُ يُعانُونَ الأمَرَّا



الشاعر سليمان البستاني

لهم وله علـيَّ ديونُ حُرٍّ أرومُ وفاءَها فأموتَ حرًّا
وبعدَ قضاءِ ذلكَ لا أبالي أطالَ العمرُ او أُلحِدْتُ قبرًا
وإن تَغُلِ المنيَّةُ قبلَ هذا فإنَّ بِنيَّةِ الإخلاصِ عُذرًا

* * *

ويمنّ الله بالشفاء في ربيع ١٩١٩ . فيطلّ البستاني يوماً من شرفته في مستشفى مون ريان (الجبل الضاحك) ويغرق نظره في روعة من جمالات سويسرا تثير فيه سليقة الشاعر مضافة إلى فرحة النجاة وأمل العودة ، فتنفجر بموشح « الشفاء » ، لحناً من صلاة النفس للطبيعة وعبادتها للجمال . ولكنها صلاة يُلمح معها لون من التشاؤم العميق في مستهل الموشح ، فكأنما هي بنظر الشاعر آية الشكر ، يبعثها باستفاقة عابرة من تملّي النفس قبل المسير ، هذه النفس التي عرفت حدود الحياة ومشارف اللانهاية :

أفِقْ ولو حينا قُبيلَ الرحيلْ لم يبقَ من صَحوِكَ إلاَّ القليلْ
أفِقْ فذي شَمسُكَ رأْدَ الأَصِيلْ

وينعش الربيع روحه ، وتنبسط أمامه مناظر الحقل والجبل ، بالماء والضباب والغيد والجنى ، فيرسمها لوحات من طبيعة طالما تمتع بها في بلاده :

وَحبَّذَا تلكَ الرُّبى والحُقولْ والغِيدُ والفتيانُ فيها تَجولْ
كأنها الغِزْلانُ فوقَ السُهولْ
يجنْيها للزُهورْ تَنفي العَنَا

وَضمّها للصدُورْ تُلفي المُنَـــى

زَهرٌ على زَهرٍ تَراهُ انحنى كلاهُما مرآهُ يَشفي الغَليـلْ

ولكن هذا الجمال ينقصه هدوء لبنان وانسجام فصوله كأنما هي موسيقى الخالق في الطبيعة ، لا نشاز فيها ولا رتابة بل تجدد دائم يبعث الصفو والحياة :

ذَكرتُ لبنانَ فهاجَ الحنينْ فؤادِيَ العانِي لذاكَ العَرينْ

قد عزَّ مناهُ طِوالَ السنينْ

فأينَ تلكَ الفُصُولْ بلا انحـرافْ

وأينَ تلك التُلُولْ والجوُّ صافْ

واينَ ماءٌ فيه محيٍ وشافْ وأينَ ذيّاكَ النسيمُ العليـلْ

ومع هذه الذكريات الحلوة امنية يشتاقها الشاعر ويدعو الله لتحقيقها :

فهَلْ تُرَى يُفسِحُ آتي الأجلْ حتى به تُغمَضَ منكَ المُقلْ !

غير ان القدر كان قاسياً . فاغمض عينيه في البلد البعيد ، في نيويورك ، على طيف لبنان الذي احبه واخلص له . وما استطاعت مباهج الأرض ان تمحوه من قلبه ، فظل على توق دائم إلى هذا الخيط الدقيق يرتفع من مداخنه ، وإلى الثلج الناصع يكلل جباله ، فيبعث فيه مصداقاً لقول داود عمون :

يا بني أُمـي اذا حَضَرتْ ساعَتي والطبُّ أَسلمـني

فاجعَلوا في الأرزِ مَقْـبرتي وَخُذوا من ثلجِـهِ كَفَني

مِنْ اقوالِ الأدباء فيه

من أقوالهم في شخصيته

لقد عاشرناه طويلاً ، وصادقناه ، وعاملناه ، فلم نجد فيه إلا صدقاً ووفاء ، وحرية في الفكر والقول والعمل . يحاسب نفسه على كل لفظة فلا يقول جزافاً في جد ولا هزل ولا تخرج الكلمة من فمه إلا موزونة محكمة كأنه سيحاسب عليها في مجالس القضاء . لا يغتاب ولا يسمح بالاغتياب .

ومن مناقبه التي يسيء بعضهم فهمها انه قليل الكلام . إذا خاطبته اجابك بهدوء وسكينة لا تسمع منه تأكيداً أو تشديداً ، وربما ظهر ذلك لغير العارفين من قبيل التردد أو الضعف ، ولكنه فعّال لما يقول . وإذا باحثته في موضوع تؤنس منه ليناً في جداله فتستضعفه وتحسبه لا يلبث ان يتحول عن رأيه ، فاذا خبرته رأيته ثابتاً في ما يراه أو يعتقده مع إعتدال وروية .

وهو واسع الصدر ، كثير الاغضاء ، ولذلك كثر اصدقاؤه ومريدوه . وهو ليّن العريكة ، مسالم ، يهمّه اكتساب قلوب الناس . شديد المحافظة على سلامة سمعته ...

جورجي زيدان ـ الهلال

من منا عرف رجلاً في السبعين إذا مدحه أحد على عمـل توردت وجنتاه حياء كأنه لم يزل صبياً في السابعة ، واذا لامه أحد لأنـه انصرف عن العلم والأدب إلى السياسة يقول مكتئباً : نعم قـد أسأت إلى نفسي على انني ارجو انني لم اسىء إلى أحد .

لا أنسى ولن انسى ليلة جمعتني وسليمان ببعض الاميركيين حول مائدة أنيقة . وبينما نحن نتباحث في الفـن والأدب ، التفتت اليَّ سيدة ذات منزلة معتبرة وقالت لي : انا اجهل اللغة العربية ولا أعلم شيئاً عـن السياسة الشرقية ، لذلـك لا استطيع معرفة قدر هذا الشيخ الجليل ولكنني لما صافحته وابتسم لي تمنيت لو لم يمنعني الخجل عن تقبيل يده .

وبعد يومين زرت البستاني وردّدت على مسامعه كلمات تلك السيدة فلم يقل كلمة قط بل ظهرت على شفتيه تلك الابتسامة الحـلوة ، ثم تساقطت دموعه السخية على لحيته البيضاء ... تلك دقيقة نادرة ابانت لي حقيقة البستاني بكل ما في تلك الحقيقة من الدعة والاحتشام والرفعة ، تلك دقيقة نفعني فيها البستاني اكثر بما لا يقاس من اي كتاب وضعه ، ومن أية قصيدة نظمها .

جبران خليل جبران ـ السائح

وكبر محدثنا في عيني حتى خجلت من نفسي لأنني لم اقدره كل قدره لأول نظرة القيتها عليه ... انني وجدته من الرجال الذين قد تراهم بين الجماهير ، فلا يستوقفون بصرك بشيء . لكنك إذا اجلستهم في مجلس، تأتلف روحه مع ارواحهم ، يفتحون قلوبهم ويبسطون أفكارهم فتحس انك في حضرة من اصطفتهم الحياة آنية لجانب من جزيل خبرتها وثمين هباتها .

ميخائيل نعيمه ـ السائح

من الناس من يجرؤ اصدقاؤهم عليهم بعد معاشرتهم الطويلة وتسقط كل كلفة عند الفتهم . اما الفقيد الكبير فكان كلما طال العهد في معاشرته ، كلما زاد الاعتبار والمحبة له .

مات البستاني من قلبه ! قتل البستاني قلبه ! والقلوب الكبيرة تقتل أصحابها لأنها تشتغل كثيراً وتحب كثيراً وتعطف كثيراً . فمتى نفد ما بها أو كاد في سبيل السوى ، انخلعت فسكنت تلك الحركة النافعة .

نعوم مكرزل ـ الهدى

كنت الوزير وكنت المستشار فلم تمدد يديك إلى مال ولا نشب
أيام كفك في الألقاب مطلقة لكن عففت فلم تطمح الى لقب

***

قم خبّر النشء في لبنان كيف جرت بك المطامح تزجيها الى الرتب
ما ان هززت امام العرش مبخرة ولا خنعت لما ترتاد من أرب
ولم تقف قط في أبواب مقتدر ولم تعفّر جبين النبل في عتب
والوعتي ليس في لبنان مدرجة إلى العلى غير حني الرأس والحدب

محبوب الخوري الشرتوني

جبت المغارب بعد الشرق مرتحلاً ما أبت من سفر إلا إلى سفر
فكنت كالشمس ما القت اشعتها إلا لتبهج في الاكوان ذا بصر

***

سجيّة الشرق اهمال الأولى نبغوا فصل الحياة ، واعظام لدى الحفر
ما في حياتك إلا صفحة جمعت نشيد جامعة الامثال والغرر

تلك الصحائف بيض يوم سوّدها منك اليراع بمنظوم ومنتثر

***

كم يكثر الزهر ذو الالوان في وطني وينـدر الشجر المزدان بالثمر
ان الرياح إذا ثارت عواصفها تخطي الحشيش وتؤذي شامخ الشجر

مراد ابي نادر – جريدة «دير القمر»

من اقوالهم في ادبه

ظل هوميروس مغلقاً على ابناء العربية ، يتمنى ادباؤهم لو أتيح لأحد منهم ان يزيح الستار عنه ، ينقله إلى لغتهم كما نقل إلى اللغات الاوروبية ، ولكن لم يكن في الامكان ان يتصدى لهذا العمل الخطير إلا رجل درس اللغة اليونانية لكي يقرأ هوميروس في أصله ، عارف ببعض اللغات الاوروبية الشهيرة ليقرأ شروح هوميروس فيها ، سيال القريحة حتى يسهل عليه نظم الألوف من الأبيات ، بليغ العبارة طبعاً حتى يأتي كلامه من طبقة ما ترجمه ، كثير الحفظ واسع الرواية حتى يسهل عليه معارضة أبيات هوميروس بما يضارعها من أقوال شعراء العرب ، شديد الجلد لا يملّ من نظم البيت بعد البيت ، والقصيدة بعد القصيدة سنة بعد سنة . وغني عن البيان ان هذه الاوصاف كلها اجتمعت في البستاني فقبض على هوميروس بيده ولم يتركه حتى البسه حلة عربية ...

والبستاني حليف الطمع . وما اشرف الطمع الجائز وما امجده وما انفعه . فان اكثر الأعمال العظيمة نشأت منه . فلم يشأ ان يرسل الالياذة بشرحها بتراء من غير مقدمة وأي مقدمة . عرّف أحد علماء الانكليز المقدمة بانها الجزء الذي لا يُقرأ من الكتاب . ولكن صديقنا البستاني وضع للالياذة مقدمة تملأ مئتي صفحة وهي لا تقل عن مقدمة

ابن خلدون في تعدد مواضيعها وبلاغة عباراتها وكثرة فوائدها . ونسبتها إلى مقدمة ابن خلدون من حيث دقة البحث ، نسبة العلم في هذا العصر اليه في عصر ابن خلدون . وهي مثلها ايضاً في صحة العبارة حتى يصح ان تكون انموذجاً للانشاء البليغ . هذه المقدمة ، ديوان ادب وعلم ، افرغ فيها المؤلف نتيجة درسه وبحثه السنين الطوال .

يعقوب صروف ـ المقتطف

تمّت لك ترجمة الالياذة لنابغة شعراء اليونان هوميروس المشهور . نسجت قريحتك ديباجة ذلك الكتاب ، كتاب الترجمة ، فاذا هو ميدان غزت فيه لغتنا العربية ضريعتها اليونانية فسبت خرائدها وغنمت فرائدها وعادت الينا في حلل من ادبها تحمل إلى الالباب قوتاً من لبابها .. فحق لك الشكر على كل من يعرف قيمة مـا دفنت لاكماله من العمل فقد سدت به ثلمة كانت في بنية العلم العربي من عشرة قرون ..

كان مؤمّل اللغة منهم (الاساطين الاولون) ان لا يحرموهـا نفائس مـا اخترع اليونانيون كما زينوها بزينة ما ابدع الهنديـون والفارسيون . وبقي ذلك المؤمل في غيب الدهر حتى أتيت ترفع عنه الستر وجئت تقول للناس انني اتمم في دولة عباس ما نقص في ملك بني العباس ، فما اقرّ عين العربيـة بنيل طلبتهـا وظهور ما كان منتظراً لشيعتهـا .

من رسالة الامام محمد عبده

مفتي الديار المصرية ، ورئيس جمعية احياء اللغة العربية

ثم زاد على ذلك ان نظمها (الالياذة) شعراً عربياً جمع فيـه من المتانة والاحكام ما شهد بطول باعه في صوغ الكلام ورسوخ قدمه في

معرفة أوضاع اللغة واشتقاقها بحيث جاءت منزهة عن الحشو والتكلف، بعيدة عن التعقيد والابهام .. وجملة الامر انك اذا تصفحت هذا الكتاب ؛ وجدت الالياذة التي هي اساسه، وعليها بني التأليف، أمراً تافهاً بالقياس الى ما قدم عليها، والحق بها من الشروح التي جمعت فاوعت، والتي تدل على فضل المعرب وسعة اطلاعه وغزارة محفوظه ... وحسبك ما اقتضى ذلك كله من اعمال الروية ومواصلة البحث والتدوين، مما لا يضطلع به إلا عن علم واسع، وعزم صادق، وجلد لا يغلب .

ابرهيم اليازجي ـ الضياء

هذا فيما أظن أول عمل من هذا القبيل (حفلة تكريم البستاني) اجتمع فيه جمهور كبير من نخبة أفاضل القطرين ونواصي الامتين لا بالحسب والنسب بل بالفضل والادب . اجتمعوا لا للاحتفال بفاتح دوّخ الغبراء أو بطل أثخن في الاعداء أو مثر يرجى منه سخي العطاء، بل اجتمعوا للاحتفال برجل هو بالحقيقة من الابطال، ولكنه بطل المدنية والعلم، بطل الصبر والثبات، بطل الدرس والاجتهاد ..

وانت يا حضرة المحتفل به .. لا شك ان الياذتك العربية ستشتهر بمقدمتها كما اشتهر تاريخ ابن خلدون بمقدمته، واني اكرر لك هنا غير ممار، ما قلته من قبل عن فيض شعور في النفس لا عن غرور فيها لما يكون لذلك من الوقع، من ان أثرك هذا أعظم أثر أدبي في عهد هذه النهضة العربية الحديثة .

من رسالة للدكتور شبلي شميل

موجهة الى رئيس لجنة تكريم البستاني

جلس للتوفيق بين لغة العرب ولغة هوميروس . فما رام عن مكانه حتى راض منها الجماح وازال النفرة ، وحتى اشكل الامر على الناظر في الكتابين فلم يدر ايهما المترجم عن الآخر . وقد توج التعريب بمقدمة اودع ما بين دفتيها بحثاً اخفى من مدارج النمال وادق من صناعة القدماء في النقش على صغار اليواقيت . فلو انهم اوجروها امّياً لاصبح وهو اعلم الناس بمغامز الشعر قديمه وحديثه

نظرت في المقدمة نظرة الطالب المستفيد فما اتيت عليها حتى قضيت العجب من قدرة ذلك الرجل وحسن تصرفه باساليب الكلام وكنت وأنا أقرأ في المقدمة ما كتبه المعرب عن المؤلف كأني ارى هوميروس ولا اسمعه . فلما انتهيت إلى قراءة المتن صرت كأني أسمعه ولا اراه . فقلت في نفسي : لم يكن ملك سليمان باملأ للعيون من مقدمة سليمان . فهم تقف دونه الافهـام وحديث تخف له الأحلام واسلوب كأنه لحسن انسجامه وعذوبة الفاظه ، نهر منبعه الحكمة والبيان ومصبه القلوب ... وما انتهيت من المقدمة حتى ألممت بتاريخ العالم الشعري منذ برته القرائح البشرية ومرت أمامي صور الشعراء مرور الصور المتحركة .

حافظ ابراهيم ـ الاهرام

... الاثر الذي أحدثه سليمان البستاني في الأدب العصري :

أثر في النثر يبدو بذلك الاسلوب الصافي الانيق المستنـد الى العلم والادب . وكأنه مستنبط بين اسلوب ابن المقفع واسلوب ابن خلدون ، متجلياً في مقدمة الالياذة ، وفي عبرة وذكرى خاصة .

وأثر في الشعر مردّه إلى أن البستاني كان شاعر صلة متنقلاً من القديم إلى الحديث . يظهر الامر جلياً في مبنى الالياذة . كما يظهر في سـائر قصائده التي كان الحديث منها « كالداء والشفـاء » على نصيب وافر من

دقة الوصف ، وجمال الاستعارة ، وروعة الخيال بينا كان القسم الاقدم ، وهو المنظوم قبل تعريب الالياذة ، لا يكاد يفرق بشيء عما نعهده من الشعر الحكمي القديم . ولا شك في انه كان لهوميروس يد مأثورة في هذا التطور .

فؤاد افرام البستاني ـ الروائع

ليس عمر الفتى وإن طال إلا ... ما حوته الحياة من مكرماته
يعظ النابغ الخلائق حياً ... انما موته أجلّ عظاته

* * *

شاعر كان يرقص الدهر أحياناً ... ويبكي حيناً على نغماته
ذهب الساحرون والسحر باق ... في عيون المهى وفي كلماته
منشىء رقّ لفظه كسجاياه ... ورفّ الجمال في جنباته
توّج الضاد بالملاحة حتى ... خالها القوم بعض مخترعاته
نقل الاعصر الخوالي الينا ... في كتاب . لله من معجزاته

* * *

ما الردى بالحديث في الناس لكن ... نكبة العلم ضاعفت روعاته

ايليا ابو ماضي ـ الجداول

مختارات

مُنتخبات
من شعره

من الوجدانيات

الداء

أَلَمْ تَسأَمْ وعيشُكَ باتَ مُرًّا ... تَوَسَّدُ من لَظَى الآلامِ جَمْرَا
تُقَلِّبُ في فِراشِ السُقمِ جنباً ... لجنبٍ مُوقِذاً بطناً وظَهـرا
وجفنُك لا يذوقُ الغمضَ سهداً ... وان هَجَعتْ عيونُ الناسِ طُرًّا
إذا انقشَعَ الظلامُ رَصدتَ ليلاً ... وإن هجَمَ الدُجى راقبتَ فَجْرا
يقولُ لكَ الأَسى صبراً ، وأنّى ... على هذا المصَابِ تُطيقُ صَبْرا
إذا عالجتَ عُضواً هِجْتَ عُضواً ... وإن داويْتَ رأساً هِضْتَ صَدْرًا
كأَنَّ بكلِّ عرقٍ منـكَ داءً ... تُسكِّنُ عِلةً فَتَثُورُ أُخـرى

* * *

وقالوا صِفْ عِلاجَكَ قلتُ ضَيمٌ ... أُحمِّلُهُ لدفـعِ الضرِّ ضَرًّا

لِكَهفِ الكهرُباءِ أُقادُ حتى مجاريها تساقُ اليَّ جرّا
كأنَّ لها شعوراً بالتياعِي فتسمعني أنينَ الحزنِ جهرا
وأُلقى بعد ذلك في فِراشي زماناً خِلتُ منه الجزءَ دهرا

* * *

وما يُجدي العلاجُ وجهدُ آسٍ بداءٍ أثقلَ الجُثمانَ وَقْرا
وبرَّحَ في خلايا الجسمِ حتى تجاوزَها وفي النفسِ استقرّا
وحيدٌ في بلادٍ لستُ منها وان طابَتْ وكانَ الأُنسُ وَفْرا
بعيدٌ عن حمى أهلٍ ورَهطٍ بهِ نَثَرتْهمُ الأَقدارُ نَثْرا
رياضٌ زاهراتٌ بِتنَ بوراً ودورٌ عامراتٌ بِتنَ قفرا

* * *

أَشأْنُكَ ذا ، وبعدُ ترومُ عيشاً وتعقدُ نيّةً وتقولُ شِعرا
ولكني وحقِّكَ ليس حِرصاً على الدنيا استَطَبْتُ بها المَقرّا
خبرتُ هناتِها الجُلّى وإني بلوتُ مَذاقَها حلواً ومُرّا
فليسَ برائعِي عنها ارتحالٌ وليس برائِقي أن أستَمِرّا

* * *

ولي وَطنٌ تثقَّلَ كاهِلاهُ وأهلُوهُ يُعانُونَ الأَمرّا
لهم ولهُ عليَّ ديونُ حرٍّ ارومُ وفاءَها فأَموتَ حُرّا
وبعدَ قضاءِ ذلكَ لا أُبالي أَطالَ العمرُ أو أُلحِدْتُ قبرا

وإن تَغُلِ المنيـــةُ قبلَ هذا فإنَّ بِنيّةِ الإخلاصِ عُـذرا

سويسرا ـ مستشفى مون ريان ١٧ تموز ١٩١٨

من الالياذة (١)

النشيد الاول

نزاع فصلح

في جبـل الاولمب « دار الخلد » قطع زفس رب الارباب عهداً لثيتيس بأن يساعد ابنها أخيل حتى يطيب خاطره بعد ان سلبه اغا ممنون ـ زعيم زعماء الاغريق ـ سبيته الجميلة . وساء ذلك هيرا فتعرضت في مجلس الارباب لزوجها زفس ، بتعنيف تطور الى نزاع فتهديد ، لينتهي بمصالحة .

بعدَ هذا الحديثِ ،سارَ الإلاهانِ: فثيتيسُ للعُبــاب العَسُوفِ
من أعالي الأُولَمْبِ،غاصت،وزَفْسُ عاد للصَّرحِ في المقامِ المُنيفِ.
نَهضَتْ أربابُ العُــلى لأَبيها ، حرمةً واختشاءَ هَولٍ مُخيفِ.
حلَّ في عرشه ، وهِيرةُ بالمر صادِ كانت ما بينَ تلك الصُفوفِ،
أبصرتْهُ يَلقَى ابنةَ الشيخِ نيرا ، ذاتَ رِجلِ اللُجَينِ ،بالمعروفِ؛

١ـ رأيت ان انقل الشروح كما اوردهـا المعرب ، تدليلا على الجهد الذي بذله ، وشاهداً على مقارناته الادبية والتاريخية بين شعر الأمتين .

فَعليه مالَتْ سَريعاً بعزمٍ وتلقَّتْهُ بالكلامِ العَنيفِ :
« مَن تُرى ، أيها الالهُ المُداجي ، قُمتَ تُدني اليكَ طيَّ السُجوف [١]
قد كرِهتَ استيداعَ سِرِّكَ عندي ، إن أغِب رُمتَ سرَّ غيرِ أليفِ . »
قال ربُّ الاربابِ والناسِ طرًّا : « لا ترجِّي استطلاعَ كلِّ صُروفي ،
لا تُطيقِين ، لا ، وإن كنتِ زوجي غيرَ عرفانِ حقِّكِ المألوفِ
ذاكِ لا خالدٌ ولا بشرٌ قبلَكِ يُروى له أقلُّ الحروفِ ؛
وحذارِ السؤالَ عما أرى ان أتبقَّى بعلمِيَ الموقوفِ . » [٢]
رَمَقَتْهُ بطَرفِ عينِ مَهاةٍ ، ثمَّ قالتْ : « وما الذي تَرويهِ ؟ [٣]
أنا لا اطلبُ التفحّصَ عما تبتغي ، أجرِ انت ما تَشتهيهِ ،

---

١ – سؤالها هنا من قبيل التجاهل ، لانها كانت عالمة انه انما حادث ثيتيس .

٢ – استعطفها وتهددها معاً شأن الزوج الذي يعترف بحق امرأته ، ويحب ان تنتهي عما وراء ذلك .

٣ – عين مهاة : في الاصل (Bowᵐls) اي عين بقرة على الاطلاق . عبرت عنها بالمهاة ، اي البقرة الوحشية ، وهو تشبيه كثر حتى ابتذل في شعر العرب ، قال علي بن الجهم :

عيون المها ، بين الرصافة والجسر ، جلبن الهوى من حيث ادري ولا ادري

ولا عجب ان يستحسن اليونان عيون البقر الاهلية بحضارتهم ، استحسان العرب عيون البقر الوحشية في بداوتهم . بل العجب ان كثيرين من شراح الافرنج استقبحوا هذا التشبيه لبعد عهدهم برعاية الماشية ، حتى ان البعض من المتشيعين لشاعرنا بالغوا في تأويل اصل الكلمة وجعلوا لها معنى لم يتصوره هوميروس . ولا بدع ان يشبه شعراء الجاهلية بهذا التشبيه ، وشعراؤنا من متأخري العرب المقلدين لا يكادون يشبهون العيون الحسان الا بلحاظ المها والغزلان حتى لقد يتوسعون فيجعلون كل الفتاة كل المهاة .

إنما خَشْيَتي من ابنةِ شيخ البحرِ أن تعتلي بمكرٍ وَتيهِ .
وافتِ الفجرَ ، والتَقَتْكَ بلثمِ الا ركبتينِ ابتغاءَ امرٍ بديهي .
ويقيناً أَشرتَ بالوعدِ ان يحـ ظى اخيلُ بكلِّ ما يَبتغيهِ ،
وبمرأى الاغريقِ في فُلكِهِمْ ، تُر دي الوفَ الابطالِ كي تَرتَضيه .»[1]
قالَ : «غاليتِ في مُراقبتي ، ويـ كِ ! وأكثرتِ ثِقلةَ التمويهِ ![2]
لن تَنالي بذاكَ الاّ نفوري ؛ بَل تَذُوقينَ طَعمَ خذلٍ كريهِ ،
وَلَئنْ كنتِ قد صدقتِ بما قلـ تِ ، لأَستحسنَنَّ ما أُجريهِ ،
فالزَمي الصمتَ في مكانكِ . إيا كِ خلافاً ، وهاكِ أمري فَعيهِ ،
لَيسَ يُنجيكِ من ثقيلِ ذِراعي ، في أُلمبَ ، جَميعُ من حلَّ فيه . »
جَلَست ، أُصمِتَتْ ، وخارَت فؤاداً ، وبنو الخُلدِ بُلبلوُا بَلبالا .[3]

---

١ ـ كان لهيرا باعث آخر غير الغيرة على تعنيف زفس ، ذلك انها كانت ميالة الى اليونان تخشى ان ينكل زفس بهم ارتضاء لثيتيس ، وهذا شافع آخر لها بتطفلها عليه .

٢ ـ لما رأى زفس انه لا سبيل الى اسكاتها باللين ، عمد الى القسوة والاشعار بما له من السلطان .

٣ ـ لم يغادر هوميروس شاردة من احوال الخلق إلا دونها . فانه ، بعد ان وصف نزاع الزوجين ، قال في التوطئة لتراضيهما « وبنو الخلد بلبلوا بلبالا » . فليتصور القارىء رب بيت عظيم نازع امرأته على مرأى حشمه واتباعه ، فكل ذلك البيت يبلبل بلبالاً عظيماً ، وهذا كلام يزيد قوة تعبيره وقعاً ، لزيادته في رونق الحديث واثباته واقعة حقة لا بد منها ، وفتحه الباب لوساطة المتوسطين بين المتخاصمين ، هذا فضلا عما يظهر من ابهة زفس وعظمته .

فتصدَّى الحدَّادُ ، ذو الشأنِ ، هِيفَستُ ، لتسكينِ أُمِّه ،ثم قالا :[١]
فَدحَ الأمرُ أَنْ تكُونا لاجلِ الناسِ بالارضِ تُنشِبانِ القِتالا ،
واذا ما أوسعتُمانا جَفاءً ، كيفَ نَبغي الصَفا ، ونَنعمُ بالا ؟
لكِ نُصحِي ، مَهما تَعِي حكمةً ، أَن تَتَّقيه وأَن تُليني المَقالا ،
خَشيةً أن يَشتَدَّ زجراً ، فتُمسي كأسُ افراحِنا بذاكَ وَبالا .
هكذا شاءَ قاصِفُ الرعدِ ، وَهْوَ الأعظمُ الفائقُ الجميعَ كَمالا .[٢]
وَهْوَ كُفْؤٌ لهدِّ كلِّ قِوانا بعروشٍ قد أَعظَمتْنا جَلالا .
سكِّني غَيظَهُ بعذبِ الأَحاديثِ ، فيَرضَى عنَّا ويحسنَ حالا . »
ثم زَجَّى لها ، وقد قامَ ، كأساً طفحَتْ قالَ : « هاكِ خمراً زُلالا ،[٣]
همِّدي الروعَ ، كلَّما اشتدَّ ، إني مُشفقٌ أَن يسومَكِ استِذْلالا ،
لستُ كُفْؤًا ، مهما علقتِ بقلبي ، لدفاعٍ أَراهُ أمراً مُحالا ؛

١ ـ هيفست : إله النار والحرارة . وهو فولكانوس الرومان ، ومنه اتخذ العرب كلمة بركان لجبل النار . قال افستاثيوس : ان الذين يؤولون كلام هوميروس تأويلاً رمزياً ، يرون هيفست أولى الآلهة بالتوسط بين الإلهين المتخاصمين ، لأن زفس يمثل السماء وهيرا تمثل الهواء . فاذا اضطرب الهواء ، اربدت السماء ؛ ولا يحصل التوازن إلا بفعل الحرارة التي يمثلها هيفست . وقد كانوا يعتقدون أن مولده في السماء لانها مبعث الحرارة . قالوا : وكان سقوطه في جزيرة لمنوس ، لكثرة ما فيها من البراكين ، ويرسمونه اعرج اشارة الى ما ناله من التشويه بسقوطه ، أي لتغير حالة الحرارة بانبعاثها الى الارض .

٢ ـ قاصف الرعد : لقب من القاب زفس .

٣ ـ لم تكن خمر الآلهة كخمر البشر بل كانت شراباً سماوياً يأمن شاربه الموت .

ساقـني العزمُ مرةً لانتصارٍ لكِ ، فاجْترَّني برجليَّ حالا ،
ورَمى بي من السماءِ ، فدُحرِجـ تُ نهاري، حتى سَنا الشمسِ زالا،
فوقَ لِمنوسَ خائرَ العزمِ ، أهبطتُ لدى السَنتِ ، فالتُقطتُ مُعالا . »[1]
ببهيِّ اليدينِ ، من بعدِ ان هشَّت وبشَّتْ ، تناوَلَتْها ؛ فمالا ،
وأدارَ السُّلافَ دوراً على البا قِينَ ، يَسقي يمينَهُم فشمالا ،

النشيد الثالث

زحف الجيشين

تأهب جيشا الاغريق والطرواد للقتال ، وكادا يلتحمان . ولكن فاريس برز يطلب اشد خصومه بطشاً ، فبادر اليه مينلاوس يحتدم غيظاً ورغبة في الانتقام لعرضه وشرفه . وفي هذا المقطع وصف للتأهب على شدة وعنف .

نظمَ القوَّادُ سُرى الُجنـدِ بحما الجيشَينِ ، على الحدِّ ؛

---

١ ـ أراد هيفست ان يهون على هيرا مصابها ، فذكرها بمصابه وعجزه ، هو وسائر الآلهة ، عن مقاومة زفس ، فنفعتها الذكرى . ورام اذهاب ما لديها من بقية سورة الغضب ، « فزجى لها الكأس » فنال بغيته .

ـ السنت جيل من الناس آوى إلى ثراقة ، وخرجت جالية منه فاحتلت لمنوس . قاله اسطرابون . وزعم بعض الكتاب ان السنت طائفة هندية هجرت بلادها ، منذ بضعة الاف عام وأتت فاستقرت في اوروبا ومنها نشأت قبائل الزنكانة الرحل (المعروفين في مصر باسم الغجر وفي سوريا باسم النور ، ويدعون كواولة في العراق ، وبوهيميين في اوروبا) وهو قول لا يؤيده دليل .



هيرا

زوجة زفس



زفس

رب الأرباب

زحف الطُروادةُ عن بُعـدِ ، بصديدٍ عـالٍ مُشتدٍّ ،
ودويٍّ يقصف كالرعـدِ ، [١]

كالرَّهوِ ، إذا اشتدّ المطـرُ والقُرُّ ، مواطِنَه يَـذَرُ ، [٢]
في الجـوّ تعجُّ له زُمرُ فوق الأُقيـانُسِ تنتشرُ ،

١ ـ افتتح الشاعر هذا النشيد بزحف كل فئة على الاخرى . ولم يفته ان يصف كل فريق منهم بما اثر عنه من الاخلاق والعادات ، ومثل بالمقابلة حالة الجيشين . فوصف الاغريق بالصمت والسكون ، كما سيأتي ، ووصف هنا الطرواد بالصديد الشديد . فشف كلامه عن حقيقتين : احداهما ايثار قومه الاغريق على جماعة الطرواد . والثانية اثبات الفرق بين امة مبرزة في زمنها على ما جاورها من الامم ، فاستتب نظام الجند عندها وتآلفت عناصرها ، وان كانت في الاصل مختلفة كأمة الاغريق ، وامة اخرى ملتفة من شذاذ العشائر لم تبلغ من الحضارة مبلغاً يذكر كالقبائل المتألبة لنجدة الطرواد. على ان البعض يزعمون ان المراد بالصديد هنا ربما كان قرع الطبول او نفخ الابواق ، لان النقر على الآلات والعزف بها استنفاراً للمقاتلة امر قديم في كل الملل . الا انه لو كان هذا الزعم صحيحاً لما أغفل هوميروس في شعره ذكر الآلات الموسيقية ابان القتال .

ثم ان العزف والنفخ بآلات الطرب والاستنفار والضرب والنقر عليهـا ، وان كانت كلها امور نشأت في اقدم العصور ، فقد لا نرى لها اثراً في حروب بعض الامم كالعرب ، مع انها كانت شائعة بين مجاوريهم ومخالطيهم كالفرس واليهود . وذلك لان الشعر كان ولا يزال في بداوتهم اعظم مثير لعواطفهم ، يتغنون به في غزواتهم فتجيش هممهم وينبعثون الى ساحة القتال ثملين بخمرة الحمية والاقدام . واذا اضفت الى ذلك اناشيد العذارى والامهات رأيت انه اجتمع للبدوي من بواعث الاندفاع ما لا يعد دوي الطبول ونغم الآلات بجانبه شيئاً ـ ولهـذا لبثت قبائل العرب بعد الاسلام تتغنى بالشعر في حروبها ، ولم تتخذ شيئاً من الات الاعاجم في الحروب ، الا بعد ان انقضت دولة الراشدين ودولة بني امية ، فاخذ العباسيون , فيما اخذوا عن العجم ، قرع الطبول والنفخ في الابواق .

٢ ـ القر : البرد . ويذر يترك .

للبغمة محكمـةَ الحشدِ ؛ [١]

فيعمُّ الفتـكُ بجملتها . اما الإغريق بجملتهـا
فمشت بثقيـلِ سكينتها ، آلت ، والنفسَ بحدّتها ،
تتعاضدُ واريةَ الزَنـدِ .

والسهلُ طَوَوْهُ على الأَثَرِ ، والقَسطلُ ، من عَجِّ الزُّمَرِ ،
قد أضحى حجّابَ البَصرِ عن اكـثر من مرمى حجرِ ،
ككثيفِ ضباب مُربَـدّ ؛

كضبابٍ نوطسُ قـد نشرا في قنّة طودٍ ، فاستـترا ،
ولرؤيتـه الراعي ذُعرا ، لكنّ اللصَّ بـه نظـرا
خيراً من ليـلٍ مسودّ . [٢]

---

١ ـ شبه الطرواد بزحفهم على الاعداء بطير الرهو المنتشرة في الجو . وفي ذلك اشارة الى صياحهم من وجه والى انتظامهم من وجه اخر . لان تلك الطير ، اذا ارتفعت في الجو ، علا عرارها وسارت سيراً منتظماً . وفي قوله : « للبغمة » اشارة الى اعتقادهم بوجود امة من الاقزام بهذا الاسم لا يربو طول الواحد منها على ذراع كانوا يقولون بوجودها في بلاد اثراقة .

٢ ـ نوطس . ريح الشمال . بعد ان ذكر في المخمس السابق انتشار الغبار من عج الزمر ، استطرد فشبهه بالضباب الذي تنشره ريح الشمال على رؤوس الجبال . ثم تدافعت في مخيلته التصورات ، فوصف ، وهو يسوق الحديث سوقاً موجزاً معجزاً ، ما يكون لذلك الغبار من الهيبة في قلوب الرعاة لانه قد يحجب عنهم مرأى الضواري فتفاجئهم , وما يكون له من الجذل في قلوب اللصوص فيتذرعون بالتستر به الى نيل بغيتهم ...

النشيد السادس

وداع هكطور لزوجته

بعد انتهاء الوقعة الاولى ـ وقد اشترك فيها الآلهة اشتراكاً فعلياً فاصيب أريس والزهرة بجراح كر الاغارقة بحمية وعزم . فاسرع هكطور الى زوجته وولده يودعها ، والى امه الملكة يسألها ان تستمد عون الارباب لدفع هجمات الاغريق . وهذا النشيد من اكثر اناشيد الالياذة وجدانية ، واصدقها تصويراً لدقائق النفس البشرية في موقفها بين العاطفة والواجب .

سارَ هِكطورُ حثيثاً ، وأتى باب إسْكيَّةَ ، والزانُ ظليلْ.

●

فتلقَّتْهُ نِساءٌ وبَنَاتْ ، منهُ علماً تتقصَّى سائِلاتْ
عن بنيهنَّ وإخوانٍ ثِقاتْ ، [1]

---

١ ـ لا بدع ان تهرع النساء فيتهافتن حول الزعيم الاكبر ، وهو قادم من مواقف القتال . فهن ، فوق ما فطرن عليه من حب التطلع والتشوف ، مفارقات بعولاً واخواناً واقرباء واولياء لا يسعهن الا استطلاع اخبارهم . وهي سنة لا بد منها في كل عصر ومصر ، وعندنا من امثالها ما لا يقع تحت حصر . من ذلك ما روى الواقدي وغيره عن خولة بنت الأزور ، اذ خرج اخوها فيمن خرج من دمشق الى اجنادين اثناء فتوح الشام ، قال . « فلما رجع القوم الى مكانهم اقبلت خولة على المسلمين وجعلت تسألهم رجلا رجلا عن اخيها » .

وليس في الالياذة ذكر لولوج النساء معامع الحرب ، وان كن شاطرن الرجال كثيراً من الاعمال كغسل الموتى ، واعداد المعدات ، واقامة الصلوات وربما استخففن بقفول ، او عنفن على خمول . ولم يكن بهن حاجة الى ما وراء ذلك ، اذ لم تكن رجالهم تقاتل في البيداء ، كما هي الحال في بادية العرب حيث تتبع النساء الرجال فتستنفر وتفزع وتسقي وتداوي ، حتى لقد يجهزن على القتلى كما جرى لهن في بعض

وَبُعُولٍ وأَخــلَّا ، فَأَمرْ أن يبادِرنَ ، على ذاك الأثرْ ،
وُيصلِّــينَ لأربابِ البشرْ ،

علَّها تَدفــعُ عنهنَّ الأذَى . ولِزَاهي قَصرِ فريامَ مضى ؛
هُوَ صرحٌ شِيدَ بالنَحتِ الجميلْ ، فوق أبوابِ رِواقٍ مُستَطِيلْ ؛

●

ايام العرب المشهورة كوقائع بكر وتغلب في حرب البسوس ، وربما خضن بانفسهن ميدان القتال خفية وجهراً . فقد روي ان خولة السالفة الذكر ، لما لم تقف لاخيها على اثر ، وعلمت انه اسير العدو ، تسلحت وتلثمت واندفعت متخفية في صدر الفرسان ، وكان من باسها ما دهش له خالد بن الوليد وسائر قواده . وفي روايات العرب اخبار يؤخذ منها ان كثيرات من نساء حمير والتبابعة كن في الجاهلية يركبن ركوب الفرسان ، ويقاتلن ويغزون ويهاجمن ويدافعن ، اتى الواقدي على ذكر عجائز من بقاياهن رافقن جند المسلمين في صدر الاسلام الى الشام ؛ وكن ، لامتناع السلاح عليهن ، يأخذن اعمدة الخيام واوتاد الاطناب ويقاتلن بها قتال الفارس المقدام . وكن ، اذا انهزم رجالهن ، وقفن في وجوههم وارجعنهم على اعقابهم بكل وسيلة لينة كانت او فظة . وكن يعنفنهم وينشدنهم الشعر ويقلن لهم لستم ببعولة لنا ان لم تمنعوا عنا ، ومن قولهن في بعض تلك المواقف :

نحن بنات طارق ، ان تغلبوا ، نعانق ،
او تدبروا ، نفارق فراق غير وامق .
هل من كريم عاشق يحمي عن العوانق !

ونقلت عن هند بنت عتبة ، زوجة ابي سفيان ، بعض اخبار على هذا النمط ، قبل اسلام زوجها ، وبعده . ففي غزوة أحد شتمت زوجها لتقاعده عن صد المسلمين . ثم لما أسلم ، وكان في الشام ، في جند خالد ، قابلته وهو منهزم ، فضربت وجه حصانه بعمودها ، واسمعته الكلام المؤلم .

وعلى الجملة فقد كان لنساء العرب في الحرب شأن لم يكن لنساء الاغريق ومن وليهم . واما ما جاء في الالياذة وغيرها من كتب اليونان عن الأمازونة فانما هو حادثة منفردة في بابها سيقت النساء فيها الى الحرب لحكم الاضطرار ، لتلاشي الابطال وانقراض الرجال ، فلا يبنى عليها قياس .

ضِمنَهُ صفٌّ بديعُ المنظرِ : غرفٌ قد بُنيتْ بالمرمرِ ،
كلُّها خمسونَ مُلسُ الحجرِ

لبني فِريامَ شِيدتْ مضجعاً ، وثَوتْ أزواجُهم فيها معًا ؛
ويُحاذيهِنَّ صفٌّ رُفِعا ؛

فيه بالإيناسِ والرَّغدِ ثوى ، مع كلّ أبنةٍ ، الصهرُ الحليلْ[١]

•

لبناتِ الملكِ شِيدَ أثنا عشرْ منزِلاً طرًّا بمصقولِ الحجرْ ،
بسُقوفٍ شائقاتٍ للنظرْ[٢] ...

---

١ – ان اقامة الاصهار في بيوت الاحماء من الامور القديمة المألوفة في كل الملل . فان يعقوب اقام في منزل حميه لابان . والدمون بن عبد الملك الحضرمي تزوج الى ثقيف في مروج (الطايف) واقام بينهم وصار منهم ، وهلم جرا .

٢ – قد يقف مطالع الشعر عند دقائق ليست من لوازم النظم , ومع ذلك فان نفسه تتطلع الى استجلائها ، فاذا كان الناظم دقيق الفكرة بعيد النظر ، دونها وكفى القارىء مؤونة الحدس والتخمين . فهنا قصر ملك كبير ورد ذكره في الالياذة ، فوصفه الشاعر بكلمات رسمت صورته في الذهن وملأت ذلك الفراغ . وهي مزية يسوؤنا ان شعرنا العربي يوشك ان يكون غفلاً منها لشغف اصحابنا بالشعر الصرف والايغال في ضروب الخيال ، بما لا يتسع معه المجال لهذه الحقائق . خذ مثلاً القصور والمعاقل والحصون الوارد ذكرها في شعر العرب فغاية ما تعلم عنها انها بديعة منيعة متينة حصينة ، ولا تكاد تعلم شيئاً عن موقعها ووضعها واتساعها ، وهيئة بنائها ومادتها ، واذا ورد شيء من ذلك فأنما يكون بوضع مجمل ، واسلوب مبهم ، لا يصح ان يؤخذ منه رسم صادق . ويطلق هذا الكلام على اكثر ما جاء في كلام العرب من هذا الوجه سواء ورد على طريق العرض كقول المخبل السعدي في المشقر :

ولئن بنيت لي المشقر في هضب تقصر دونه العصم ،
لتنقبن عني المنية ، إ ن الله ليس كحكمه حكم .

ثمَّ جدَّ السيرَ للقصرِ ، على عجلٍ ، يلقاهُما قبلَ الرَّحيل .[١]

●

خابَ ما أمَّلَ ، إذْ لم يجِدِ زوجَه الحسناءَ بيضاءَ اليدِ ،
فهي ، مع جاريةٍ والوادِ ،

وقول أوس في ريمان :

ولو كنت في ريمان يحرس بابه أراجيل احبوش، وأغضف آلف
اذاً لأتتني ، حيث كنت، منيتي يخب بها هاد الى الموت قائف .

او كان مقصوداً بالذات كقول السموأل في الابلق :

بنى لي عادياً حصناً منيعاً وبئراً كلما شئت استقيت .
واوصى عادياً يوماً بان لا تهدم يا سموأل ، ما بنيت .

وقوله في موضع اخر :

لنا جبل يحتله من نجيره منيع يرد الطرف ، وهو كليل
هو الابلق الفرد الذي شاع ذكره يعز على من رامه ويطول

وكم من شاعر تغنى بذكر الخورنق والسدير ، قصري الملك النعمان في العراق ؛ وصرح الغدير لبني غسان بالبلقاء . وقصر غمدان للملك شرحبيل الحميري في اليمن . ومارد والابلق حصني السموأل . ولكن من لنا باستخراج رسم تلك المباني من شعر الشعراء . وقد بسطنا الكلام على هذا الاغفال واسبابه في المقدمة فلا حاجة الى الاعادة .

١ ـ شرع الشاعر هنا في سرد تلك الرواية الفريدة في بابها عن وداع هكطور لزوجته اندروماخ . ولقد افاض الكتبة في تبيان محاسنها بما يضيق دونه مقامنا حق لقد افرد لها بعضهم المؤلفات الحسان ، وابدوا في كتاباتهم من الملاحظات ما لم يبق معه مجال للاسهاب ، نخص منها بالذكر رسالة رولن (Rollin , Traité des études) . ولا بدع فهذه الرواية ، على تقادم عهدها ، لا تزال الطراز المعلم يتوخى الكتبة ادراك شأوه في كل زمان ومكان . وهي ، مع كل ما كتب عنها من الشروح والحواشي ، غنية عن كل شرح وبيان . وما على المطالع اللبيب الا ان يتصفحها حتى يستجلي بنفسه جميع محاسنها بلا مرشد ودليل . وهوميروس كسائر عظام الرجال ، ونوابغ العقل والكمال ، تطاولت اليه يد كل منتقد حسود وعدو لدود . على ان المتشيع له والمتفاني في تخطئته اضطرا هنا معاً الى الانحناء هيبة ووقاراً لجلال

ذهبت ترقبُ بالبُرج الأَثرْ تُصعِدُ الأَنفاسَ عن هامِي العِبَرْ.
داسَ بالأَعتابِ واقتصَّ الخبرْ: ١

« اينَ ياهذي النِسا ، قلنَ لنا : أندروماخُ مضت أيَّ قبيلْ ؟

●

هل الى بعضِ بيوتِ الأَخواتْ، او نِساءِ الإخوةِ المستَعْصِماتْ ؟
أو الى الهيكلِ تُلقِي الدعَواتْ

معْ بناتِ الحيِّ تبغي المدَدا ، حيثُ يَستمدِدْن بالدمعِ اليدا
من اثينا،خوفَ كرَّاتِ العدى؟»

قلن: «لم تذهبْ الى الأَهلِ، ولا ذهبت قَلبَ أَثينا تستَمِيلْ .

●

قد بَغَيتَ الحقَّ ، والحقُّ يقالْ، فَهْيَ في السُورِ بِبِلبَالٍ وَبالْ ،
علِمت في قومِنا حــلَّ الوَبالْ .

فرأَيناها جَرتْ نحو الحصُونْ جريَ من داهَمَهُ مَسُّ الجنونْ ،
تَصحَبُ المُرضِعَ والطِفلَ الحنونْ . »

هكطور وكال اندروماخ .

١ — اي توطئة اجمل من هذه التوطئة للقــاء الزوجين ! فهو يسعى متقصيــاً كالبرق الخاطف ، غير لاه عن دواعي الذود عن الوطن ، لا يطمح الا في التزود بنظرة قبل الهلاك ، وهي تجري مخلوبة الفؤاد ، تستطلع من المشارف ، غير عابئة بتهافت نسوة البلاد الى المعبد ، فكأنما زوجها معبودها الاعظم ، لا مطمع لها في الدنيا والآخرة الا بسلامته وسمو مكانته .

فانثنى هكطورُ من حيثُ مضى ، وعلى الفورِ جرى ،والصبرُ عيلْ.[١]

•

بين اسواقٍ بمَرصوفِ البِنَا ، أَسرَعَ السيرَ ؛ وللبابِ دَنا .
فهنـــا زَوجَتُـــهُ ذاتُ الغنى
. . . . أَقبلَت تصرخُ بالقَلبِ الذليلْ

•

مَعَها المرضِعُ والطِفلُ الوضيعْ ، ساطعاً بالحسنِ كالنجمِ البديعْ ،
استياناساً يسمّيه الجميــع .[٢]
اذ ابوهُ ذادَ عنهم أَجمعا ، انما هكطورُ ، والبِرَّ رعى ؛
اسكمندريوساً الطفلَ دعـا ؛[٣]

---

١ — لم يثبط هكطور شغفه بامرأته عن ادكاره حرج موقفه ، ووجوب عودته فوراً ؛ فانثنى من حيث اتى متصبراً . ولم يضع الوقت بالبحث عنها . ثم جمعته بها الصدفة دون زيادة التحري . ولا يخفى ما في ذلك من تنبـه الشاعر الى توفية حقوق الهمم الشماء والعواطف الغراء في آن واحد .

٢ — استياناس معناه ملك المدينه . كذا دعا الطرواد المولود اعترافاً بفضل الوالد .

٣ — اسكمندريوس نهر طروادي كان من جملة معبوداتهم ، ويدعى ايضاً زنتس اي الاصفر لصفرة مائـه ، ويقال له الآن « قرق كوزلر » اي الاربعون عيناً . سمى هكطور ابنه باسمه تبركاً به . — انه لامر طبيعي في كل ملة ان يرمى بالاسماء الى مغامز مقصودة ، او آلهة معبودة ، او صفات محمودة ، او رجال معدودة . وقد جرى العرب مجرى غيرهم فقالوا عبد اللات ، وعبد العزى ، وعبد مناف ، وعبد شمس ، وعلي ، وعباس ، وهمام ، وهلم جرا ، على انهم تفردوا بامر قل من جاراهم فيـه وهو التسمية بمستقبح الاسماء ككلب وكليب ، وذئب وذؤيب ، وضبع وضبيعة ، وزبالة ، ومرار . ولقد تأول الناس في ذلك تأويلات مختلفة احسنها ما

فاليـــه باسماً سرًّا رنـا ، وانبرتْ زوجتُه الدمعَ تهيل :

•

يا شقيَّ البختِ ، ذا البأسُ الوخيمْ سوفَ يُلقِيكَ بلُجّاتِ الجحيمْ ؛
وَلِيَ الإرمالُ ، والطفـــلُ يتيمْ
سوف تلقاكَ جماهيرُ عِداكْ ، وتلقّيكَ مَضاضاتِ الهلاكْ ؛
فلمن ابقى ، اذا متَّ ، سواكْ ؟
آهِ لو أُلقى الى جوفِ الثرى ، قبل ان تُلقى على الارض قتيلْ .

•

إن تموتنَّ ، الاسى يخلدُ لي ، وَعَنا النفسِ ودمعُ المُقلِ ،
لا ابٌ اسلو بــه ، لا امٌّ لي
. . . . انتَ امّي ، واخي ، أنتَ ابي ،
انت بعلي ، انت كلُّ الأربِ ،
انت كلُّ الأهلِ لي ، اذ انت حَيّ ؛ آهِ ، فارحَمْ وانعطِفْ رِفقاً عَليّ ،
آه ! فارفِق بي ، وبالطفل لدَيْ !
(انـا لا اطمَعُ ان تأْبى الوغى وعن الهيجاءِ جُبنـــاً تستقيلْ

•

روي من حديث اعرابي ، اذ سئل فقيل له : لمـــاذا تسمون عبيدكم باحسن الاسماء كجوهر ومرجان ولؤلؤ ومسرور وابناءكم باقبحها كغضبان ومرار وكلب وذئب ؟ فقال : عبيدنا لنا وابناؤنا لاعدائنا .

انما ارغبُ أن تَحمي الذِمارْ وتقي نفسَك من شرّ البوارْ)
فهنـــا السورُ تداعى للدمارْ ،

فبغَاهُ كلُّ ذي عزمٍ وباسْ ، كذيوميذٍ وأتريـذٍ أيـاسْ ،
وثلاثاً كـادَ يندكُّ الأَساسْ .

لست أدري هل أتوه عن هوى ، أولهم قد كان في الوحي دليلْ ؟

•

قُربَ تين البرّ ، فوق البرج ، قَرْ وتَحَفَّظْ فيــه من شرّ أمرّ
فَلَكَ النجوُ ، (وللجيشِ الظَفَرْ)

«وليَ السلوى،وللطفلِ الرجا . »[١] قال: « ما يُشجيكِ يُولِيني الشجا»
انمـــا الموقفُ أَضحى حَرِجا

نَزَلَ الروعُ ، وبي العزمُ أَبى أنْ يكونَ الروعُ في القلبِ نَزِيلْ

•

١ – لقد طرقت اندروماخ كل باب يطرق لامساك هكطور عن الالقاء بنفسه الى التهلكة ، دون ان تعبث بهمته وبمنزلته . فهاجت فيه عواطف الحنان ، وذكرته بما الم بآل بيتها من المحن . ومثلت له حبها له وتعلقها به وحذرته من عواقب مقتله اذا قتل . ولم يكن بالشيء اليسير ان يغادر امرأته أيماً وطفله يتيماً . ثم حسنت له ان يقي ثغرة السور من هجمات الاعداء ، وذلك موقف لا يقفـه الا الابطال الاشداء . فلا يكون فيه غض من شأنه ، كما قال هوميروس ضمناً ، وقلناه بالتعريب صراحة ، خلافاً لما توخيناه من نبذ التصرف . وعلى الجملة فقد انطقها الشاعر بما ليس في التصور ان تنطق باحسن منه زوجة قدرت قدر الرجال ، وتوفرت لديها رقة العواطف وطيب الخلال .

بين أقوامي وربّاتِ السُدُولْ ، [١] لستُ أرضى العارَ إنْ تَعلُ النصولْ ،

او عنِ الهيجاء يَثْنيني الُخمولْ ،

وأنا دَوماً بصدرِ الفَيلَقِ ، شأنَ فِريامٍ وشأني أتّقي ،

وأقي قومي بجِدٍّ المِخفَقِ .

آه لكنّ فؤادي ، والِحجَى يُنبِئاني أنّ صمصامي كليلْ

❁

سوف تَندكّ بإليونَ القِلاعْ ، وتُوافينا المُلمّاتُ الفِظاعْ .

---

١ — وفي الاصل : « بين الطروادين والطرواديات الطويلات النقاب » . ينبئنا هذا ، وذكر مقانع ايقاب ، وبرقع هيلانة ، وبراقع النساء والربات في مواضع اخرى ، انهن استعملن النقاب لذلك العهد . ويؤخذ من كل هذا الحديث انهم كانوا يحرصون على احراز الاستحسان من ربات الجمال حرصهم على احراز المكانة بين الرجال . وذلك أمر فطري لم تكد تعبث به ، والحمد لله ، معدات الحضارة . ولو لم يكن للنساء من فضل على الرجال الا دفعهم للبروز لديهن باسمى المظاهر لكفى . افلا ترى انهن وان كن في الجاهلية لم يشددن الا قليلاً على الفرسان بالصارم والسنان فقد شددن من وراء رجالهن عليهم بالمنطق الفتاك واللحظ الفتان ، واستنفرنهم استنفاراً لا يستنفره صديد الفيالق وهديد الفرسان . او لاتخال داود ، والبنات يغنين حوله ، بعد فتكه بجالوت او جليات ، أملأ فؤاداً بهن منه بتطواف الجند وتسنم ذرى المجد . او لا تحس من السموأل خشية من ذرابة منطقهن ، فوق خشيته من المناصل والعوامل حتى ادرأ ازدراءهن بكل ما خوله الله من بلاغة المنطق وفصاحة اللسان ، واجهد النفس في دفع مظان « معيرته » . ولو كان المعير ذكراً لخلته اجتزأ له بالمجافاة او المهاجاة . ثم اذا تصفحت ديوان عنترة لا تكاد تجد له قصيدة تخلو من ابيات يوجه فيها الخطاب إلى عبلة فيقول قول هكطور لاندروماخ . ومما يحسن ايراده هنا قول عبد يغوث بن وقاص ، فارس بني الحارث ، وهو يتغنى ساعة موته :

وقد علمت عرسي مليكة أنني انا الليث ، معدوا علي وعاديا ؛
وكنت ، اذا ما الخليل شمصها القنا ، لبيقاً بتصريف القناة بنانيا
وعادية سوم الجراد وزعتها بكفي وقد انحوا علي العواليا ... الخ

كلُّ هذا منه قلبي لا يُراعْ

لا اذا أُمّيَ في التُرْبِ ثَوَت ، او ابي من دمه السُمرُ ٱرتوَت ،
او رميمَ الاخوةِ الأَرضُ احتوَتْ
لا اذا الطرواد بادوا ، واذا خرقَ الزرقاءَ للجوِّ العويلْ .

•

بيدَ انَّ الخطب ، كلَّ الخطبِ ، آه ! ان تكوني في سبيّات العِداهْ ،
تذرفينَ الدمعَ عن مرِّ الحياهْ !
تَستقين الماءَ ، كالعبدِ الأَسيرْ ، من مِسيسٍ او يَنابيعِ هِفيرْ ،
تَنسجينَ القطنَ ، والقلبُ كسيرْ .
كلُّ بؤسٍ ، كلُّ رُزءٍ وعَنا ، كلُّه ، إنْ حلَّ ذا الرُزْءُ قليلْ

•

كلُّه لا شيءَ إنْ صَح الصَحيحْ ، ولديهم كنتِ ، والدمعُ يَسيحْ ،
والذي يلقاكِ بي هُزءًا يَصيحْ :
«تِلكُمُ زوجةُ هكطورَ الشديدْ ، خيرِ ما في القومِ من قَرمٍ عَنيدْ ،
كم له قَرعٌ بدُرَّاعِ الحديدْ ،
تلَّ صدرَ الجيشِ تلاًّ ، وهُنا سُبيتْ زوجتُه ، وهو تَليلْ »[١]

•

١ – تل : صرع ، والتليل : المصروع .

فتصيحينَ وتصلَينْ السَعيرْ ، تَستجيرينَ ، ولكن مَن يُجيرْ ،
إنْ يَكنْ هكطورُ في التُربِ قَبيرْ؟
فلكِ الرقُّ وانواعُ العَذابْ ، يا لُحودَ الأَرضِ ، واريني الترُابْ ،
قبلَ ان يَدْهَمَني هذا المُصابُ ؛
وأَنِلْني ، أَيُّها الخَطْبُ ، البِلى قبلما زَوجِيَ للسبْيِ تُنيلْ » .[1]

●

ثم مدَّ اليدَ للطِفلِ ، فصَدْ جازعاً ، لمَّا رأى تلك العُدَدْ ،
من نواصٍ سابحاتٍ وزَرَدْ ،
وبصدرِ المرضعِ الطِفْلُ ارْتمى ؛ فلديهِ أبواهُ بسما ،
وَبرِفقٍ عنه هكطورُ رمى
ذلك المِغفَرَ ، والطّفلُ بدا بيديهِ بينَ تَقبيلٍ يُجيلْ .

---

١ — اوليس من فضل النساء ايضاً ان يسعرن افئدة الرجال بنار الحمية والتفاني بحب الاوطان . اولا ترى هكطور ، أبسل من في القوم ، يجد من نفسه مصبراً على هلاك ابيه وامه واخوته وخلانه ولا يجد صبراً على سبي امرأته ، ولو بعد مماته ، فكيف لا يتفانى بعد هذا ولا تخط آي البسالة على صدره كل معجزة تحار لها الابصار وتتفتح لها ابواب الاقدار . وللعرب من هذا القبيل شؤون يوقف عندها اعجاباً . قال عنترة في سيرته :

فالقتل لي ، من بعد عبلة ، راحة ؛ والعيش ، بعد فراقها ، منكود .
لهفي عليك ، اذا بقيت سبية ، تدعين عنتر ، وهو عنك بعيد !
يا عبل ، قد دنت المنية ، فاندبي ان كان جفنك بالدموع يجود ،
يا عبل ، ان تبكي علي ، فقد بكى صرف الزمان علي ، وهو حسود .
يا عبل ، ان سفكوا دمي ، ففعائلي في كل يوم ذكرهن جديد .

ودعا يَسألُ أسيادَ الأنامْ : « أنت، يا زَفسُ، وأَرباباً عِظامْ،
عونَكمْ أسألُهُ في ذا الغُلامْ ،
فليكنْ مِثليَ هصَّارَ الأسودْ ، وهوَ في إليُونَ، بالبأسِ يسودْ؛
واذا من موقِفِ الحربِ يَعودْ ،
فَليُقَلْ : فوقَ أبيهِ قد سما ، سلَّ سيفَ الفوزِ، يا نِعمَ السَليلْ!

●

وليُجندِلْ كلَّ جبَّارٍ أبيّ ، فائزاً منه بِحُرِّ السَلَبِ ؛
تتلقَّاه ببادي الطَرب
أُمه جاذِلةً مما ترى . »[١] ثم أَلقاه لها مُستبشِرا ،
وَهْيَ ضمّتهُ لصدرٍ عُطِّرا .
بَسمَتْ باكيةً ، وهو رَنا مشفقاً ، ينظرُ للطَّرفِ البَليلْ .

●

ثم ناداها ، وقد رامَ العَجَلْ : «لا يَشقّ الأَمرُ ، لا يَعْنُ الوَجَلْ!
ليس موتٌ قبل ادراكِ الأَجَلْ .[٢]

---

١ — قبل هكطور طفله ودعا له دعاء الاب الشفيق . ولم يفته ، عند استتمام الكلام ، ان يدعو بما يطيب قلب امه . كل هذا تمثيل تام لما اتصف به من صدق النية وحسن الطوية . اما دقائق ذلك المشهد من اولها الى آخرها فحسب المطالع ان يمعن النظر فيها كما قدمنا ، فلا تخفى عليه خافية من بدائعها وتنسيق وقائعها .

٢ — من الآيات القرانية : « حيثما كنتم يدرككم الموت » ، و« اذا جاء اجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون . » ومن كلام الامام علي بن ابي طالب :

كلُّ صِنديدٍ ورِعديدٍ جَبانْ ، مُذْ تَبدَّى بوجودٍ للعِيانْ
ليس يَنجو من تقاديرِ الزمانْ
ولكلٍّ عملٌ . فٱمضي ، كفى. واطلُبي أعمالَ ربّاتِ السديلْ

•

فلكِ النسجُ وفَتلُ المِغزَلِ ، ولنا إعمالُ سُمرِ الذُّبَّل ، ١
وانا الإيقاعُ بالأَبطالِ لي . »
لبسَ المِغفَرَ حالاً ، ووثَبْ . ومَضت تَلفُتُ من حيثُ ذَهَبْ ؛
تذرفُ العَبرةَ ، والقلبُ التهَبْ ..
دَخلَتْ للصَّرحِ ، يوليها الشَجا زفراتٍ أشجَنَتْ كلَّ الدَخيلْ .

•

فعلا بينَ جواريها النحيبْ ، حينَ أبصرنَ بها ذاكَ اللهيبْ ،
عمَّتِ الأحزانُ في القصرِ الرحيبْ .

« الموت طالب حثيث لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب . » وللشعراء اقوال كثيرة بهذا المعنى . قال المعري :

والنفس تبغي الحياة جاهدة ، وفي يمين المليك مقودها ،
فلا اقتحام الشجاع مهلكها ، ولا توقي الجبان مخلدها ،
لكل نفس من الردى سبب ، لا يومها بعده ولا غدها ،

١ — اختتم هكطور كلامه بتنبيه زوجته الى تعهد شؤونها . وهو كلام ، على ما فيه من الرقة ، يشير الى انكار الرجال على النساء تطلعهن الى اعمالهن . قال الخليفة الهادي لامه ، وقد دخلت عنده في حاجة : « ما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك ؟ اما لك مغزل يشغلك ، او مصحف يذكرك ، او بيت يصونك ؟ اياك ! اياك ! لا تفتحي بيتك لمسلم ولا ذمي » .

هو حيٌّ ، وتعمَّدنَ الحِدادْ ، اذ توَقَّعْنَ له وقعَ الصِعادْ ، [١]
لم يُؤَمِّلنَ له حُسنَ المَعادْ .
لم يُقَلْ بَعدُ أَبادَتْهُ العِدى ، انما نُحْنَ ، كما لو كان قِيلْ . [٢]

النشيد الثامن

مجلس الآلهة

كثر تدخل الارباب في سياق الحرب بين الفريقين . فعقد زفس مجلس الآلهة ، يعلن فيه بتهديد ووعيد قضاءه بعدم التحرك لنجدة اي الفريقين . ولكنه اذن لأثينا بمؤازرة الاغريق برأيها فقط .

كسا الفَجرُ وجهَ الأرضِ ثوباً مُزَعفَرا
وزفسُ أبو الأهوالِ في ارفعِ الذُرى [٣]

١ — الصعاد : ج . صعدة : سنان الرمح .

٢ — وفي سيرة عنتر :

لقد ودعتني عبلة يوم بينها وداع يقين أنني غير راجع

٣ — فصلنا في المقدمة أسباب تنويعنا النظم في ترجمة الالياذة . وقد نحونا في هذا النشيد وبضعة اناشيد اخرى ، نحواً جديداً عسى ان يروق المطالع اللبيب ».

من محاسن لغتنا العربية اتساعها لتأدية المعاني الفطرية ، وان ضاقت دون الكثير من التعبيرات العصرية . وهي ، بهذا المعنى ، مخالفة للغات الافرنج : فتفضلهن في التعبير الجاهلي والوصف الفطري القديم ، ويفضلنها في التعبير المدني والوصف العصري الحديث . ولهذا كانت اصلح منهن لترجمة منظومة كالألياذة كما ابنا في المقدمة , والداعي الى هذا التنبيه افتتاح الشاعر نشيده بقوله : « كسا الفجر وجه الارض

على قِمَّةِ الاولمبِ ، تُصغي مَهابةً لمنطقِهِ الاربابُ ، أَلفَ مَحضَرا.
فقالَ : « لِيعلَمْ كلُّ ربٍّ وربَّةٍ بما اليومَ في صدرِي فؤادِي أَضمَرا.
فلا يَنبذنَّ الأمرَ عاصٍ ، بل اذعنوا لأُنفِذَ ما أبرمتُ أمراً مقدَّرا .
لنصرةِ أيِّ القومِ من يجرِ منكمُ يأُوبَنَّ منكوباً يُخَضِّبُهُ الدمُ .
وإلاَّ فمِن شُمِّ الاولمبِ براحتي إلى الظُلُماتِ الدُهمِ يُلقى ويُرجَمُ[١]
إلى حيثُ أبوابُ الحديدِ قد استَوتْ على عَتَبِ الفولاذِ ، والقعرُ مُظلِمُ ،
إلى هوةٍ بين الجحيمِ وبينَهـا مجالٌ كأقصى الجوِّ عن أسفَلِ الثرى

فتدرونَ كم بالطولِ أسمو وأشرُفُ ،

وإن شِئتُمُ ، فابلُوا الحقيقةَ تَعرفوا ،

ثوباً مزعفراً » فان بعض نقلة الأفرنج استصعبوا تأدية هذا المعنى بلغتهم شعراً ، بناء على ان لفظة الزعفران لا تقع وقعاً حسناً في نظمهم فاضطروا الى ان استبدلوا بها لفظة الورد وما ماثلها ، فحادوا بالمعنى عن وضعه المقصود ، مع كل ما فيه من بلاغة التشبيه . فعربيتنا والحمد لله لا تضطرنا الى مثل هـذا التكلف . وشعراؤنا الاقدمون تفننوا في وصف الطبيعة تفنناً لم يسبقهم اليه السابق ، ولم يفقهم فيه اللاحق . ونفس هذا التشبيه وارد في الكثير من شعرهم . قال المعري وابدع :

طلعت عليهم ، واليوم طفل كأن على مشارفه جسادا

والجساد هو الزعفران ، كما لا يخفى . وفي بيت المعري زيادة في المعنى على بيت هوميروس في هذا الموضع ، ولكنه دون قول هوميروس في مطلع النشيد التاسع عشر، اذ يقول :

ما اشتمل الفجر بثوب الجساد من يمه يبرز فوق العباد ... الخ

١ – الاعتقاد بان موضع العذاب مظلم مدلهم قديم في كثير من الاديان . ولعل اليونان اخذوه عن المصريين .

وأرخوا من الزرقا سلاسِلَ عسجَد
وكلكمُ في مُنتهاها تألَّفوا ،
فلن تبلغوا من زفسَ ، وهو وليُّكُمْ
مَنالاً ، وإن تعنوا ، وإن تتكلَّفوا .
ولكنني أيّانَ شئتُ جررتُها ، ومن دونكم أجترُّ ارضاً وأبحرا.[١]

١ — لا صورة شعرية في كل منظومات هوميروس تناولتها أيدي الشراح تناولها لهذه الصورة البديعة . وقد رمى بها الشاعر ، على ظاهر العبارة ، الى المغالاة بعظمة زفس واقتداره . فعلق بها المفسرون ، فقدحوا زناد الفكرة وتأولوها تأويل ضربوا بها كل مضرب . قال أفلاطون : رمز الشاعر بتلك السلسلة الذهبية إلى الشمس ، فبأشعتها يتماسك الكون وتحيى الطبيعة . وروى افستاثيوس ان زفس في معتقد بعض الاقدمين ، انما هو الجلد ، والسلسلة الشمس . فاذا امسك زفس بها عجزت الارباب طراً من زحزحتها . اما هو فلا اهون عليه ان يجتذبها ويجتذبهم مع البحار والارضين ، ويبطل حركة العالم ؛ كما ان الجلد يخفف الحرارة من اشعة الشمس ، ولولا ذلك لجففت مياه البحار ، فتصاعدت بخاراً وطردت الرطوبة من جوف الارض ، فوقفت حركة العالم ، وتلاشت كل قواه . وزعم القدريون ان المراد بزفس القضاء المحتوم لا مرد له ، مهما تألب عليه من قوى السموات والارض . وذهب آخرون الى ان حلقات السلسلة عبارة عن ايام العالم تتعاقب بنور الشمس الى ان تنتهي . اما زفس ، وهو الجلد ، فلا يعبث ولن يعبث به عابث ولا باعث . وجاء في الرموز الهوميرية لهيرقليد انه أشير بالسلسلة الى دوران الكواكب حول الارض والسيارة حول الشمس . فهوميروس اذاً هو الذي ارشد كوبرنيك الى معرفة النظام الشمسي . وهو قول بعيد الاحتمال بعد الشمس . ولو اذن لنا ان نستنبط مغزى رمزياً لاستنبطناه ، والقينا دلونا بين الدلاء . ولكننا نعترف بالعجز عن ادراك مراد الشاعر ، لو كان الامر مراد خفي . واذا توخى هوميروس الرموز في بعض اقواله ، جرياً على عادة اسلافه ، وقدماء المصريين ، فليس من اللازم ان يكون كل كلامه رمزاً او لغزاً . ثم انه ، بصرف النظر عن التأويل والتفسير ، نراه قد اوضح رجحان زفس على سائر المعبودات ، ورسم لذلك الرجحان صورة شعرية يحار الشعور لتصورها ، فلم نخرجها تخريجاً علمياً ، ونخسرها الرونق الشعري . ولم لا نقول قول لوبريفوست **ان الشاعر** لم يقصد بما قال الا ما قال على ظاهره ، وكفى به اعجازاً وايجازاً .

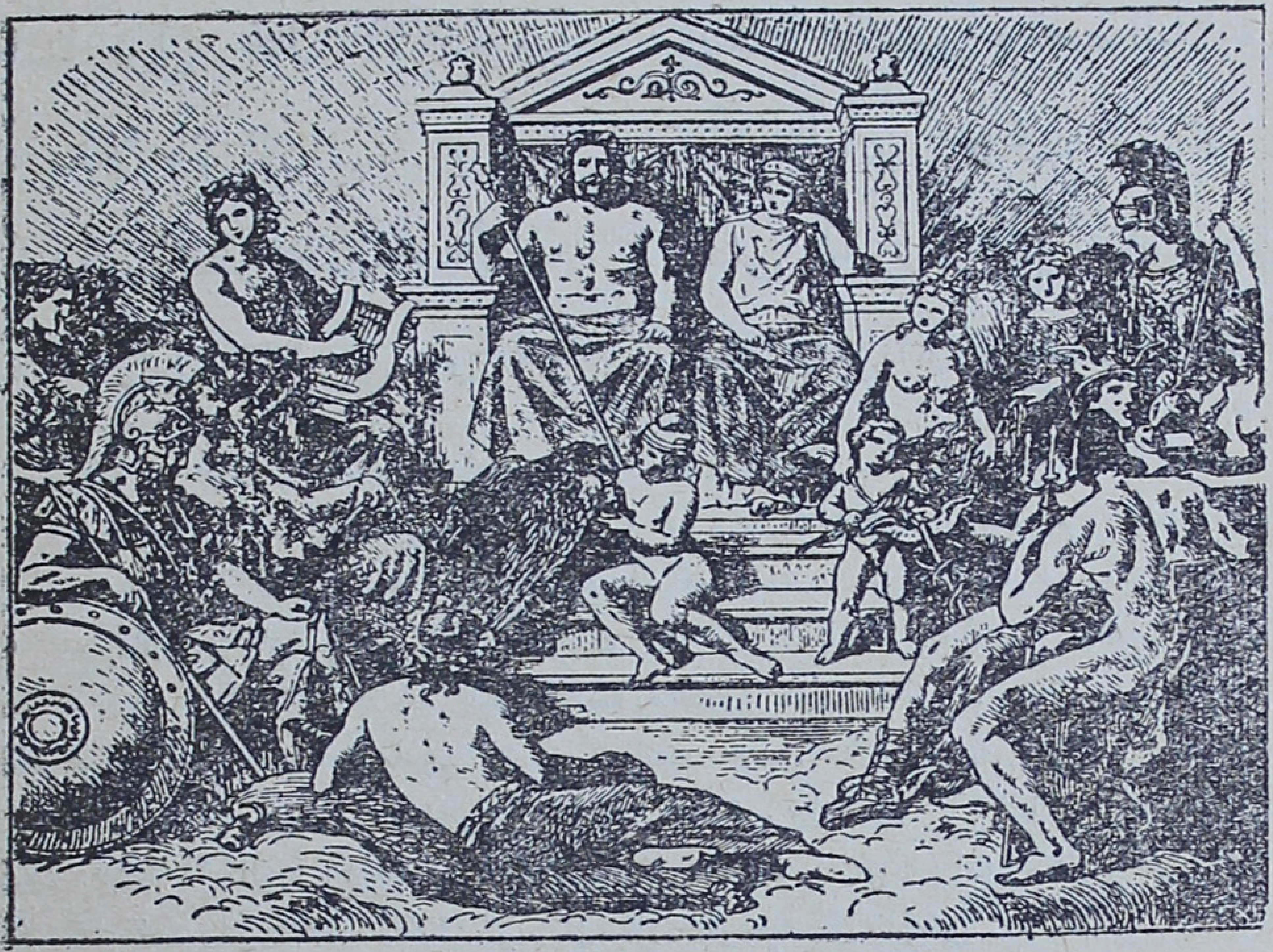
ومن حولِ أولمبي الرفيعِ أُديرُها ، يُعلَّقُ فيها الكونُ ، وَهْوَ أسيرُها.
فيعلمُ كلُّ الجنِّ والإنسِ مَبلَغي من الطولِ ، والأكوانُ أُني اميرُها.» [١]
أصاخوا سكوتاً ، حرمةً وتهيباً . فقالت أثينا ، يستفيضُ زفيرُها :
« أجل ، أبتا ، يا قيِّمَ القومِ جملةً قواكَ ، علِمنا ، لن تَدينَ وتُقهرا.
ولكنَّنا نَرثي لحالِ الأغارقِ يُبيدُهُمُ المقدورُ ، تحتَ اليلامقِ. [٢]
أطعنَا . فلا نأتي النزالَ . وإنَّما نمدُّهُمُ بالرأيِ خوفَ البَوائقِ . [٣]
وإلا فهذا السخطُ يَجتثُّ أصلَهُم.» فَبَشَّ لها يرنو مُثيرُ الصَّواعِقِ .
وقال: « لئِنْ راعتكَ مني صرامةٌ ، فعنكَ جميلَ الرِفقِ لستُ لأذخرا» [٤]

١ — كان هوميروس يدون اساطير زمانه ، ويتحدى صدق الرواية . وكلامه الحجة الوثقى في تاريخ بلاده وآدابها ، وعلومها ، ومعتقداتها . ولقد مر بنا الجانب الاوفر من معتقدهم الخرافي مما نبهنا عليه في مواضعه . على اننا لم ننبه بعد الى انهم ، مع وفرة اضاليلهم ، كانوا يذهبون الى ان العظمة والجلال والقدرة والكمال لاله واحد . فنسبة سائر الآلهة اليه كنسبة المخلوق الى الخالق . ولا ريب ان هذا الاعتقاد قرب على افهام عقبهم ادراك مواعظ بولس الرسول ، وهو يدعوهم الى النصرانية ، ويمثل لهم ، من الربوة المحاذية للأكروبول في آثينا ، ومن مواقف اخرى ، عظمة الخالق ووحدته . اذ يؤخذ مما تقدم انهم وان كانوا مشركين كل الاشراك في الصورة ، فقد كانوا موحدين كل التوحيد في المعنى .

٢ — اليلامق : ج . يلمق : وهي معربة عن يلمه بالفارسية .

٣ — لم يكن احد احق من آثينا بالجواب على كلام زفس . فالحكمة تلطف سورة الغضب ، وتخفف وطأة القضاء ، وان لم ترده . ولو بقي الجميع صامتين ، لانقطعت حلقة ذلك المجلس .

٤ — كان كلام آثينا عبارة عن استعطاف واسترحام . فهش لها زفس وبش . ولا يخفى على المتأمل في كل اناشيد الالياذة ان للدعاء والصلوة دخلاً فعالاً في تفريج الازمات ، واستدرار الخيرات ، وحيثما بوشر امر بلا صلاة ونذر ، فالعاقبة بلاء عميم وشر عظيم .



مجلس الآلهة

النشيد الثاني والعشرون

مقتل هكطور

انهزم الطرواد بعد حملة أخيل عليهم ، فدخلوا المدينة ولم يبق خارج الاسوار الا بطلهم هكطور الذي أبى أن يستجيب لتوسلات امه وأبيه تدعوه لاتقاء الخطر ، واشتد انقسام الالهة بين البطلين فأخذ زفس ميزانه الذهبي ووزن حظهما بالحياة ، فرجحت كفة أخيل مما افسح المجال أمام اثينا لتتمثل بزي أخ لهكطور يشجعه على لقاء أخيل . واذ اطلق هكطور رمحه ولم ينل من خصمه أرباً ، التفت الى أخيه فاذا به قد توارى . فعرف الخدعة واستبسل وقاتل حتى خر صريعاً .!

---

١ — لكل نشيد من اناشيد الاليـاذة مزية يمتاز بها عن سواه . ولهـذا النشيد مزيتان كبيرتان :

الاولى انه بيت قصيد الالياذة ، يتضمن اهم حوادثها . فكل مـا تقدمه توطئة له ، وكل ما وليه ذيل . بنيت الرواية على غضب آخيل وكيـده ، ويتلو ذلـك في الخطورة مقتل هكتور . وكلا الامرين باديان فيه باجلى بيان .

والثانية : انه جمع بين السهولة والبلاغة والشدة والرقة ، واحاط بكل ما يتسنى للمخيلة ان تدركه في جميع الابواب التي طرقها الشاعر . فبينا تراه يصعد الى قمم الهام المنتصبة على الهمم الشماء ، اذا به ينحدر الى اعماق القلب ، فيثير العواطـف ويهيج البكاء . ولهذا قال كثيرون : انه اجمل الأنشاد .

ولست ارى نشيدا يصلح مثله ان يكون منظومة مستقلة لا تفتقر في تلاوتها الى

قَضيضُ الجيشِ ، مُذ ذُعِرا ، هَزيماً كالظِبا نفرا [١]
الى إليونَ ،حيثُ هُناكَ خَلْفَ حِصارِهِ انحصرا.
يُجفِّفُ ، في ظِـلال قلاعهِ ، عَرقاً به سَبَحَتْ
كتائِبُه ؛ ويَروي غُلَّةً فيهـا قد استعرا .
وَراءهُمُ الأَخاءَةُ ، والَجواشِنُ في عَواتِقِهِمْ ، [٢]
جَرَوا . لكنَّ هَكطوراً تَربَّصَ يرقُبُ القَدَرا ؛
لدى أبواب إسكيَّا ، قضاءُ الشُؤمِ ثَبَّطَهُ .
وبابنِ أَيَاكَ آفُلُّونُ أحدقَ يَصدُقُ الخبَرا : [٣]

•

« علامَ ، وأنتَ من بشرٍ ، جريتَ تجُدُّ في أثري ؟
أتجهلُ أَنَّني رَبٌّ ، فثُرتَ بلاهبِ الشَّرَرِ ؟
تَركتَ هناك طُرواداً تَفِرّ الى مَعاقلها ،
وجئتَ هنا؟فلا،لا ، لَن تفوزَ ، تعستَ ! ،بالظَّفَرِ ؛

ما قبلها وما بعدها . فاناشد المطالع اللبيب ، اذا وقع نظره على هذه الحاشية ، ان يتصفح هذا النشيد دفعة واحدة من اوله الى آخره فاذا صدق ظني به ، وظني انه يصدق ، فليقل : لله در هوميروس على هذا الاستنباط البديع الغريب ! وإلا فليقل : سامح الله الناقل ! فقد قصر في التعريب .

١ — قض : الجيضيش : كله ، مجموعه .

٢ — الاخاءة : اليونان . الجواشن : التروس .

٣ — أياك : جد آخيل كثيراً ما يعرفه الشاعر به . آفلون : الاله ، يخاطب آخيل الذي كان لاحقاً به يريد قتله لأنه ساعد الطروادين على اللجوء الى حصونهم .

فلستُ بمائتٍ أبداً . » فقـــال أخيلُ متقدا :
« أزَجّاجَ السِّهامِ ، وشرَّ آلِ الخُلد والكِبَرِ ،
أرى أنْ نأْيتني عن سُورهم مكراً ، وإلاّ كَمْ
فتًى عَضَّ الحضيضَ قُبيلَ ما بحصارِهِ استترا .

●

بِغدرِكَ ، للحمى دخلوا ؛ ومجدي شَابَهُ الخَلَلُ ؛
ولم تخشَ العِقابَ ، فآهِ ! لو بكَ كان لي قِبَلُ ! »
ونحوَ السّورِ راحَ بكِبْرِهِ يسعى ، كلِهميمٍ
مُجَلٍّ بالعِجالِ ، طوى المجالَ ، وَفاتَهُ المَلَلُ . [١]
وكانَ الشّيخُ فِرْيامٌ على الأبراجِ يَرقُبُهُ ؛
فلاحَ له بِكَرَّتِهِ ، عليـــه تَسطعُ الحُلَلُ ،
ككوكبةِ الخريف، إذا بِدَيجورِ الدُّجى ظَهرتْ ،
تخـــالُ الزُّهرَ لا نورٌ حواليها لها ظَهرا .

●

(دَعوها الكَلبَ جبّارًا ، لِما عن شُؤمهـا دارا .
توُّجٌ ، وإنّما يَصلى الورَى من حرِّهـــا نارا .)

١ — اللهميم : الجواد المبرز في الرهان . والمجلي : السابق .

فأنَّ الشَّيْخُ مُلتَطِماً ، ومدَّ يدَي ضراعتهِ ،
وهكطورَ الحبيبَ دعا ، ووجداً قلبُه فارا .
ولكنْ ظلَّ هكطورُ لدى الأبواب مُحْتدِماً
لحربِ أخيلَ مُضطرماً ، لِيَدْرَأَ باللِقا العارا .
فمدَّ أبوه كفَّيهِ اليه ، وصاح مكْتئبا :
« حبيبي لا تَقُمْ فَذًّا لآخيلٍ فتندحرا .

•

فلُذْ للسّور ، لُذْ عَجِلا ، حبيبي ، واتّق الفَشَلا ؛
وذُدْ عن جندِ طُروادٍ ، ونِسوةِ جندها النُّبلا .
ولا تتعرَّضَنَّ إلى الحِمام بوجهِ آخيلٍ .
فتُلبِسهُ حُلى المجدِ الأَثيلِ ، ويبلغ الأملا ...

•

لَئِنْ ماتَ الفتى الجَلْدُ ، وفيهِ أُنفِذَ الحدُّ ،
صريعاً ، ظلَّ ، لكن جلَّ فيه الحسنُ والمجدُ .
ولكن، حيثُ شيخُ العَجزِ حُرمَتَه قد انتَهكتْ
كلابٌ دُسنَ شَيبَتَهُ وناصعَ لحيةٍ تبدو ،
فتلكَ النَّكبةُ الدَّهماءُ ، لا رُزْءٌ يُشاكِلُها

بِمَرءِ البؤس ، ما اشتدَّت به أرزاؤهُ الأُدُّ . » ١

وظلَّ ينوح مُصطلماً بكفّي عجزهِ شَعَرَا ،

وهكطورُ يصدُّ كأنَّهُ بأبيه ما شَعَرا .

•

هنالك أمهُ اندفعتْ بهاطلِ عَبرةٍ هَمَعتْ ،

لديه صدرَها كشفتْ ، وثَديَيها له رفعتْ ،

وصاحت : « آه ! هكطورُ بُنيَّ أرفقْ بوالدةٍ ،

وهذا الصَّدْرَ فارعَ فكم بعهد صباكَ قبلُ رَعَتْ

---

١ — مهما قيل في استعطاف اب لابنه لا يمكن ان يقال ابلغ من خطاب فريام لهكطور . ملك كبير ، وشيخ هرم ، ذو بسطة وجاه وسلطان ، برحت به الايام فهدت اركان همته وعزيمته وقوضت دعائم مجده ، وناطت بقية آماله بولد يراه على قاب قوسين او ادنى من الموت الزؤام ؛ ومن وراء ذلك دك البلاد والفتك بالعباد ؛ فتتوالى عليه الذكرى لما سلف ، ويأخذه الاشفاق من الخطب الفادح القريب ، فيجمع بقية حواسه وينهض لدرء الخطب ، وقلبه يتلظى تلهفاً على ابنه ومحط آماله ، ثم على آله وبلاده ونفسه . فيشرع في تحذير هكطور من خصمه الباسل ، ولا يكاد يذكر اسم ذلك الخصم حتى تتوارد على خاطره سوابق فتكه ، فيتوجع ويتفجع ويتمنى لو راحت جثته مطعماً للطير والكلاب . وهو ، على كل ما ناله من المصاب ، يرى سبيلا الى العزاء ، اذا نجا هكطور من ذلك المأزق الحرج . ولما كان فريام على يقين ان هكطور لا يرضى عار الاحتجاب ، ولو انتصب له الموت ، التمس له عذراً عظيماً بان في لياذه الى السور شرفاً أرفع ومجالاً اوسع لابراز بأسه وقوة ساعده ، حيث يقيم مقاتلا فيذود عن البلاد والجند ، ويحفظ الاهل والولد . وشرح له بعد ذلك ما يكون من عقبى عناده ، لو بقي خارج السور . واتى بكلام يخرق اللب على وصف ما يؤول اليه امر المنازل والمعاقل والبنين والبنات والاطفال والكنات . ثم اخذ في رثاء نفسه ووصف مآل امره ، لما يعلم من حب هكطور له وبره به . واختتم بتلك المقابلة الفريدة بين هلاك الفتى قتيلا خالد الاثر رفيع المنار ، وهو يذود عن الاوطان ، وموت الشيخ ذليلا مغلول الذراع باكناف الديار ميتة الضعة والهوان .

وهذا الثديَ ، فاذكر كم رَضعتَ فنمتَ مُبتهجاً ؛
تعالَ ، تعالَ ، فالأسوارُ في وجه العِدى امتنعَتْ ،
إليها لُذْ ، وقاتِلْ ذلك العاتي بِستْرِتِها .
ولا تتربَّصنَّ له وحيداً ، واتَّقِ الخطرا .

•

فانْ دمَك السخينَ سفكْ ، فلا نَعشٌ يُهيَّأُ لكْ ،
ننوح ،أنا وعِرسُك،حوله، والحَتفُ قد صدَعكْ .
ولكن تغتدي ، عند السفائن نائياً عنَّا ،
طعاماً للكلابِ بذِلَّةٍ فيها الشَّقِيُّ هلك . » ١
كذاك كلاهما انتحبا . ولكن صُمَّ هكطورُ ،
وظلَّ بوجهِ ذاك القَرم لا يخشى عَنا ودَرَكْ ،
كأفعى الشُمِّ حولَ الوَكرِ ، نَقعُ السُمِّ في فمها ،
تُرى مُلتفةً حنقاً ، وتَقدحُ عينُها شَررا .

•

... كذلك ثار هاجِسُه ، وآخيلُ بعامله ،

١ — لئن اتى فريام بابلغ اقوال الرجال والآباء ، فقد اتت زوجته بابلغ اقوال الامهات والنساء . وكفى بكشف صدرها خطاباً ناطقاً لا تعادله بلاغة في مقال . ثم هي الام الشفيقة لا تتفجع الا على ابنها ، وما تأولَ اليه حالها من بعده ، فلا تتخطى بكلامها هذا الحد . فناحت نوح النساء ، وناح فريام نوح الرجال وحفظة الذمار والملوك الكبار .

كربٌ الحربِ ، هيّاجِ التّرائكِ ، للوغى ابتدرا .

●

بريقُ الدرعِ قد سَطَعا عليه ، كبارقٍ لمعا
تألّقَ ، او كنورِ الشمسِ في كَبِدِ السما طلَعا .
وهكطورٌ ، لرؤيتهِ ، تَقطَّعَ وَصلُ عَزْمتِهِ ؛
ففرَّ ، وخلفه آخيلُ ، طَيّارُ الخُطى ، اندفعا ، [١]
كبازٍ يطلب الوَرقاءَ ، وهي تزِفُّ هالعةً ؛
وما جارى بزاةَ الشمِّ طيرٌ في الفلا ارتفعا ؛
تَعقّبَها بصَرْصَرةٍ تُذيبُ لُبابَ مُهجتِها ،
فراغت ، وهو مُنقضٌّ بنافذِ مِخلَبٍ شُهرا .

●

كنَسرٍ من عُلى السُّحُبِ ، يَزِفُّ الى رُبى كُثبِ ،
على حَمَلٍ يَرى أو أرنبٍ في مَشعَبِ الهِضَبِ .

---

١ – قد كنت اود ان لا يشوه جمال هذا النشيد بفرار هكطور من وجه آخيل ؛ ولا اراها الا هفوة من استاذنا هوميروس ، مهما امكن ان يقال في الدفاع عنه ؛ وسبحان المعصوم . لأن بطلا كهكطور يتحرق نهاره وليله لقتال آخيل ، ثم يناجي نفسه تلك المناجاة ، ويعول على ورود كأس الحمام ، مؤثراً ذلك على الهزيمة ؛ ويتقدم لبراز خصمه . ثم ما هو ان رآه حتى فر منهزماً لا يجدر به ان يكون بمقام هكطور ؛ ولقد التمس الشراح لهوميروس اعذاراً كثيرة ؛ منها قولهم انه لو لم يكن محل لهذا الفرار لما تحداه فرجيليوس وجعل طورنوس يفر من وجه آنياس . ومع كل ذلك فما قرأت قط هذه الفكرة الا وددت ان لا تكون .

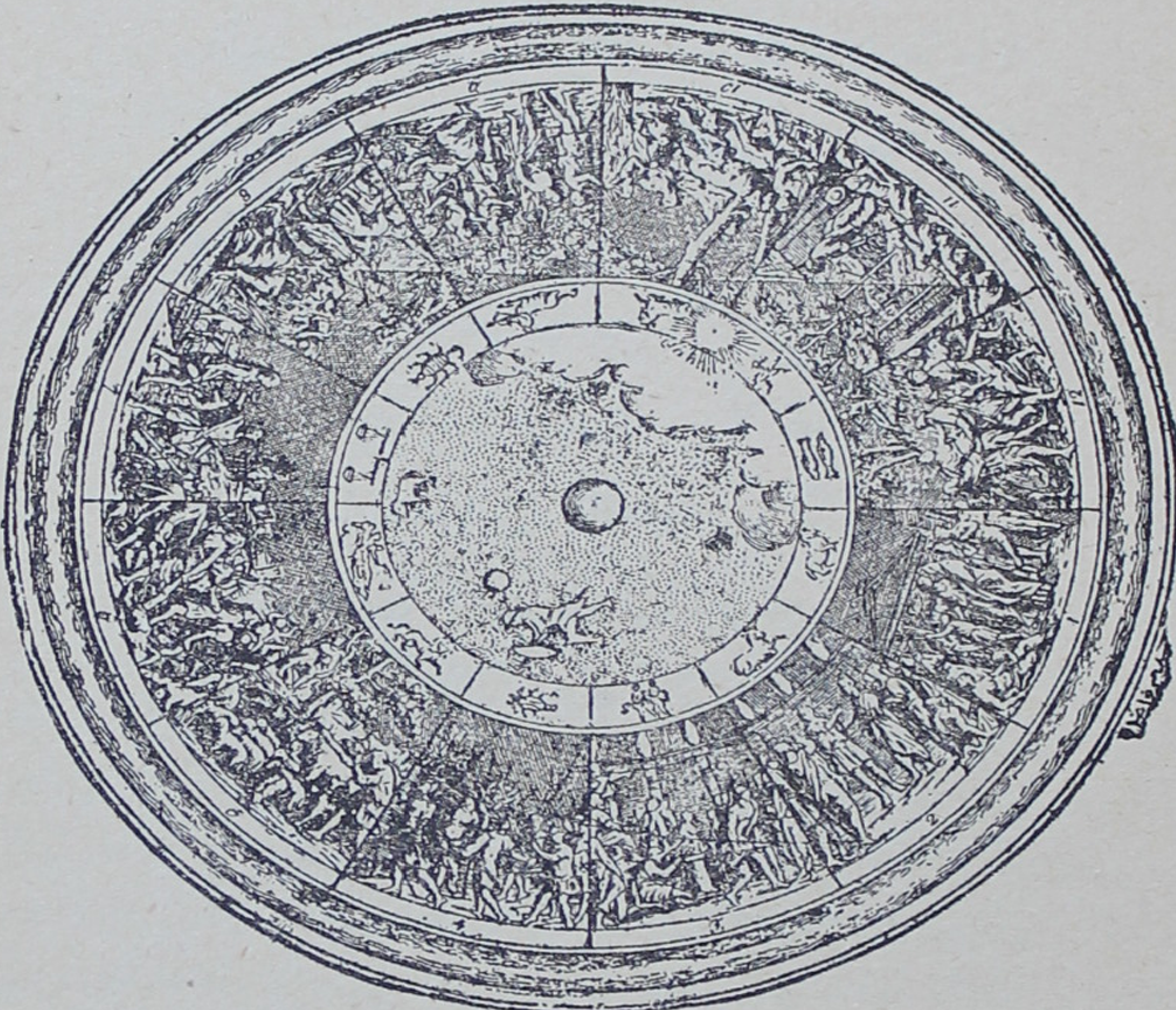
وآخيلُ انبرى متضرّماً غيظاً بعزْمَتهِ ،
بجُنّتهِ التي في الكون أضحت آيةَ العجَبِ ،
وخوذَتُهُ التي من صُنع هِيفستٍ بهامتهِ
تَهيجُ مُنيرةً ، ويَهيج فيها قونسُ الذَّهبِ .
وصِعدَتُهُ توجُّ كما ، بليلٍ حالكٍ ، سَطَعَتْ
تَفوقُ الزُّهرَ ، كوكبةُ المساءِ ، وتَبهجُ النَظرا .[1]

•

فسرَّحَ طرْفَ مُقلَتِهِ بِهكطورٍ وشِكَّتِهِ ،[2]
لِيُبصرَ مَنفِذاً فيه يُواري حدَّ صِعْدَته ؛
وهل تمضي النِصالُ بعُدَّةٍ فَطرُقْلُ كرَّ بها ،
وما هي قطُّ غيرُ سلاحِ آخيلٍ ولأْمتِهِ .
فأبصرَ بعدَ حينٍ نَحرَهُ بَرَزَت مفاصِلُهُ ؛
فبين الجِيدِ والكَتِفينِ بادرَهُ بطعنتِهِ ،
فغاضَ سِنانهُ في مَخرجِ الأرواحِ منتصبا ؛

١ – يريد بكوكبة المساء الزهرة ، ويدعوها ايضاً : كوكبة الصباح ، وكوكبة الراعي .

٢ – كانت على هكطور شكة آخيل التي البسها فطرقل ، فلم يكن من سبيل لاختراقها بضرب وطعن . ولهذا تشوف آخيل ، وحدق ليرى له منفذاً بجسم هكطور يطعنه به .



ترس أخيل

ولكن في مجاري الصوتِ والانفاسِ ما صدرا .

•

فخرَّ ، وللثرى ضُرجا ، وصاح اخيلُ مبتهجا :
« أَخِلت ، تَعِستَ ! فطرقلاً يَبيد هنا ، ولا حَرَجا ؟
أغرَّكَ أنَّني قد كنتُ ، يا هَكطورُ ، معتزلاً ؟
ولم تعلمْ لِفَطْرُقْلٍ ظَهيراً يقحَمُ اللّجا ؛
فتىً وافاكَ محتدِما من الأشراع ، منتقما ،
فبِدتَ ، ولم تُزَعْزِعْهُ قُواكَ ، ولا لها اختلجا .
فرُحْ طُعْمَ النواهِسِ والصقور ؛ وثَمَّ فَطْرُقْلٌ
بمأتمهِ لَفيفُ الجَيشِ سارَ بِحُرمةٍ وسرى . »

•

مُنتخبات
مِنْ نثره

مِنْ مقدّمة الالياذة

هوميروس

لم يزل الشعر الهوميري في المنزلة الاولى بين منظومات الشعراء . وليس بين كتب الأدب والتاريخ والشعر كتابٌ تداولته الأيدي ، وتناقلته الألسُن ، واستشهد به الأدباء والكتبة والمؤرخون ، ونُقل مراراً متوالية الى مُعظم لغات الحضارة ، نثراً وشعراً ، كديوان هوميروس ؛ حتى لقد جُعل تدريسُه فرضاً في كثير من مدارس القوم ، تُلقَّنه الفتية اصلاً وترجمةً . ومما يُذكر في هذا الصدد اعتراض بعضهم على إنفاق الساعات الطوال في القائه على طلبة جامعة برلين . فلما بلغ ذلك الاعتراض ولهلم الاول ، قيصر المانيا ، قال : « دعوا الاساتذة يكثروا من تلقين شعر هوميروس ، فان الامة التي يرسخ في ذهنها وصفُ صِبا الامم على ما يبسطه هوميروس لا يسارع اليها العجز والهرم » . ومن اقوال رينان ، الفيلسوف الفرنسي الحديث : « اذا مرّ على عهدنا الفُ عام ، انقرضت جميع التآليف التي بين ايدينا ، ولم يبقَ منها الا كتابٌ واحدٌ ، وهو

ديوان هوميروس » . واذا كان المتقدّمون قد اطلقوا عليه لقب «الشاعر» ، فقد لقبهُ المتأخرون «بأمير الشعراء» . وما انتقاد بعض الكتاب فقراتٍ متفرّقة من شعره الاّ مَدعاةً لزيادة انتشاره ، واتساع شهرته ،

فما سام شمسَ العُلى حطّةً غمـامٌ يستّرِ اذيالهـا

واما بنو الشرق فهم ، وان جهل معظمهم اسم هوميروس ، فضلاً عن وجود منظومات له ، الا ان ذوي الاطلاع من متأخريهم قدَروه حق قدره ، كما ان بعض علمائهم في الزمان الغابر اعظموا شأنه واجلّوه وانّ صُفوة ادبائنا في هذا العصر شاعرون بالحاجة الماسّة الى نقله الى العربية . ويُذكرني هذا حديثاً مع منيف باشا ، ناظر المعارف العثمانية ، قال في اثنائه : « لو ان الشاعر العربي القائل :

كأني أُميروسٌ لدين محمدٍ ...

عمل حقيقةً للشرق ما عمل هوميروس للغرب ، لما تعدّانا الغرب هذا الشوط البعيد» .

وقد غاب عنه وعني عرفان ذلك الشاعر . ومما قاله لي السيد جمال الدين الافغاني ، في محضرٍ من الأدباء : «انه ليسرّنا جدّاً ان تفعل اليوم ما كان يجب على العرب ان يفعلوا قبل الف عام ونيّفٍ . ويا حبّذا لو ان الادباء الذين جمعهم المأمون بادروا ، بادىء بدء ، الى نقل الإلياذة ، ولو ألجأهم ذلك إلى إهمال نقل الفلسفة اليونانية برمتها » . وسأذكر في باب «الالياذة» سبب اغفال نقلها الى العربية .

ذلك قول عامّة المتقدمين والمتأخرين وخاصّتهم في هوميروس وشعره . اما الشعر فلا سبيل الى انكاره لانه موجودٌ يُتلى . واما هوميروس نفسه ، فقد قامت طائفة من الباحثين في اواخر القرن الثامن عشر ، بزعامة وُلف الالماني ، وتألّبت على انكار وجوده بتاتاً . وما لبث

مذهبهم أن انتشر انتشار الشرار ، ثم ما لبث ان خبا خَبْوَهُ ، على ما سنبسطهُ في الكلام على الالياذة .

قول العرب فيه

ليس في ما بين ايدينا من التآليف العربية ما يُشير الى ان ديوان هوميروس نُقل الى لغة الغرب . فهو بلا ريب لم يُعرّب ، وان كان معروفاً عند خاصّة العلماء في بغداد لعهد العبّاسيين ، اذ كان يتناشده الأدباء من نَقَلَة الكتب المقرّبين من الخلفاء بأصله اليوناني ونقله السرياني . والظاهر ان الإلياذة كانت منتشرةً بين الخاصة في بلاد الفرس والكلدان ، في زمن الدولة العباسية ، لأن ثاوفيلس الرّهاوي الذي نظمها بالسريانية كان مُنجّم المهدي ، ثالث خلفائهم ، كما اثبتنا في حواشي الإلياذة (ن ٢ ص ٢٦٥) [١] .

قال ابن أُصيبعة في كتابه « عيون الانباء في طبقات الاطبّاء » ، نقلاً

١ – قال ابن العبري في « مختصر تاريخ الدول » ، طبع بيروت ، ص ٤١ : « وخربت مدينة اليون الخراب الذي هو من اعظم الرزايا عند قدماء اليونانيين . وقد رثاها اوميروس الشاعر في كتابين نقلها من اليوناني الى السرياني ثاوفيل المنجم الرهاوي . » (توفي سنة ٧٨٥ م وكان منجماً للخليفة المهدي) وقال صفحة ٢١٩ – ٢٢٠ : « وكان ثاوفيل هذا على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى . وله كتاب تاريخ حسن . ونقل كتابي أوميروس الشاعر على فتح مدينة ايليون في قديم الدهر من اليونانية الى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة . » .

ولقد اكثر العلماء من البحث والتنقيب ، فلم يعثروا على اثر لترجمة الرهاوي . قيل أن العلامة السمعاني الماروني عثر على نسخة منها ، فحملها في ما حمل الى رومية من نفائس المخطوطات في اواسط القرن الثامن عشر . واصابته عاصفة في البحر فطغت المياه على السفينة ، فعطلت كثيراً من تلك النفائس ومن جملتها منظومات الرهاوي .

وقد ذكر يعقوب برساخو المعروف باسم الاسقف ساوير (المتوفى سنة ١٢٤١ م) وغيره من العلماء عبارات متقطعة ردها البعض الى الياذة الرهاوي . وهذا جل ما يعلم عنها . »

عن يوسف بن ابراهيم ، في ترجمة حنين بن اسحق ، أثناء تنكُّر حنين ، وهو عاكفٌ على درس الطب [١] : « فتبنّت خرشي (جارية الرشيد الرومية) ذلك الغلام (وهو اسحق المعروف بابن الخصي) وأدّبته بآداب الروم وقراءة كتبهم . فتعلّم اللسان اليوناني علماً كانت له فيه رئاسة . فكنّا نجتمع في مجالس اهل الأدب كثيراً فوجب لذلك حقه وذمامه . واعتلّ اسحق بن الخصي علةً فأتيتُه عائداً . فاني لفي منزله اذ بصرت بانسان له شعرة قد جلّلته ، وقد ستر وجهه عني ببعضها ، وهو يتردّد وينشد شعراً بالرومية لأوميروس رئيس شعراء الروم ، فشبهت نغمته بنغمة حنين ، وكان العهد بحنين قبل ذلك الوقت بأكثر من سنتين ، فقلت لاسحق بن الخصي : هذا حنين . فأنكر ذلك انكاراً يشبه الاقرار . فهتفت بحنين ، فاستجاب لي »

فيؤخذ مما تقدم ان اليونانية كانت معروفة لذلك العهد في بغداد ، تُقرأُ وتُدرّس حتى في بيوت الخلفاء ، وان منظومات هوميروس كانت معروفة فيها بين المشتغلين بلغات الأجانب ، ومعظمهم اذ ذاك من النصارى .

وأما سائر ما ذُكر عن هوميروس في كتب العرب فليس إلاّ شذرات مقتطعة من كتب اليونان المعربة برعاية العباسيين ، والمؤلفات التي وضعها كبار المعرّبين والمؤلفين من الكلدان كابن ماسويه ، وابن الخصي ، وحنين ابن اسحاق . مثال ذلك قول ابن ابي اصيبعة في عيون الانباء : « وكان الشعراء في ذلك الزمان على ما ذكره حنين بن اسحق ، اوميروس الخ » [٢] وقوله في ترجمة ارسطوطاليس : « ومن كتبه كتاب في مسائل من عويص شعر اوميرس في عشرة اجزاء » [٣] وقوله في ترجمة جالينوس ، عند ذكر الكتب التي اعترض حنين بن اسحق على نسبتها اليه : « ومنها كتاب الطبّ على رأي اوميرس » [٤] . ومن هذا القبيل قول البيروني :

١ – عيون الانباء ١ : ١٨٥

٢ – عيون الانباء ١ : ٣٦ .

٣ – عيون الانباء ١ : ٦٩ .

٤ – عيون الانباء ١ : ١٠١ .

« اميروس المتقدم عند اليونانيين كامرىء القيس عند العرب [١] » . ومثله قول ابن خلدون في مقدمته [٢] : ان الشعر لا يختصّ باللسان العربي ، بل هو موجود في كل لغة ، سواءٌ كانت عربية او عجمية . وقد كان في الفرس شعراء ، وفي يونان كذلك ، وذكر منهم ارسطو ، في كتاب المنطق ، اوميروس الشاعر واثنى عليه . » ومثله قول ابن ابي أُصيبعة : [٣] « قال افلاطون : وقد كان مارينو (اغا ممنون) ملك اليونانيين الذي يذكر اوميروس الشاعر بأسه وجبروته ، وما تهيأ لليونانيين في سلطانه ، رُمي بشدائد في زمانه وخوارج في سلطانه » . ويدرج في هذا الباب قول الشهرستاني : [٤] « وأُميرس الشاعر من القدماء الكبار الذي يجريه افلاطون وارسطوطاليس في اعلى المراتب ، ويستدل بشعره لما كان يجمع فيه من اتقان المعرفة ومتانة الحكمة وجودة الرأي وجزالة اللفظ . » واما الشواهد التي اوردها الشهرستاني من كلام هوميروس في كتاب « الملل والنحل » ، والبهاء العاملي في « الكشكول » فلا شك ان فيها اختباطاً واقتضاباً ، على نحو ما جرى لكتاب العرب في اكثر ما استشهدوا به من كلام الاعاجم .

وقد اكثر ابو الفرج الملطي ، المعروف بابن العبري ، من ذكر هوميروس في تاريخه حتى دون حكايته مع ماجن سأله ان يهجوه ، طمعاً في الشهرة من وراء ذلك الهجو . فأبى هوميروس . فتهدده بالشكوى الى رؤساء اليونانيين . فضرب له هوميروس مثل الكلب الذي نكل

---

١ – الآثار الباقية عن القرون الخالية لأبي الريحان محمد البيروني الخوارزمي . طبع باريز ، ص : ٨٦ .

٢ – ابن خلدون : المقدمة : باب اشعار العرب واهل الامصار .

٣ – عيون الانباء ١ : ١٨٥

٤ – كتاب الملل والنحل ٢ : ١٥ .

الاسد عن مبارزته ، فقال الكلب : « سأمضي الى السباع فأشعرهم بضعفك » . فأجاب الأسد : « لئن تعيرني السباع بالضعف احبّ اليّ من ان الوّث شاربي بدمك » ١ .

وخلاصة القول ان هوميروس كان له شأنٌ مذكور عند نَقلة الكتب من بطانة الخلفاء .. ولكنّ المام ادباء العرب بأقواله كان الماماً ناقصاً بقي منحصراً في افرادٍ معدودين من كبار الكلدان . واما منظوماته فالثابت انها لم تُعرّب .

(القسم الاول)

الالياذة

نظمُها وتناقلها

اذا لزم من تماسك اجزاء الالياذة ان تكون منظومةً واحدة ، فلا يلزم ان تكون نُظمت وأُنشدت جزءاً واحداً . ولا يؤثر على مجموعها ان تكون أُنشدت في قطر واحد ، او اقطارٍ مختلفة . فهذا نقلُها العربيّ ، وما هو بالشيء المذكور ازاءَ الأصل اليوناني ، وقد نُظم في اربعٍ من قارّات الارض . ولا فرقَ ان يكون الشاعر نظمها تطرُّباً بمعانيها ، او تطلُّباً بأغانيها . تلك جميعها مباحث لا فعل لها في جوهر الالياذة ، فليس لنا هنا ان نطيل النظر فيها . وانما يجب النظر في طريقة اتصالها، على سعتها ، من السلف الى الخلف .

ذهب برتلمي سنت ايلير[2] الى ان اليونان كانوا يكتبون لعهد هوميروس ،

١ – تاريخ مختصر الدول لابن العبري ، طبع بيروت ، ص : ٦١ .

2) Barthélemy Saint - Hilaire, *Iliade d'Homère, traduite en vers français* .

وهو قولٌ لم يؤيده أثرٌ حتى الساعة . ومع هـــذا ، فعلى فرض صحَّة هذا المذهب ، فان الكتابة عندهم كانت في زمن طفوليّة لا تكاد تتسع الاّ لتدوين ما عظُم من حوادث التاريخ ، والاّ لخلَّفت ولو أثراً ضعيفاً ، كما خلَّفت مصر وبابل . فلا ريبَ اذاً انها انما حُفظت اولاً في اذهان الرواة ، فتناقلوها جيلاً عن جيل .

وقد يُستغرب تناقل الإلياذة في اول امرها استظهاراً ، على ما فيها من كثرة الابيات ، واتساع المباحث ، وتنوّع الاحاديث . على انه يتضح لدى التروّي ، انّ ذلك الاتساع كان من مسهِلات حفظها وعلوقها في ذاكرة المنشدين . وهو ثابتٌ ان الانشاد مهنةٌ كانت ولا تزال شائعة بين اجيالٍ شتى من الناس . وكان للرواة والمنشدين منزلةٌ يُحسدون عليها . ولهذا تطالّ اليها كلّ ذي علم واسع وذاكرةٍ نيرة . وكثيراً ما كانت بابَ رزق لكل ضرير كُفَّ نظرهُ ، فتحوّل نور بصره الى بصيرته ، فادّخرت في محفوظها ما تقصّر عن رسمه اقلام الخطاطين .

ذكر سقراط وأفلاطون وغيرهما انّ المنشدين كانوا يتهـــافتون الى مجتمعات الناس في أثينا ، وسائر مدن اليونان ، فيُنشدون ما حفظوه من الإلياذة وغيرها . وكان قيام هؤلاء المنشدين بين العامة والخاصة من لوازم كلّ احتفال وطني ، وعيد ديني . فتُقام لهم في اثينا ، وساقس ، وتيوس ، وأُرخمينا ، ومدائن اخرى ، أسواق كسوق عكاظ ، ومربد البصرة ، يتناظرون فيها ؛ وتُعدُّ لهم الجوائز السنية ، فيحرزهـا المبرّز منهم ، ويحرص عليها حرصَ الفائز باكليل الغار بعد الانتصار . ولطالما كان يجنح الواحد منهم الى التغنّي ببطلٍ معّين ، او روايةٍ مخصوصة ، فيفني العمر بالقائها حيناً بعد حين ، على ما هو اليوم شأنُ القصّاصين في مصر ، وبرّ الشام ، والاقطار العجمية . ويؤخذ على ذلك دليلٌ من نفس هوميروس ، اذ انطق اوذيس في الاوذيسية (ن ٩ — ١٢) بما يربو على الفين

ومئتي بيت نفساً واحداً. على انه لا يلزم مما تقدم ان راوياً واحداً يُنشد الالياذة كلها، او يحفظها لهذا الغرض.

وقد اسهب متنفُرد [١] وغروت [٢] وغيرهما في ذكر الأدلة الساطعة على امكان بقاء الإلياذة محفوظة في الاذهان، قبل شيوع الكتابة، مما لا متسع لنا لنقله. وحسبُنا ايراد شيء من الادلة الحديثة منها، ومما يتصل بأزماننا، مما يرتاح اليه قراؤنا ولا سيما العرب منهم.

العميان وانشاد الشعر

بحث فُوريل [٣] في الاغاني اليونانية في الاعصر الاخيرة، فقال في مقدمته: «انها لا تزال على ما كانت عليه سالف الزمن. والغريب أنها بقيت مهنة العميان، وهي مهنة تحبّبهم الى الناس، بل تجعل لهم مقاماً ذا نفع بالنظر الى حالة الأمة واخلاقها، وتصوراتها. وشأنهم التنقلُ من بلد الى آخر، فيطوفون اطراف بلاد اليونان، وجزرها، وهمهم استظهار ما وسعه ذهنهم من الاشعار والاناشيد القديمة والحديثة فكلهم يعرف منها شيئاً كثيراً. ويبلغ ما يحفظه بعضهم الى حدّ الغرابة والإعجاز. فاذا ذخروا هذه الاغاني، فانما ادّخروا كنزاً ثميناً يطوفون به، فيلقونه بضاعةً ذات قيمة. وحيثما حلوا، اجتمعت الناس اليهم، فيأخذون في الانشاد بما وافق المقام ويتعيشون بما ينفحهم به مستمعوهم. وهم، في الغالب، يؤثرون الانشاد بين عامة الناس، لان العامة اكثر اقبالاً عليهم، واقلُّ تعنتاً في انتقاء المواضيع. ولايزالون كما كانوا لعهد هوميروس يتغنّون على نغم القيثارة، او الكنّارة، وهم فئتان: فئة تنشد محفوظها من شعر الشعراء، وهي الفئة الكبرى، وفئة قليلة تنشد من محفوظها ومنظومها، وهي ارفع منزلةً واوسع جاهاً. وهكذا فان

1) Mitford, *History of Greece*, p. 135 .
2) Grote, *History of Greece* Vol . II, p. 145 .
3) Fauriél, *Chants populaires de la Grèce Moderne* . 1824 .

هؤلاء المطربين هم الآن ، كما كانوا في القدم ، رواة الاخبار والتواريخ وشعراء الامة . »

حفاظ الشعر عند سائر الامم وخصوصاً العرب

قال غرِمّ [1] « ان الالمان كانوا يسلكون هذا المسلك ، وان الاناشيد الجرمانية كانت تُنشد كأناشيد اليونان على نغم القيثار . »

ومن قول فوريل ايضاً [2] : « ان الروايات والقصص كانت تنشد في فرنسا على هذا النمط في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . وكان الراوي ، إذا اراد الانشاد ، دعا الجماعة الى استماع اغنية تاريخ جميلة . ثم يتغنى على نغم شبّابة عربية ذات ثلاثة اوتار . واذا اخذ فيه العياء ، ظل ينغم زمناً بلا انشاد . تلك كانت الوسيلة المثلى لالقاء الروايات والاقاصيص . »

ونقل الكسندر شدزكو [3] : « ان حفّاظ العجم يتلون لك من شعر شعرائهم ما لا تكاد تصدّق ان ذاكرة تعيه لكثرته . فقد يظلّ المنشد يتغنّى بأشعار الشهنامة (وهي الياذة الفرس) نهاراً كاملاً . » وما ادراك كم بيتاً يقال في نهار .

اما العرب فلم يكن في أُمّة من امم الارض شأن للانشاد ارفع منه عندهم . وهذه اخبار عكاظ والمربد تملأ الاسفار ، بصرف النظر عن اخبار الشعراء المنبثّين في كل اصقاع البلاد العربية ، لا مهنة لهم الا انشاد الشعر . وهذه اخبار الخلفاء ، وقد كان ما يجيزون به الشعراءَ من ابواب النفقة الطائلة مما لا يبقى معه ريب ان انشاد الشعر كان الضالّة

1) Grimm, *Deutsche Heldensage*, P. 373.
2) *Romans de Chevalerie*, *Revue des deux mondes*, XIII, p. 559.
3) Alexander Chodzko, *Specimens of the popular poetry of persia*, London, 1842. Introd., p. 13.

المنشودة ، والمفخرة التي يتسابق اليها الرفيع والوضيع .

وإذا طالعت اخبار الشعراء المترجمين في كتاب « الأغاني » وغيره ، رأيت بعضهم كهوميروس اميين لا يقرأون ولا يكتبون . بل ربما احتاج ابلغهم الى قارىء صغير كما فعل طَرَفة بن العبد والمتلمس ، اثناء شخوصهما الى عمرو بن هند ، ملك الحيرة ، اذ اضطرا الى استرضاء غلامٍ حدَث ليقرأ لهما كتاباً وكلاهما من فحول الشعراء . وهؤلاء اصحاب المعلّقات ، والمجمهرات والملحمات ، كان فريقٌ كبيرٌ منهم أُميّاً .

واما مبلغ الذاكرة عندهم فما لا يفوقه شيءٌ في اخبار اليونان والرومان والافرنج . وفي اخبارهم ما لو حُذف منه شيءٌ كثير لربما باقية على مرويّات اليونان قديمهم وحديثهم . فاذا علمت ان ابا العلاء المعرّي سمع محاورة اسرائيليين بالعبرية ، وهو في شأن غير شأنهما ، ثم طُلب ، بعد مدة مديدة ، للشهادة ، فأعاد تلك المحاورة ، وهو لا يفقه من العبرية حرفاً — اذا علمت ذلك فما ظنك تعي ذاكرته من الشعر لو توخّى الحفظ ! واذا قيل لك ان الإلياذة مؤلفة من زهاء ستة عشر الف بيت فيصعب الأخذ بقول القائلين انه امكن استظهارها فما بالك لو سمعت ما ذكروا من غرائب حافظة حمّاد الراوية ، اذ امتحنه الوليد بن يزيد ووكل به من يسمع انشاده ، فأنشد تباعاً الفين وتسعمائة قصيدة من شعر الجاهلية . او لو قيل لك ان الاصمعي كان يحفظ ستة عشر الف ارجوزةٍ كاملة ، ما خلا القصائد والمقاطيع ، واخبار العرب بدوهم وحضرهم . وهذا قولٌ ، مهما أُنس فيه من المبالغة ، لا يخلو من صحةٍ ، بعضُها كافٍ لاثبات ما نتوخّاه .

هذا واني ممن يعتقدون انحطاط قوى الذاكرة ، وارتقاء قوى المخيلة في ازماننا هذه ، بناءً على الناموس القاضي بترقّي القوى البشرية وانحطاطها ،

بكثرة المزاولة وقلتها . ومع هذا فالحافظة ، مهما وُلدت خاملة ، لا تلبث ان تقوى بالمثابرة على الاستظهار . فمَثلُها ، في تدرّجها من الضعف الى القوة ، مثَلُ يد النجار والحدّاد وقلم الكاتب . وفي عصرنا هذا من حُفّاظ التوراة والانجيل والقرآن مئاتٌ والوفٌ عرفتُ بعضهم بالذات . ولقد طالما اضطُررت في حينٍ من الزمن الى مراجعة خبرٍ او آية في التوراة ، والى جانبي المرحوم المعلم داود الحاج ، فكنت اذا ذكرت لهُ طرَفاً مما أُريد ، اشار فوراً الى السِفر والفصل ، وكثيراً ما كان يعيّن العدد . فأتصفّح الكتاب ، فاذا هو كما قال . وحفَظَة القرآن منتشرون في كل صقع من بلاد الاسلام ومنهم الجمّ الغفير من كفيفي البصر كرُواة سائر الامم . ويقال مثل ذلك في حفَظَة الانجيل من المسيحيين ، ولا سيما وعّاظ الانجيليين .

اما رواة الشعر فهم في البلاد الشرقية اكثر منهم في اقطار الغرب ، حيث قضت الكتابة على الاستظهار القديم . وقد شهدت بنفسي مصداق قول شُدزكو في منشدي الفرس . فاذا جَلستَ الى الواحد منهم ، وهو ينشد شعر الفردوسي ، او جلال الدين الرومي ، او قصص كلستان سعدي ، شعراً ونثراً ، ظننته يتلو كتاباً يتصفّحه حرفاً حرفاً .

واذا جلت في بادية العرب ، وسمعت منشديهم ينشدون على نغم ربابتهم الوفاً من الاشعار ، قلت تلك كنّارة هوميروس ، وهؤلاء ، لا اولئك ، هم المنشدون الذين ذكرهم سقراط ، وافلاطون ، ومِتفرُد ، وغروت ، وفوريل ، وغرمّ ، وشدزكو .

ولقد تيسّر لي ، اثناء تجوّلي بينهم ، ان التقط منهم قصائد شتّى جمعتها في ديوان سأمثّل منتخباته بالطبع . وكثيراً ما كنت اسمع القصيدة من غير راو ، فاذا هي هي .

وليس بالامر اليسير ، بإزاء ما تقدّم ، محفوظُ زجّالي مصر ، وقوّالي

لبنان ، وشعراء اهل الارياف في اسبانيا والبرتوغال . فقد استبقت الذاكرة بضع قصائد ، بل مَطالع من معنَّى اللبنانيين ، مما علق بها في الصغر منذ بضعة عقود من السنين ، فاستنشدتها بعضهم في الصيف الماضي . فاذا هي عندهم على حالها لم تزد ولم تنقص .

وقد ذكر كتاب الإفرنج كثيرين ممن عُنوا بحفظ كتابٍ او منظومةٍ ، فما لبثوا ان ادركوا بغيتهم كماكولي (Macauly) الذي انشد نصف منظومة ملتن الانكليزية في الفردوس الغابر . واذا ساغ لي ان اذكر لنفسي ، ولرفاقي في الصغر ، مثلاً من ذلك ، قلت اننا كنا نتسابق الى حفظ ملحمة ملتن المذكورة ، حتى تيسّر لي مرة سردُ نشيدٍ كاملٍ منها ونصف الثاني ، مع قسمٍ غير يسير من منظومة سيدة البحيرة لولتر سكُت . وكان استاذنا ، العم المرحوم المعلم بطرس البستاني ، يشوّقنا الى حفظ ألفيّة ابن مالك ، وما زال بي حتى استظهرتها ، واستنشدني منها مائتي بيت في حفلة امتحان .

وليس ما اذكره في هذا الباب على سبيل الاستطراد شيئاً مذكوراً بازاء محفوظات الرواة الذين لا همّ لهم الا اختزان الشعر والقصص في حوافظهم . فالمنظومات فيها كالمتاع المنضود في حانوتٍ حافل بأصناف المنسوجات ، ينشرون ما شاؤا ، انّيان شاؤا ، على نيّة ان يطووه الى موضعه ، وكلما نشروه مرة زاد زهاءً ورواءً . واذا تلقّاه احد عنهم ، فانما يتلقى رسمه ، والاصل باقٍ في ملكهم لا تبلغه يد مشترٍ او سارق . فأمثال هؤلاء هم الذين استبقوا للخلف منظومات هوميروس الى ان كتبت .

(القسم الثاني)

اغفال العرب

نقلها الى لغتهم

كان العرب من احرص الملل على علوم الادب ، واحفظهم للشعر ، واشغفهم بالنظم . ومع هذا فلقد يأخذك العجب لبقاء الإلياذة محجوبة عنهم ، وهي منتشرة هذا الانتشار بين قبائل الارض ، ومنظومة بلغة سامية كلغتهم ، يتناشدها الادباء المقيمون بين ظهرانيهم في مقرّ الخلافة العبّاسية .

وان لذلك اسباباً اذا تبينّاها زال العجب لاغفالها في ما سلف ، مع وضوح الحاجة الماسّة الى تعريبها في هذا العصر . وان مرجع تلك الاسباب الى ثلاثة : الدين ، واغلاق فهم اليونانية على العرب ، وعجز النقلة عن نظم الشعر العربي .

الالياذة والنصرانية

اشرنا فيما مرّ الى اقبال أُمم اوروبا على الشعر الهوميري وقلنا لم يتخلّل اقبالهنّ فتورٌ الا عقودَ اعوامٍ معدودات في بدء النصرانية . فاذا خذل المسيحيون هوميروس ، وهو معروف عندهم ، ونبذوا شعرهُ وهو مَتلوٌّ في مجالسهم ، فما احرى المسلمين ، في اوائل الاسلام ، ان يطرّحوه ، ولا اثر له في اذهانهم ، ويعرضوا عن اقواله وهم لا يعرفون منها شيئاً .

كان هوميروس في ذروة مجده في الممالك الرومانية ، عند انتشار الدين المسيحي ، فكان لا بد من تقويض اركان الوثنية ، وهي ممثلة اصدق تمثيل في الشعر الهوميري ، فبات اغفال ذلك الشعر ضربة لازب ، لحداثة

عهد المسيحيين بدينهم ، ولزوم اخذهم به مورداً صافياً لا تشوبه اساطير السلف من عبدة الاوثان . ولكن بعض الدُّعاة غالوا في اتخاذ الطرق المؤدية الى تلك الغاية ، فاتهموا هوميروس بابتداع البدع ، وتحريف آي التوراة ، ليصوغ منها ما وافق مذاهب قومه من القصص المستنبطة منها كعصيان الطيطان وطردهم من الجنة ، وتلبُّس فرسيتُس بصورة موسى في أول أمره ، ومماثلة بليروفون ليوسف الصدّيق ، وأمثال ذلك مما أشرنا اليه في الشرح . ولهذا كانوا ينادون بتحريمها خشية من ان تفسد عقيدة الناشئة المتنصّرة . وكان من لوازم قولهم ان هوميروس لم يكن الناقل لخرافات الاولين ، بل الواضع لها ، المنادي بها .

تلك كانت الحال بين عامّة المسيحيين . وأما علماؤهم كالقديس ايرونيمس[1] فما زالوا مكبّين على تلاوة اشعار هوميروس ، معجبين ببلاغتها وسموّ معانيها .

وما رسخت قدم النصرانية في البلاد حتى افرجوا عن هوميروس والياذته وسائر منظوماته ، فانطلقت تلك الخرائد من عقالها وبرزت بحللٍ قشيبة فعادت الى اختلاب الالباب في مجالس الآداب .

الالياذة والاسلام

وانّ ما قيل عن النصرانية في نشوءها يصدق على الاسلام في قرونه الاولى ، اذ لا ريب ان ائمةَ الأمّة ، ولو فرضنا وقوفهم ذلك الحين على محتويات الإلياذة ، لما ارتاحوا الى بثّها بين العامة لئلا تكون من مفسدات الايمان .

وزد على ذلك ان العرب لم يكادوا يخرجون من مهامه البداوة حتى ملكوا الامصار ، وانتشروا في سائر الاقطار ، واسسوا الممالك الكبار .

1) Saint Augustin, *Confess*, *I. I.*, cap. 140·

وما استقرّ الملك للأمويين في الشام ، حتى بدت لهم الحاجة الى استخراج كتب العلم . وما توطدت دعائم الدولة العباسية في العراق ، حتى نظّم الخلفاء مجالس النقلة لتعريب علوم المتقدمين من الفرس ، والهنود ، واليونان . فلاح لهم انهم احوج الى العلوم منها الى الشعر والادب ، وكانت حاجتهم الكبرى الى علم الطب ، ثم الى علم الكلام للمناضلة عن الدين ، فعمدوا الى تعريب طبّ إبقراط وجالينوس ، وفلسفة ارسطوطاليس ونظائرهما ، واغفلوا الإلياذة وجميع ما يجري مجراها من كتب الشعر والأدب .

ثم انه ليس في لغات الارض لغةٌ يربو شعرها على الشعر العربي ، ويزيد شعراؤها عدداً على شعراء العرب ، وهم جميعاً مخلصو الاعتقاد في شعرهم ، وَرِعين في تعبُّده ، فلا يخالون في الامكان وجود شعرٍ أعجميّ يجاري قصائدهم بلاغة وانسجاماً ودقةً واحكاماً .

فهذا ايضاً كان من دواعي تقاعدهم عن الاقبال على شعر الاعاجم ، اكتفاءً بما لديهم من درر ذلك البحر الزاخر .

على انني اعتقد انه ، لو طال زمن عظمة الدولة العباسية او لو تأخر زمن تبوّء المأمون اريكة الخلافة جيلين ، لكانت بعض مقاطيع الإلياذة تتلى الآن في أندية الأدب . ولا يطعن بهذا القول قيام دولة الأندلس بعد حين ، واشتغالها في الادب ، فان الامويين الاندلسيين تفنّنوا بآداب العرب ورقوا درجاتٍ في مرقاة الشعر ، ولكنهم لم يضاهوا العباسيين في بغداد بشيء من اقبالهم على التقاط فلسفة الاعاجم وتعريب كتبهم .

وبعد هاتين الدولتين لم تقم للعرب دولة حريصة نظيرهما على اختزان العلوم من مخابئها ، وادّخار الآداب من مناشئها . فان كلاً من دولة الفاطميين بمصر ، ودول المغرب ، كانت منصرفة الى مشاغل اخرى ، فضلاً عن قلة النقلة في أزمانها من المتضلعين من لغات الاعاجم ، فوق لغتهم .

نقلة العرب

وهناك ايضاً حاجزان طبيعيان وقفا عقبة صمّاء في وجه تعريب الإلياذة شعرا ، في القرون الاولى ، ولعلهما لا يقلان شأناً عن حواجز الدين ، او يزيدان ، وهما :

أولاً : ان معربي الخلفاء ، كابن الخصي ، وابن حُنَين ، وآل بختيشوع ، لم يكونوا عرباً ، وان تفقهوا بالعربية على اساتذتها ، فلم يكن يسهل عليهم نظم الشعر العربي . وهم انما كانوا بنظر العرب علماء أكثر منهم أدباء ، وان كانوا حريصين على آداب لغاتهم حتى حلّوا جيد السريانية بقلادة الإلياذة منظومة شعراً كانوا يترنمون به في مجالسهم . ولا يشذ عن هذه القاعدة الا قليلون معظمهم من الفرس الذين تفرغوا لآداب العرب فبرّزوا فيها ، كابن المقفع ، وهؤلاء ايضاً لم يكونوا في عداد الشعراء .

وثانياً : ان شعراء العرب أنفسهم لم يكونوا يُحسنون فهم اليونانية ، فلم يكن فيهم من يصلح لتلك المهمة .

وان قيل ان عجز النقلة عن الاجادة في نظم الشعر العربي لم يكن مانعاً من تعريب الإلياذة نثراً ، كما عُرّبت شهنامة الفردوسي ، قلنا ان الارتباط بين الفرس والعرب كان أكثر منه بين العرب واليونان . وشتان بين ناظم الالياذة وناظم « الشهنامة » . فذلك من عبدة الاصنام ، وهذا من أدباء الاسلام . ومع ذلك فلم يقم بين العرب من تجرّد لتعريب الشهنامة ، الا بقيام ملك يحسن فهم العربية والفارسية ، طرب بتلاوة الاصل ، فأراد ان يطرب امته بتلاوة التعريب ، فوسّع بالرزق على رجل توسّم فيه الكفاءة . وهيهات ان يتيسر ذلك في غير تلك الحال [١] .

١ — نقل « شهنامة » الفردوسي الى العربية الفتح بن علي البغدادي الاصبهاني نثراً للملك المعظم عيسى بن العادل ابي بكر الايوبي ، وأتم ترجمتها سنة ٦٧٩ (كشف الظنون) .

ثم انه لا يخفى ان الشعر ، اذا تُرجم نثراً ، ذهب رونقه ، وبهُت رُواؤه . والظاهر ان هذا الحكم انطبق على تعريب « الشهنامة » ، فأهملها الناس ؛ والاّ فما ذهبت ضياعاً وبقيت أثراً بعد عين ، نقرأ عنهـــا في كتب التاريخ ، وليس في الادباء من روى لنا منها حديثاً مذكوراً .

وخلاصة القول ، انه مهما يكن من الحوائل التي كانت تصدّ الادباء عن نقل الإلياذة ، وتحول دون ابرازها للعامة ، فما بقي لتلك الحوائل اثر في زمننا ، بل صار من لوازم العصر إلباُسها حلةً عربيةً تجاري بها لغتنا لغات أبناء الحضارة ، وخصوصاً ان ما فيها من أساطير دين الوثنية قد باد أثره ، فصار من المحتوم ان يبقى خبرهُ عبرة للمعتبر .

(القسم الثاني)

التعريب

حكاية المعرّب في تعريب الالياذة

سألـني الجمُ الغفير من أصدقائي الادباء كيف عرّبتُ الالياذة ، وما حداني الى تعريبها ، فكتبت الفصل الآتي ، ولعله لا يخلو من فائدة لمن قضي عليه أن يسير في مثل هذه العقَبة :

كلفت ، منذ الصغر ، بمطالعة الشعر القَصصي ، ولا سيما ما تعلـّق منه بالخياليات وعبادات الاقدمين . ولما كانت لغتنا تكاد تكون خلواً من ذلك الشعر ، وفروض الدروس تستنزف الوقت ، ولا تبقي معهـا بقيَّة لقراءَة ما شذّ من مثل ذلك عن معيّناتها ، فتحول دون استقاء المياه من مواردهـا ، كنت التقط مـا سقط عرضاً من افواه الاساتذة ، او ورد شاهـداً في كتب التدريس . فاجتمعت لديّ نُبَذ ضمّنتها بعض قصائـد

لفّقتها ، ولم اتم العقد الثاني من اعوام الحياة . ولا يطالبنّني المطالع اللبيب بامثلةٍ من تلك القصائد ، فحسبي هزءُ نفسي بي دون هزئه ، اذ لا اتمالك من الضحك ، كلما خطر على البال شيءٌ مما علق في الذاكرة . فهنالك يمٌّ مختبطٌ اختلطت فيه آلهة الكلدان بآلهة اليونان والرومان ، وأُنزلت معبودات مصر موضع معبودات الهند والصين ، واشتبه الذكور بالاناث ، والتبست الأعلام الافرنجية بالاسماء اليونانية ، على نحو ما دوّن الكتبة في كثير من اخبارهم عن امم القرون الخالية . وهذا ، ولا بدع ، شأنُ كل كاتب تطاول الى فنٍّ دخله من غير ابوابه .

فلما حكمت نفسي ، واصبحت متصرّفاً مطلقاً في استعمال اوقات العطلة ، ادركت انني لم اعرف شيئاً ، مع سابق الظن بسعة الاطلاع ؛ فانتهيت الى حيث كان يجب ان ابتدىءَ . فعمدت الى تلك المنظومات ، ولم اكن بعد قرأت شيئاً منها قراءَةً صحيحة ، ما خلا « الفردوس الغابر » لِملتُن ، وقرأت جميعَ ما وصلتْ اليه كلّ كتابٍ بلغته ، اذا كنت من قرائها ، والاّ فبترجمته الى لغةٍ اعرِفها .

وكنت ، كلما قرأت منظومة من المنظومات القديمة والحديثة ، زاد اعجابي بالإلياذة . لانها ، وان كانت اقدمهنّ عهداً ، فهي لا تزال احدثهن رونقاً ، وابهرهن رُواءً ، واكثرهن جلاءً ، واوسعهن مجالاً ، وابلغهنّ جميعاً . نسج صفوة الشعراء على منوالها فلم يبلغوا شأوها ، واستقوا من بحرها فملأوا بجارهم ، ولم ينقصوها شيئاً .

فقلت ما أحرى لغتنا العربية ان تحرز مثالاً من هذه الدرّة اليتيمة . فهي اولى بها ممن تناولها من مِلل الحضارة . فليس في شعر الإفرنج ولغاتهم ما يوفّر لها اسباب البروز بحلّةٍ اجمل مما تهيّئه معدّات لغتنا فالشعر اليوناني بلغةٍ قريبةٍ الى الفطرة كلغتنا ، والبحث في جاهلية قوم كجاهليتنا . وليس في شعراءِ ملّةٍ من الملل مَن انطبقت معانيهم على

معاني الالياذة ، بالحكمة والوصف الشعري ، كالمتقدمين من شعرائنا .

فناجتني النفس بتعريبها ، مع علمي بخطورة الموقف ، ووعورة المسلك ، وطول الشقة ، وقلت : تلك مَلهاة تُقضى بها اوقات الفراغ . فاذا فتح الله وفسح في الاجل ، زففتها الى القرّاء ، والا فلا اقلّ من ان اروّض نفسي بها ، وهي خير ما تُروّض به النفوس ، وعزمت منذ نظمت اول بيت منها ، على ان لا اغادرها حتى آتي على آخرها .

تعريب الاصل

فخططت لنفسي خطّةً ، وقلت : لانظمنّ منها امثلةً من حيث اتفق لي ، واعرضها على الأدباء ، فاتنسّم ما يكون من وقعها في النفوس ، واتبيّن مواطن الخلل ، فخيرٌ لي ان اتبينها قبل التوغل في العمل . فتوكّلت على الله ، وعمدت الى ترجمةٍ فرنسية منها كانت بين يديّ ، والقيتها الى جانب ترجمة انكليزية ، واخرى ايطالية ، وفتحت الكتاب الفرنسي من ثلثه الاول ، فاذا باخيل واغا ممنون يتخاصمان ، واخيل ينهال على اغا ممنون بالسباب والشتيمة ، فنظمت الابيات التي مطلعها :

يا مليكاً بنشوة الراح مُثقلْ ...

فعرّبتها على الطريقة المألوفة في النظم ، وكانت اول ما نظمت من الالياذة . وذلك في اخريات سنة ١٨٨٧ بمصر القاهرة . ثم فتحت الكتاب من ثلثه الثاني ، فاذا بي في معتركٍ عنيف في اول النشيد الخامس عشر فنظمت القصيدة التي مطلعها :

تجاوزتِ الطرواد حدّ الخنادق يصلهم فيها حسامُ الاغارقِ

فكانت قصيدةً طويلة توثّقتُ بها من اتساع اللغة للمعاني والقوافي ،

ونهجت فيها نهجاً مما كنت اعددتـه في ذهني ، وستراه مفصلاً في باب « النظم في التعريب » .

ثم فتحتُ الكتاب من ثلثه الاخير ، فاذا بي في الصفحة الثالثة من النشيد الثالث والعشرين ، فرجعت الى اوله ، ونظمت منـه نحو مئة بيت رجزاً مصرّعاً ومقفى على أسلوبٍ استحسنته ، وحسبته وافيـاً بمرامي لتعريب كل النشيد على سياقه .

فحملت جميع ما تجمع لديّ من القصائد الثلاث بمسودّاتها ، وجعلت اعرضها على من زارني وزرتـه من الأدباء والشعراء ممن ألف الشعر العصري ، ومن نشأ على انتهاج الشعر القديم ، فاستحسنوا وجاملوا ، فزدت بمجاملتهم نشاطاً . وانست من بعضهم ريبةً وخشية عليّ من الملل والقنوط ، لوفرة ما يتبع هذا العمل الشاقّ من العناء الفادح ، وكثرة ما يستلزم من النفقات ، لو مُثل بالطبع ، وليس قراء العربية وطلاب امثال هذا الكتاب ممن ينشط على المجازفة بمثل تلك النفقات ، وشق النفس ، وضياع الاوقات . على ان ذلك كان اقلّ ما تجزع له نفسي ، اذ اقدمت وليس بي جشع للربح من وراء هذا العمل ، بل انا راضٍ بالخسارة لو حصلت ، ليس ذلك ترفعـاً عن الكسب ، ولكن لغرامٍ في النفس تستسهل الصعب في سبيله .

فقلت لقد حان اذاً اوان الشروع . فرجعت الى اول نشيد واخذت في النقل تباعاً حتى اكملته ، ونظمت نصف النشيد الثاني . وكنت ، اثناء النظم ، اقابل الترجمات بعضاً ببعض فأرى فرقاً يصعب عليّ معه تبين الرجحان لنسخة دون اخرى . فاوقفت النظم ، وقلت : لا بد اذاً من الرجوع الى الاصل اليوناني ، اذ لا يصلح النقل من غير اصله .

وكانت معرفتي باليونانيـة قاصرةً اذ ذاك ، لا تـكاد تتجاوز القراءة البسيطة وبعض اصول ومفردات لا تشفي غليـلاً . فاخذت ابحث عن

استاذ يروي غلتي فأرشدت الى عـالم من الآباء اليسوعيين [١] ، وأُبلغت انه متضلعٌ من اليونانيـة تضلّعه من الفرنسية . وكنت اعلم ان الآباء اليسوعيين لا يسعهم التفرغ لالقاءِ دروسٍ خاصة خارج مدارسهم ، فكان لابد اذا من رضى الاستاذ واذن الرئيس . فوفّقني الله الى الحصول على الأمرين ، فشكرت لهما هذه المنة . وجعل استاذي يلقّنني اصول اللغة ، ويفسر لي فصولاً من الاليـاذة ، وانا مُكب على الدرس ، متفـرغ للاستفادة . وبعد ان قضيت معه اشهراً ، وعلمت منه انه يسعني ان استتمّ الدرس وحدي ، وان اتناول تعريب الالياذة من اصلها ، مـع الاستعانة بكتب اللغة وتفاسيرها ، فارقته شاكراً ، ولبثت مدّةً اجهد النفس بالمطالعة ، ثم استأنفت التعريب .

وكان بنفسي شيءٌ مما عرّبته من النشيد الاول والثاني ، فرجعت الى امعان النظر فيه ، ومقابلته على اصله ، فرأيت خللاً الجأني الى التنقيح والتصحيح . فكنت لا أُحجم عن تغيير البيت والبيتين ، وربمـا اعدت نظم مقاطيع برمتها . ولم يقع لي شيءٌ من هذه الاعادة في سائر الاناشيد ، الا ان يكون في استبدال فقرةٍ او شطر بغيرهما ، او تغيير قافيـة بأخرى ، مما يقـع لكل ناظم . وفي ما سوى ذلك كنت اجهد النفس باحكام البيت على قدر الاستطاعة ، قبل كتابته .

ولم اكد استقر في مصر ، حتى حدا بي حادي الاسفار التي الفتها منذ الصبا ، فبرحت القاهرة سنة ١٨٨٨ ، وفي النفس شغفٌ بها وحنينٌ اليها . فانتهى بي التّطواف الى العراق ، بعد ان طرقت الهند ، واطراف العجم ، فأقمت فيها زهاءَ سنتين اضطررت الى طيّ الالياذة في معظمهـما ، ولم يتسنَّ لي العود اليها الا بضعة أسابيع . على انني لم اجتمع بأديب منها الاّ عرضت عليه شيئاً من منظومها ، وادباء العراق مولعون بسماع الشعر .

---

١ – هو الاب أوتفاج (١٨٣٨ – ١٩٠١) الاختصاصي في الدراسات المصرية .

ثم شخصت الى الاستانة ، واتخذتها مقاماً طيباً لبثت فيه سبع سنوات، كنت كثير التنقل ، في اثنائها ، بين الشرق والغرب ، فيومٌ بسوريا ، وسنة باوروبا ، واميركا ، والمرجع الى الآستانة . وكانت الالياذة رفيقي حيثما توجهت ، أختلس الأوقات خلسة ، فلا تفرغ اليد من عمل الا عدت اليها . ولطالما مرّت الأسابيع والاشهر وهي طيّ الحجاب ، ثم هببت بها من رقدتها ، وعاودت العمل ، وكثيراً ما حصل ذلك في رؤوس الجبال ، وعلى متون البواخر ، وقطارات سكك الحديد . فهي بهذا المعنى وليدة اربعة اقطار العالم .

وكنت حيث حللت اتوخّى الاستفادة من اهل ذلك المحلّ ، ولا سيا في الآستانة ، حيث هيّأ لي حسن التوفيق ان اتصلت ببعض ادباء اليونان عشاق هوميروس والياذته ، كاستافريذس ، ترجمان السفارة الانكليزية ، وكاروليذس ، احد اساتذة كلية خلكي اليونانية بالآستانة ، وبعضهم من قراء العربية ، فكنت اشاورهم في بعض ما التبس وأُغلــق ، وهم لا يضنّون ؛ وأقرأُ لهم اجزاءً من المنظوم العربي فتعروهم هـزة الطرب ، مستبشرين بتعريب أعظم منظومة لأعظم شعرائهم .

وهكذا ظللت بين وقوف ومسير الى اول صيف سنــة ١٨٩٥ ، فخرجت بعائلتي الى مصيف فنار باغجه في ضواحي الاستانــة ، وظللت فيها اربعة اشهر فرغت في نهايتها من عناء التعريب .

كتابة الشرح

على انني ، منذ شروعي في النظم ، كنت اطمح الى ما وراء ذلك ، اذ لو عرضت الإلياذة على قراء العربية عارية من الشروح ، لما خالوهــا الا هيكلاً شعرياً لا تربو فائدته على شيء مما بين ايديهم من الدواوين ، وما أكثرها في لغتنا .

فرأيت ان اعلق عليها شرحاً انتهج فيه اسلوباً جديداً لم ينتجعه احد من الشرّاح ، بغية ان يأنس القارىء العربي بالرجـوع في نظره الى اخلاق امته في جاهليتها وبعض حضارتها ، والمشهور من اساطيرهـا وعباداتها ، والمأثور من آدابها وعاداتها ، ومناهج شعرائها وادبائهـا ، ومواقف ملوكها وامرائها ، وساستها وزعمائها ، والاعجاب باتساع لغته في الوضع لكل معنى من المعاني الفطرية ، مع عجزها في الحال عن تأدية بعض الاوضاع العصرية ، وجميع ما يتناول وصـف حالة العرب ولغتهم وحالتهم الاجتماعية . كل ذلك بالمقارنة والمقابلة مع ما كان من نظيره في الأمم الغابرة ، ولا سيما في امم اليـونان . ويرتاح المطالع الافرنجي من قراء لغتنـا الى الولوج في باب لا اظنّ احداً ولجه من قبل ، فيبحث وينقّب ، ويسترشد فيرشد ، على ما جرى عليـه في سائر الشؤون ، ونحن عن معظم ذلك غافلون .

ولهذا لم يكن لي بـدٌ من مطالعة الاسفار الطوال ، والمجلدات الضخمة ، من كتب العرب والاعاجم في الادب والشعر والتاريخ . واذا القيت نظرك على باب الشواهد في المعجم ، في ذيل الـكتاب ، ورأيت انني اضطررت الى الاستشهاد بمئتي شاعر عربي ، بين جاهلي ومخضرم ومولد ، فضلاً عما نقلته من شعر الأعاجم ، عذرتني على مـا اضعت من الوقت في شرح الكتاب ، اذ ربما قرأت ديوان الشـاعر كله طمعاً ببيت واحد . — ولو جمعت الزمن الذي صرفتهُ في النظم ، لما زاد عن نصف مثله مما صرفته في تدوين الشرح .

وفي اوليات سنه ١٨٩٦ دعاني داعٍ حثيث الى القاهرة ، والنفس تشتاقها ، فانتهزتها فرصةً ، وانتقلت بعائلتي اليها . ولكنّ اموراً هامة حالت دون تمثيل الكتاب بالطبع ، اخصها اشتغالي بعمل شاق آخر هو

« دائرة المعارف [١] » . ولكنني كنت اختلس اويقاتٍ يسيرة ارتب الشرح في اثنائها ، حتى انتهيت منه عام ١٩٠٢ ، فباشرت الطبع .

ولست بمعتذرٍ لأبناء وطني عن انقضاء كل هذا الزمن قبل نجاز العمل الاخير ، فقد ألفنا التأني والمطل ، وان الواحد منا ليشرع في طبع مئتي صفحة ، فتمرّ الاعوام ولا يتمها . على ان ابن الغرب تعتريه الدهشة لمثل هذا التراخي ، وهو في بلاده لا يكاد يسمع بتأليف كتاب ، حتى يراه مطبوعاً تتداوله الايدي . فلمثل هذا اللائم اقول : ان الحالة عندنا على خلاف ما تعهد ، فليس في بلادنا شركات تأخذ على نفسها طبع الكتب على نفقتها ، فتعدّ المال والرجال . بل لا بد عندنا ، وان توفرت النفقات ، ان يتولى المؤلف ، في مثل هذه الاحوال ، طبع كتابه بنفسه . وان استعان بصديق او غيره على مراجعة مسودَّة ، فلا يغنيه ذلك عن ان يكون هو المصحح المنقِح . واذا زدت على هذا ان دواعي صحة الجسم تلجئني كل سنة الى ايقاف العمل بضعة اشهر ، اذ اضطر ان ابرح مصر الى لبنان او غيره من بلاد الله ، اتضح اني اسرعت في طبع الالياذة مع ابطائي في اعدادها .

المعجم والمقدمة

وفي منصرم ربيع السنة الماضية (١٩٠٣) كان الفراغ من طبع الالياذة وشرحها ، فحملت الكتاب معي الى لبنان حيث قضيت الصيف وانتهزت فرصةَ الفراغ والراحة لكتابة المُعجم . وحالما وصلت القاهرة في آخر الصيف اخذت في انشاء هذا الفصل وسائر فصول المقدمة . — وهكذا فقد كان الفراغ من هذا الكتاب حيث كان الشروع فيه ، اي في قاهرة مصر . واراني ، كما اسلفت لك ، لم اذخر وسعاً في تحبير

١ — طبع الجزء التاسع من « دائرة المعارف » سنة ١٨٨٧ ، والعاشر سنة ١٨٩٨ ، والحادي عشر سنة ١٩٠٠

تعريبه وتنميقه ، ولم آلُ جهداً في تطبيق شرحه وتنسيقه ، فان احسنت ، وفيه منتهى جهدي ، فذلك من حسنات الاجتهاد ، والاّ فحسبي ان افتحه باباً يلجه من وفقه الله الى سبيل السداد .

(القسم الثالث)

الطبقة الثالثة

المولدون او شعراء عصر العباسيين

قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ للهجرة (٧٥٠ م) ، والسلطة الاسلامية موطدة الدعائم ، مشيدة الأركان ، وغزاة العرب ضاربون في المشارق والمغارب ، يقوضون ما تداعى من مباني الفرس والرومان ، فينبذون الأنقاض البالية ، ويشيدون على اسس الحزم دولة قيض الله لها أن تكون دولة العزة والسلطان في ذلك الزمان فامتلأت خزائن الخلفاء بكسب المجاهدين وجباية الأموال ، وتسرّب ما فاض منها إلى بيوت المقربين وصنائعهم من أمير وفقير ، وعميد وشريد . فذاقوا حلو حضارة الدولتين الهاويتين وتبدلوا برقعة عمر ذلك الدثار الرث الذي ضم بين ردينه عماد الاسلام والمسلمين ، بزة الخز والديباج ، وبغُلالته من لبن

وتمر وأيسر الإدام ، شهي طعام لماظته الفالوذ والسكباج ، وبذلك الرحل على بعير قارح يمتطيه الخادم والمخدوم ، وهما سواء في شرع الاسلام ، السروج الموشاة على الجياد المطهمّة تحفّ بها مواكب الحشم والغلمان . فعلت القصور ووشيت الخدور ، وزها الرياش ، وانبسط المعاش . والشعراء من افراد تلك الامة يرقون رقيها في معارج العمران .

فلا بدع وكل ذلك مشهود الشعراء ، ان تتثقف أذهانهم ، وتتروّض نفوسهم ، وتتسع مداركهم ، ويرقّ تصورهم ، ويمرحوا في روض من الشعر اريض يجولون فيه جولة لم تتوفر اسبابها لسلفائهم ..

والمولّدون مع بلوغهم من البلاغة واحكام الصنعة اقصى الدرجات فانهم يؤاخذون ، ولا سيما المتأخرين منهم ، على مغامز ترجع إلى خلال اربع :

الخلة الاولى : اقتضاب الوصف الشعري . فلا تبرز الحقيقة جلية على فطرتها في كثير من شعرهم . ويستثنى من ذلك الحكم والامثال ، وكذلك الابحاث العلمية التي ليست من لباب الشعر . ويندر ان شاعراً يعمد الى وصف فيستتمه ويرسمه رسماً جلياً كاملاً كما رأيت في ناقة طرفة وثور عبدة . فترى الافكار متزاحمة والمعاني متلازة في منظوماتهم ، فتختل اللحمة بينها ، وتأتي متراكمة ، فيفوت السامع شيء كثير مما تصوره وقصّروا في تصويره فهم بهذا الاعتبار قد عدلوا عن منزع الفطرة ، وابعدوا عن البداهة الجاهلية ، وتحولت معهم المقاصد الشعرية ، إذ بات مرماهم فيها جر المغانم ودفع المغارم .

وان كلامنا في كل ذلك اجمالي لا يؤخذ منه خلو شعر المولدين جميعاً من بدائع الوصف التام واجادة التصوير ، فقد تجد في شعر المولدين ما يضاهي منحى الجاهليين ، وان رمت مثالا لذلك فاقرأ قصيدة المتنبي

التي مطلعها :

في الخد ، ان عزم الخليط رحيلا مطر تزيد به الخدود محولا .

الخلة الثانية : تبذّلهم في المديح حتى جعلوا الشعر صناعة للتكسب ومهنة للاسترزاق . فكاد يمتهن الشعر وتنحط طبقة الشعراء في عيون عظماء الأمة . ولو تتبعت اقوال فحولهم كالبحتري ، وابي تمام ، والمتنبي ، لما رأيته يتعدى المدح للمحسن اليهم ، والهجاء للممسك عنهم . بل ربما هجوا ممدوحهم ومدحوا مهجوهم طمعاً وتشفياً ، كما كان شأن المتنبي مع كافور .

ولا يستثنى منهم سوى أفراد خرجوا ترفعاً عن موقف الذلة والمسكنة : إما لسعة في حالهم ورفعة في درجتهم الموروثة كابن المعتز وأبي فراس، فذلك من أبناء الخلفاء ، وهذا من نسل الامراء ؛ وإما لحكمة فطروا عليها ، وأنفة في طباعهم ، وزهد في نفوسهم ؛ كالمعري وما أقل أمثاله بين المتقدمين والمتأخرين ! ولهذا كان المعري يرجح كثيراً في ميزان الرجال على المتنبي وأمثاله ، مع ان الرجحان بيّن للمتنبي في ميزان الشعراء .

الخلة الثالثة : ابتذال الغزل ووصف الغرام حيث لا محرك اليه إلا التوطئة للمديح . فجاء اكثر ما نظم من هذا القبيل غير مثير للعاطفة ولا مؤثر في النفس ، وان كثر فيه الحنين والانين ، بخلاف ما يقصد به شخص معين ، كما رأيت في قصيدة ابن زريق .

وهو ثابت ان التوطئة بالغزل ليست من بدع المولدين ، بل هي خطة درج عليها الشعراء من أيام الجاهلية . على ان الجاهليين لم يبتذلوها ولم يتعمدوها إلا في احوال مخصوصة كان يزدان بها شعرهم . ولم يصف شاعرهم في اكثر المواقف الا غراماً برّح به كما ترى في غزليات امرىء

القيس وعنترة . واذا تعدى تلك الخطة فلم يتعدها الا قليلا ، بخلاف المولدين اذ كانوا يتكلفون الغزل تكلفاً كأنه من لوازم الاستهلال .

والظاهر ان كثيرين من ذوي الروية والنقد كانوا ينكرون تلك الطريقة حتى في ابان الزمن العباسي ...

واذا اردت دليلاً محسوساً على صحة هذا النقد فخذ قصيدتين من مختار شاعر واحد وطّأ الشاعر بالغزل في احداهما ، وولج الموضوع توّاً في الاخرى ، فتبدو لك فوراً مزية مطلع الثانية على الأولى .

ولا يجب أن يستفاد مما تقدم اننا ننكر التوطئة على الاطلاق . فانها ، اذا جادت ، ووقعت في موضعها ، ووافقت موضوعها فانها تشق شغاف القلب وتذكي شرارة النيرة فتهيم بها البصائر ، كما يقع لسامع قصيدة أبي تمام التي مطلعها :

السيف اصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

فقد أراد مدح المعتصم العباسي على أثر فوزه ذلك الفوز المبين وتنكيله بجيوش الروم وفتحه عمورية ، فوطأ لمدحه توطئة استهلها بما تقدم ، وما اجملها توطئة لمثل ذاك المديح !

ومما يحمد عليه المولدون بهذا المعنى توطئتهم للرثاء بالزهد واشباهه .

الخلة الرابعة : تجاوزهم في المجون وبذاءة التعبير إلى ما لا يستبيحه أدب المجالس ، ويغض من قدر الشعر ومنزلة الشعراء . وهذا ايضاً ليس من بدع المولدين بل سبقهم اليه شعراء الجاهلية والمخضرمون حتى أودعه امرؤ القيس معلقته . وفي أهاجي جرير والاخطل والفرزدق ما لا يعد مفخرة لأمثال اولئك الفطاحل . ولكن الجاهليين كانوا يأتونه عفواً على البداهة ، فاستمسك به المخضرمون واوغلوا فيه ايغالا أدى بالمولدين إلى التفنن به تفننهم في سائر ضروب الشعر ، وفحشوا فيه فحشاً فاضحاً .

ومن ذا الذي يقرأ أهاجي أبي تمام لمقران ، والمتنبي لابن كيغلغ ، ومجونيات الصفي الحلي ، ولا ينكر ان تشان بدائع منظوماتهم بتلك السفاسف الهجينة . واغرب من هذا ان كثيراً من تلك البذاءات ممتزج بدرر من المعاني تضيق عنها ارحب القرائح . فاذا قرأت قصيدة المتنبي التي يستهلها بقوله :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم ! عرضاً نظرت ، وخلت اني اسلم

فانك ترى فيها من غرر المعاني وابكار الافكار ما جرى اكثره مجرى الامثال وتنوقل جيلاً بعد جيل في اندية الادب . ومع هـذا فانك لا تتمالك من الانكار على الشاعر خلط هذه النفائس بتلك الخسائس .

واقبح من كل ذلك تشبيبهم بما لم يشرعه الله ولم يسق اليه الطبع ، ولم يفش قبلهم في شعر الجاهليين . وإنما هو بدعة اقتبسوها بملابسة المدنية الجديدة ، فما اوغل إمامهم ابو نواس في ذلك النهج البذيء حتى هبوا إلى تحديه .

والظاهر ان ذلك التراخي كان مندمجاً بروح العصر ؛ فانتهجه الشعراء وسلك مسلكهم صفوة الادباء كالبديع الهمذاني ، والحريري وسموه احماضاً ، كأنه فكاهة مستملحة يتطلبها كل اديب اريب . ولهذا قال الحريري في مقدمة كتابه : « وما قصدت بالاحماض فيه الا تنشيط قارئيه » .

ذلك ما يعاب عليه المولدون ، ما خلا رهطاً منهم سما ادباً ، وتهذب عقلاً ونفساً .

أما الياذة هوميروس فهي ، على ما وصلت الينا ، نقية من تلك المغامز لا يؤخذ صاحبها على شيء من هذه الخلال الأربع . اما الخلة

الأولى فلأن الشاعر جاهلي ، وحيثما تصفحت شعره رأيته ابدع في الوصف ورسم الحقائق . وأما الثانية والثالثة فلأنهما مخالفان لطبعه ، وذلك باد في كل منظومه . أما الرابعة فقد تحاشى عنها الشاعر لسمو في ادبه ، مع ماكان فاشياً في عصره من الاستسلام للشهوات ، كما اثبتنا في ترجمته . ولهذا جاءت الياذتـه نقية لا يتخللها شيء ممـا تحظر قراءته حتى على الغادة العذراء .

(القسم الرابع)

بين العربية واليونانية

واللغة العربية شعرية بطبعها لتفرع مفرداتها وتنوع اشتقاقاتها القياسية على اسلوب لا يرى له مثيل في اللغات الآرية . والقوافي مزدحمة فيهـا ازدحاماً يسهل النظم . وهي ، بخلاف مـا يزعم بعض الاعاجم ، جزلة التركيب ، محكمة الانسجام . وفيها من طرق الحذف والتقدير والتقديم والتأخير ما ينفسح معه المجال للشاعر لصوغ عبارتـه في قوالب شتى . وتلك مزية تمدح عليها اللغة في الشعر ، وان عيبت في النثر حيث يقصد الجري على نمط واحد جلي . وهي على الجملة ، متسعة للشعر اكثر منها للنثر . فشعرها منذ القديم ارفع طبقة من معظم نثرها ، وجيده أسهل منالاً من جيد النثر ، حتى لقد تجد النثر شعراً في كثير من الاحوال .

ولا شك ان الزمان قد طوى كثيراً من الفاظها الوضعية . ولكن ما بقي منها فوق حاجـة الشعراء لتأدية المعـاني الفطرية ، والافكار البديهية ، والاوصاف الخلقية ، والحقائق الحكمية . وسائر مـا توخى تدوينه قدمـاء الشعراء كهوميروس ، وفنـذاروس ، وفرجيليوس ، وهوراس ؛ فهي بهـذا المعنى لا تقصر بشيء عن لغة الالياذة اليونانية ،

المشهورة بجزالة تركيبها ، ورقتها وانسجامها ، وإحكام وضع المفردات فيها.

ولا ترجح اليونانية على العربية إلا باتساعها لمشاكلة الالفاظ للمعاني ، وتوفر اسباب النحت فيها لصوغ الالفاظ المركبة . وفي ما سوى ذلك لا اخال لها رجحاناً ، بل ترجح العربية في اتساع المفردات ، وتشعب طرق التركيب ، والخروج بقياس الاشتقاقات إلى ما لا نهاية له من المعاني.

ولقد بدا لي ، أثناء التعريب ، من ثروة العربية في الالفاظ الوضعية القديمة ما أغناني عن الانحراف بالمعنى ، على نحو ما اضطر اليه بعض نقلة الافرنج ، على ما تقدم في الفصل السابق . ورأيت من المماثلة بين اللغتين في دقة الوضع ما يدهش له الناظم والناثر . وينبئك ذلك ان العرب لم يغفلوا وضع شيء من الالفاظ الدالة على جميع مطالعاتهم ومحسوساتهم ، حتى أصبحت مفردات اللغة في زمنهم رابية على حاجة التعبير . ولا سيما في الحسيات . وما هذا النقص البادي الآن في إحكام التعبير ، وخصوصاً في المعنويات ، إلا نتيجة إهمال الخلف اقتفاء آثار السلف.

... وبين اليونانية والعربية فرق كبير في نسج العبارات وتركيب الجمل من حيث التقديم والتأخير . وصيغ الاشتقاق والجموع ، والحروف والنحت ، وتركيب الاسماء ، ولكن نهج كل لغة حسن في بابه واسباب الفصاحة متيسرة لأبناء كل لغة اذا أحكموا الرصف على نهجهم

ولكن للعربية مزيتين في مفرداتها تقصر اليونانية وسائر اللغات عن مجاراتها فيهما : وهما كثرة المترادفات في الالفاظ الدالة على المعنى الواحد. وتعدد المعاني للفظة الواحدة . فقد ذكروا عشرات ومئات من الالفاظ الموضوعة لمسميات معينة من الحيوانات كالاسد والحية والبعير والناقة والفرس والثور والكلب والهر ، والمأكولات كالتمر واللبن والعسل ، والمشروبات كالماء والخمر . والسلاح كالسيف والرمح ، والصفات كالطيور والقصير والكبير والصغير والشجاع والجبان والكريم والبخيل ، وغير

ذلك من مألوفهم كالنور والظلام ، والشمس والقمر والسحاب والمطر ، والتراب والحجر ، ولهم مثل ذلك في الافعال.

... يؤخذ مما مرّ ان العربية قد خصت بثروة في مفرداتها ، واتساع في طرق تعبيرها ، تفاخر بها سائر اللغات القديمة والحديثة . ولكن تلك الثروة وذلك الاتساع قد يمسيان بالاهمال وسوء الاستعمال ضيقاً وفقراً . فإذا شكونا الزيادة ، فما احرانا ان نشكو النقصان . فقد مرت القرون وتعاقبت الاجيال ، واللغات الحديثة جارية مع العلم والحضـارة جري الشقيق الشفيق . والعربية كانت حتى هذا الزمن القريب ثابتـة في موقف واحد ، كأن باب الاجتهاد قد أوصد في وجهها . وليس في سنن الخلق ما يوجب ذلك الايصاد بالنظر الى اللغة . بل اذا تتبعنا خطـة السلف من عهد الجاهليين الى انقضاء العصر العباسي . رأينا أبناء هـذه اللغة عاملين على تمحيصها وتهذيبها ، وإيداعها كل ما بدر وصدر من نتاج العلم أو اقتضته ملابسة سائر الملل . فكانت في مقدمـة اللغات اتساعاً لكل مادة ومعنى . ولم تكن تضيق عبارة ناظم ولا ناثر عن تأدية كل مفـاد عصري .

(مقدمة الالياذة — القسم الخامس)

من كتاب «عبرة وذكرى»

توجيه ...

اعلن الدستور سنة ١٩٠٨ وما كاد يمر شهر واحد على هذا الاعلان ، حتى دفع البستاني الى المطبعة بكتابه « عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده » . وفي الكتاب دراسات قيمة في سياسة الاصلاح والعمران ، ولفتات بارعة نحو مستقبل واعد .

لا يتوهمن ابناء الوطن العزيز ان الدستور نعمة اتتهم عفواً . فلئن اعلن واستقبل ولم تهرق يوم اعلانه الدماء ، وقال الناس تلك اعجوبة لم يأت الزمان بمثلها ، فانما هو قول صادق إلى منتهى ادواره والى الحكمة الباهرة التي ازدان بها رؤساء هذه الحركة ، وما ابرزوه من التجرد عن الغايات والمطامع ، فحقنوا الدماء التي كانت موشكة ان تتدفق سيولاً .

ومع هذا فاننا لم نزل في أول ميدان الجهاد ، والعقبات الصعاب تكتنفنا من كل جانب ، ونصراء الاستبداد غير مائتين ، وانما هي استماتة وقتية يرتقبون الفرص في اثنائها ولهم من ابناء التقليد البحت وحزب التقهقر الاعمى ، عون قوي يلتف حولهم ايان تسنى لهم الأمر . والأصفر الوضاح ما زال يبذل سراً لعرقلة المساعي التي يقوم بها دعاة الاصلاح . وللدولة من المشاغل السياسية ما يجعل اسرّة البغاة بارقة املا باستعادة شيء من ماضي رفعتهم وساقط نفوذهم .

وان جميع ابناء هذه الامة المخلصين ، عالمون الآن ان المجال متسع للاعداء والحساد ، لتحين الفرص لتمزيق شمل هذه الشعوب التي

تضامّت بعد التخاذل الطويل ، وان الايدي ممتدة من كل جانب إلى استحياء التعصب الديني والتعصب الجنسي وايقاظ ابالسة الفتن . فاذا لم تقطع هذه الأيدي قبل أن تجد لها متمسكاً تتشبث به ، كانت الحالة الاخرى اشر من الاولى .

لم يمر على العالم منذ خلقه الله ، زمن خطا فيه العلم مثل خطواته في السنوات الثلاثين التي انقضت . فان عقول البشر سرحت كل مسرح ، فوسعت المعارف المعقولة والمنقولة فمحصت التاريخ وضربت في مجاهل الارض وسهلت العلوم القديمة ، واوجدت علوماً جديدة في كل من ابواب المادة والاجتماع ، وفتحت للعمران سبلاً لم تكن في الحسبان وحامت حول المجهولات حومة استجلت بها الكثير من غوامض الطبيعة . واكتنفت الاختراع والاكتشاف من كل جوانبهما ، فطافت بهما وجه البسيطة ، وخرقت قلب الأرض ، وغاصت في أعماق البحار ، وطارت في الهواء ، وامتطت لب الاثير فتجاوزت الى الافلاك وضمّت كل ذلك إلى ما ادخره لها الاقدمون وهي لاتزال ساعية إلى حيث لا يعلم إلا الله . كل هذا ونحن في هذه الحركة المستمرة جامدون خاملون ، يتلقاها العالم أجمع بوجه بشوش ، ونحن نصدها عن اجتياز بلادنا ، وما هي إلا شرارات متناثرة قذفتها علينا في سيرها وتجاوزتنا إلى أقاصي الأرض فلبثنا حيث نحن ، والعالم في سير حثيث .

وأمل

يخاطب البستاني ابناء وطنه بثقة من ينظر الى الغد بعين الأمل ، لان الدول تدول وتنقرض ، اما الامم فتبقى حية ما حيي الناس . وما اصاب الامة العثمانيـة من انحطاط وفقد وطنية ، انما كان حـدثاً عارضاً زال بانقـراض دولة الاستبداد . ويغمض جفنيه ليطلق خياله في ما يكون من شأن الامة بعد ربع قرن من المثابرة على العمل البناء فيرى :

... ان ابناء هذا الوطن قد ادركوا معنى الحرية الصحيحة وعرفوا ما لهم وما عليهم واوثقوا عرى الاخاء والسواء فأصبحوا انفساً متعددة في جسم واحد يعمل عملاً واحداً .

... وانه بانطلاق الحرية الشخصية المقيدة بقيود الحقوق وفروض العدل والذمة ، تنمو سائر فروع الحرية فتتسع معاهد العلم لكل أنواع العلوم مما كان مباحاً وما كان محظوراً ... وان تعميم طريقـة التعليم عـلى نمط واحد يؤلف بين القلوب . واذا تفاهم النـاس حسن ظنهم بعض ببعض وزالت اسباب الفتن ، وتسهلت طرق الوئام فأصبحت هذه الامم امة واحدة تسعى إلى غرض واحد .

... فيا حبذا ذلك اليوم الذي نراه مذ الآن في مسارح الخيال ، يوم لا يبقى من الاستبداد إلا الم ذكراه وطرب الفوز بدك معالمـه يوم ينتشر العلم فيسطر الفلاح حساب مزروعاته بخط يده . يوم ينتظم الفتيان جنباً لجنب في فرق الجندية من ابناء كل ملـّة ودين . يوم تخضل الارض ولا ينال البحار من مياه الانهار الا فضلاتهـــا . ويهب ارباب الاموال

إلى تثمير اموالهم في بلادهم فيؤلفون الشركات ويتبارون بانشاء المعامل وينيلون البر حظاً مما رزقهم الله زكاة طيبة تنفق في كل باب ينتفع به اخوهم العاجز والفقير ... وليس هذا اليوم ببعيد باذن الله .

الحريات

الطريق التي تقود الى هذه الحالة من الازدهار ، تبدأ بالحرية . الحرية المطلقة في مختلف النشاطات الفكرية والاجتماعية ، لا يقيدها الا القانون ، ولا يحد منها سوى احترام حرية الغير . وقد عرض الكاتب صوراً من العهد العثماني وافتقاره الى الحرية ، يحسن ان تقارن باقوال ولي الدين يكن في هذا الباب .

الحرية الشخصية : ان اول ما يحرص عليه المرء حرية شخصه . فلقد كانت لعهد مضى مطلقة يسرح المرء ويمرح ايان شاء ويخالط من شاء ويقول ويعمل ما شاء ممّا لا ينال سواه باذى . وهو في كل ذلك لا يخشى وشي رقيب او مفاجيء . فاذا بنا والعيون قد بثت ، والارصاد قد سدّت السبل ، ويا لشقاء من القاه سوء البخت بين براثن تلك الذئاب . يبيت المرء في منزله ، وعياله الى جانبه ، وهو غير آمن ان يفاجئه طارق في دياجي الظلام فيختطفه من بين ذويه . اذا خطا نظر الى ما وراءه خشية ان يكون له من ظله رقيب ، واذا تكلم مع صديق او رفيق على قارعة الطريق تراه يكاد يهمس خوفاً ان تبدر منه كلمة تحتمل التأويل كأن القسطنطينية رجعت الى زمن كاليغولا في رومة ، والطير نزلت على رؤوس الناس كبيرهم وصغيرهم .

وانه لا يكثر على كل من أقام زمناً في الاستانة او في بعض مدن

الولايات ان يؤلف مجلداً في ما سمع او رأى من غرائب الوشاة . ودونك مثالاً واحداً من أخف ما لقي الابرياء من شرهم .

عرفت شاباً من ابناء التجار قصد الاستانة لعمل مالي ، وكان كثير التردد عليّ . فما مضت بضعة ايام إلا واتاني ووراءه ذنبان . وانني مع كل ما خبرت ووعيت من اخبار الجواسيس عجبت ان يكون صاحبي موضع ريبة فيجر وراءه هذين الذيلين . فلما جلس وبقي الرجلان على مقربة من الباب ، سألته عمّا بدا منه حتى بات موضع التهمة . فأقسم انه لا يعلم شيئاً وانه لم يشعر الا وهذان يتعقبانه ويرافقانه كظله ؛ فاذا مشى مشيا ، واذا دخل بيتاً انتظراه لدى الباب ، واذا ركب عربة أو باخرة من بواخر البوسفور ركبا . فظللنا نسعى أشهرا لنقف على السبب الى ان اخذت الشفقة يوماً ناظر الضابطة فاطلعه على ورقة مرفوعة الى (المابين) من واشٍ يقول فيها : ان فلاناً اي صاحبنا اتى الاستانة قصد استطلاع احوالها قبل ان يذهب الى باريس وينشىء جريدة ملؤها الطعن في الدولة . وهو ذو عزوة كبيرة ومقام كبير وله شهرة عظيمة بين كتّاب العصر . واني لو نفع القسم وقتئذ ، لأقسمت ان فلاناً هذا لا يعرف ما الكتابة في الجرائد ولا يخط بحياته فيها حرفاً . ولا أثر لتلك العزوة وذلك المقام ، ولم تخطر له تلك الفعلة ببال ولو في المنام . وانما هي مكيدة نصبها له رجل طمع في مشاركته في تجارته ، فلما ابى ان يشركه معه عمد الى هذا الانتقام الدنيء . وهكذا بقي صاحبنا سنوات يتظلم وما من سميع فلا يفرج عنه فيرجع الى بلده ، ولا يؤذن له بعمل يرتزق منه . وانت تعلم ما تؤول اليه حاله بعد سنوات .

وانها مع هذا مصيبة لا تعدُّ من كبار المصائب ، اذ لم يؤذ الرجل بجسده ، ولم يصادر بماله . وهذه القيود والاغلال في اعماق السجون

تكاد تشتبك غيظاً لكثرة ما اثقلتها المعاصم والاقدام . وهذه بنغازي وبعض المدن النائية في اطراف السلطنة تضج منتحبة لما ترى من شقاء المبعدين ، بل هذا البوسفور يوشك ان يفور تلهفاً على تلك الجثث فيقذف بها الى ثغريه خشية ان تبيت دفينة في بطون الحيتان . فاذا كانت تلك حالتنا بالأمس ، فمن ذا الذي يعجب لخروج الناس افواجاً من ديار يحسبونها دار شقاء ؛ ومن ذا الذي يجهل ما يكون بعد نشر راية الحرية من تهافتهم اليها تهافت الابناء الى الأم الرؤوم ؟ وما يكون من رواج التجارة ونمو الزراعة وارتقاء الصناعة ، ومن الاقبال على جميع الاعمال.

حرية الصحافة : واذا كان هذا شأن الحرية الشخصية ، فما عسى ان يكون شأن حرية الصحافة ... اصبحت تحت مراقبة حوّلتها الى ابواق تمجيد واغوال تهديد . يضطرب اصحابها خوفاً ، لكلمة تصدر منهم او من محرريهم يتأولها اولو الأمر على غير ما ارادته الجريدة . وما كانت رقابة المراقبين وان اطلعوا على جميع ما يكتب قبل الطبع لتخفف من اخطار العقاب . فكم من جريدة الغيت او اوقفت لزمن محدود او غير محدود لخبر روته عن جرائد اوروبا ينبىء بمقتل وزير في الصين او امير في افريقيا ، واختراع ذكرته لآلة تطير في الهواء او غواصة تسير تحت الماء . بل كم من مرة فاجأ الجريدة الأمر بتعطيلها وظل صاحبها يبحث أشهراً فلا يعلم لذلك سبباً..

اما المقالات السياسية فباتت من امثال العنقاء ، تذكر ولا ترى ؛ وبات العثمانيون وهم يقرأون في جرائدهم القليلة نتفاً من اخبار الدول ، ويقرأون شيئاً عن سياسة بلادهم وادارتها الا ما اشير به الى نعمة سلطانية او تعيين والٍ او مأمور او ادعية متوالية تشف عن غلّ شدّ في اعناق الصحافيين وقادهم وهم صاغرون في سبيل لا يتاح لهم ان يلتفتوا وهم سائرون فيه يميناً او شمالاً . ولهذا لم يكن في البلاد من ينكر عليهم هذا الصغار ، بل كان الناس ينظرون اليهم نظر الاسير

المشفق على أسير آخر بازائه .

حرية التاليف والترسل : اما التأليف ، فهو من خصائص فئة قليلة من الناس وهم ليسوا في الغالب من ذوي السعة واليسار . واقل ما يشعره سمعتهم في آذان ارباب الاستبداد ، انهم من ذوي الافكار الحرة ، ليس في آذانهم وقر ولا غشاوة على ابصارهم . وما كان احوج الظلام الى كسر تلك الاقلام . ولم يكن في الوسع ان يفعلوا ذلك علناً خوف الفضيحة فاسبلوا ستار الرياء وهو شفاف .

وحبذا لو وقف المستبدون عند هذا الحد وتركونا نتمتع بقراءة الكتب التي ألفت قبل استئثارهم بالأمر ؛ فانهم بعد ان سدّوا السبل في وجه الجديد المفيد ، واوصدوا الابواب في وجه الكثير من مؤلفات الاجانب ، اخذوا يتعقبون آثار كل قديم فيه نفحة من نفحات الحرية . ولقد طالما كان الوشاة يتخذونها وسيلة لنيل ما لم يستطيعوا اليه سبيلاً بطرق البذل والاسترحام ... وكم من مؤلف قرىء دهراً بلا حرج، ثم صودر وحظر النظر اليه لكلمة او عبارة وردت فيه . وكم من مكتبة زج صاحبها في ظلمات السجن لشبهة تلوّث فيها لبيع كتاب او لذكر اسم ذلك الكتاب في حديث او رسالة وجهت اليه من صديق .

وما عسى ان نقول عن حالة الكاتب الخاصة ، اذ كانت المنازل تفاجأ على غرة من اصحابها وتفتح خزائن الكتب ، وان كان بعضها مدخراً من عهد الآباء والاجداد . ويتذرع الوشاة ولو بصفحة من كتاب مؤلف منذ قرون لأخذ صاحبه غيلة . وان حملة واحدة حملها الوشاة منذ سنتين على بعض وجهاء القوم في طرابلس وبيروت وصيدا ، اسفرت عن سجن جماعة من خيرة العلماء وطلبة العلم واحراق الالوف من الكتب النفيسة ؛ حتى ساد الرعب بين طلاب الكتب فكانوا يتلفون بأيديهم تلك النفائس التي جمعت بشق الانفس ، حتى قدّر ما اتلف بايدي اصحابه بيوم واحد

بما يقرب من خمسين الف مجلد وكانت النيران تلتهم الكتب التهامها يوم دخلت جنود هولاكو بغداد ...

وقد كان امر المراقبة شائعاً بين الناس حتى كان الصديق إذا بعث برسالة سلام وتودد الى صديقه ، يحسب ان عيناً أثيمة تنظر الى ما كتبه وتحلله وتشرحه قبل ان يقع تحت نظر صاحبه ، فيودع كتابه من العبارات ما يدرأ شر الوشاة وشبهات المتعنتين .. لأن الرسائل التي كان يخشى اصحابها فض ختمها قبل تسليمها كانت تستهل وتختم بالادعية والثناء على رجال (المابين) وعملهم : وكل من الكاتب والقارىء يخط ويقرأ كذباً وتدليساً .

وكانت لهم مهارة مذكورة بفتح التحارير وفض الاختام ولو كانت بالشمع ، حتى يخيّل لك أنهم لو استفادوا من البخار والكهرباء وسائر مخترعات العصر ما استفادوه من الاحاطة بجميع وسائل فض الأختام لرقوا بالبلاد درجات . ولم تكن تلك المراقبة خلواً من كل فائدة واليك مثالاً على سبيل التفكهة :

بعث الي صديق من بغداد ، كتاباً ونسي ان يضيف اللقب الى الاسم على الظرف ، فلم يكن عليه الا اسم سليمان ، وفي الاستانة الوف سليمانات . ومع ذلك فالكتاب وصلني لوجود الاسم واللقب معاً داخل الكتاب . فشكرتها لهم منة عظيمة لما كنت اتوقعه بذاهب الصبر من اخبار صاحبي .

سألني أحد اصدقائي ممن لم يروا الاستانة ان اكتب له شيئاً في وصفها . وكان ذلك في زمن الاستبداد يوم كانت جميع الرسائل تحت رحمة الجواسيس ، وكلمة نقد جريمة لا تغتفر . فقلت تملصاً من حراجة الموقف بعد وصف جمال ذلك الموقع الفريد : « وكأن الانسان اشفق على ذلك الجمال الرائع ان تعبث به يده البشرية ، فغادره على فطرة خالقه . !»

الحوبة ومامورو الحكومة : كان الداء (في الدولة) منبعثاً من حيث يجب ان يكون الدواء . ولا همّ للقابضين على زمام الاحكام الا سدّ مطمع وادخار ثروة ليوم عصيب . وسواء عليهم أعمر الملك ام اندثر ، فكلهم قائل قول لويس الخامس عشر : وبعدي الطوفان .

وما قولك بصير حكم هؤلاء هم حملة لوائه . اذا ذلّ احدهم تذرع بالغدر والنميمة لنيل مأربه ، واذا ظفر واستقر على عرش جبروته نظر الى الناس نظر الرتيلاء الى الذباب . فكان شأنهم مع هذه الملة ، شأن عصابة قرصان يطوفون البحر بسفينتهم ، فلا هم بأمن من فتك مدافع وبطش رقيب ، ولا الضاربون بعرض ذلك البحر بأمن من غدرهم ، ومع هذا فمن كان من هؤلاء المأمورين يأمن على بقائه في منصبه عاماً واحداً ؛ بل من كان على يقين اذا عيّن والياً لولاية ان يبقى في منصبه حتى يتربع في دست حكمه . وما اكثر امثال هذا التذبذب في تعيين المأمورين . عيّن اسماعيل بك والياً لطرابلس الغرب سنة ١٨٩٥ وصدرت الارادة السنية باعداد باخرة خاصة لنقله اليها مع حاشية من المأمورين ، وكنا من جملة المودعين ، فما كاد ينزل الى الباخرة مع عياله وحاشيته ، حتى أمرت الباخرة بالبقاء ، فبقيت في ثغر الاستانة ثلاثة ايام ، ثم ارسل الى طرابلس وال آخر . وورد البصرة سنة ١٨٨٢ خبر تعيين طليع باشا والياً عليها فحمل له البرق رسائل التهانيء ؛ فارجع على بعضها اجوبة الشكر ، ورجعت على بعضها الآخر اجوبة الاقالة .

واعظم من هذا ايضاً ما فشا من الزيغ في تعيين المأمورين على هوى ذوي النفوذبلا فحص ولا تدقيق ولا نظر الى السلك وسابق الخدمات ، فكم من والٍ صعد الى الولاية وهو يتمنى قبلها ان يكون في حواشيها ؛

او معتمد سياسي وقنصل لم يمرّ بحياته على ابواب نظارة الخارجية مع ان القوانين صريحة بمنع هذه المجازفة ...

عرفت مثمّناً بادارة جمرك براتب ثلاثماية غرش ينقـد ناظره مئة وخمسين عثمانية كل شهر حق اغضائه عنه . وعرفت كاتب رفتية براتب ثمانين غرشاً يعول عشرة انفس وله حظيّة ينفق عليها الالفين شهرياً . وعرفت بازاء امثال هذين كثيرين من ذوي الرواتب المعتدلة يشكون العسر ومنهم واحد براتب الفي غرش يقـتر على نفسه وعلى عياله ويشكو الفاقة لأنه لا يصرف له في كل السنة إلا راتب ثلاثة اشهر . وعرفـت مديراً للتلغراف عـزل من منصـبه فلبث سنين عـلى بساط الفاقة ؛ ولما نشبت به مخالب الجوع عيِّن ساعياً للتلغراف ، باسعاف رجل من قدماء مريديه براتب مئة وخمسين قرشاً . والجوع خير من الموت .

الاعمال العامة والشركات

بعد ان يبحث موارد الدولة ، ويستفيض في الكلام على الزراعة وأهميتها ، وعلى سائر موارد الثروة في البلاد كالمعادن والصناعة والتجارة ، يتوقف البستاني على ظاهرتين هامتين في حياة الشرق العربي عامة ولبنان خاصة : هـما المواصلات والسياحة .

المواصلات : اذا ضجّت البلاد بالشكوى من اهمال الزراعة والصناعة وقلة العناية بانماء التجارة ، فشكواها عظيمة أيضاً لإهمال الاعمال العامة المنوط النظر فيها بنظارة النافعة ... فوسائل النقل وتقريب سبل الاتصال، وهي روح إنماء الثروة، لا تزال قاصرة على بعض طرق

الحديد التي لا تفي بالمراد ، وجميعها - ما خلا سكة حديد الحجاز - مما يدار بالامتياز بايدي الاجانب بشروط فادحة تثقل كاهل الدولة والامة .

وأما الملاحة ، وهي قرينـــة طرق الحديد ، فهي في جميع البلاد العثمانية اسم بلا مسمًّى . وإذا استثنينا بعض بويخرات تمخر في البوسفور لنقل المصطافين ، او تقطع دجلة لحساب الخزينة الخاصة ، او تتهادى بين ازمير والاستانة لحساب بعض الاهالي ، فليس في البلاد العثمانية كلهــا طائفة سفن تجارية ترود الثغور العثمانية وغيرها لحساب القوة الحاكمة او الامة المحكومة . أوليس من الغرائب ان تكون هــذه البلاد المتسعة الأرجاء ، وثغورها ممتدة الى الوف من الأميال ، وجزرها قائمة كالرواسي في قلب البحار ، ولها من الاشراف على الشواطىء ما تحسدها عليـه جميع دول اوروبا حتى انكلترا ملكة البحار ، مضطرة هي وحكومتها الى استخدام سفن الاجانب في اقل الحاجات .؟!

فاذا كان لنا زملاء مماثلون في التأخر والتقهقر في جميـع الشؤون فليس لنا من امم الارض أمة تماثلنا بتأخر ملاحتنا . وهذه اصغر الدول لا تعدم سفناً تجارية لها او لابنائها تمخر في عرض البحار . وهذه جارتنا ايران تجوب بواخرها خليج فارس والاقيانوس الهندي وغيرهما . وهـذه الدول الصغيرة التي انفصلت من جسمنا باتت جميعها ذات اساطيل تجارية. واذا كان سلك البحار بما بعد مسافة يسيرة عن الشاطيء ، مباحاً لجميع الدول على السواء وكان لنا غـنى بسفن الأجانب لنقل ركابنـا واصناف تجارتنا ، اليس من العار ان نكون مضطرين الى نقل بريـدنا بـين ثغر وثغر على سفن الاجانب مسافة ساعات ؟ !

فالملاحة من بعض جهاتها اشد لزوماً من طرق الاتصال الداخلية ، لانها من جهة تربط البلاد بعضها ببعض ، وهي مـن جهة اخرى عروة الوصل بينها وبين بلاد الاجانب . فهي بهـذا الاعتبار من اعظم اركان الثروة

والقوة والعظمة ؛ وهـذه الدولة الانكليزية يشهد تاريخها ان أسطولها التجاري كانت يده في انماء الثروة واعلاء شأن البلاد فوق يد الاسطول البحري بكل قوته وعظمته . . .

وليست وسائل النقل براً وبحراً داخل البلاد وخارجها على المسافات الشاسعة ، بأسوأ حالاً من وسائل انتقال اصناف الناس على المسافات القريبة داخل البلاد ، مما يمكن تسهيله بمدّ خطوط الترام او تسهيل طرق العربات . ولقد طالما رأينا المثرين من العثمانيين سكان المدن يؤثرون الاصطياف في اوربا تفادياً من مشقة السفر الى اريافهم العذبة الماء ، النقية الهواء ، ولا غرو فان ابن دمشق الشام مثلاً ، لايعاني في قطع البحار وصعود الجبال الى سويسرا ، نصف ما يعانيه هو وعياله ، يتسلق مشاعب الجبل الشرقي الى احدى قراه البديعة الموقع ، البهجة المناظر . هذا بصرف النظر عن سهولة المعيشة في تلك وصعوبتها في هذه . . .

اثناء معرض شيكاغو ، شخص اليها بعض تجار الاستانة فوصلوها بيوم مطير ، وبعض اطراف البلدة اذ ذاك غير مستتم التنظيم . فكتبت الجرائد : « وصلت اليوم زمرة من زوار المعرض قادمة من القسطنطينية ؛ فأهلاً بالضيوف . وانه ليسرنا جدا انهم وصلوا بمثل هذا اليوم والاوحال ملء الازقة ، فلا تأخذهم الوحشة لفراق عاصمتهم اذ يرون من قذارة شوارعنا ما يستأنسون به لذكرى وطنهم العزيز » !

السياحة : لا يعجبن القارىء اللبيب اذا عقدنا لهذا البحث باباً خاصاً الحقناه بابواب موارد الثروة ، وان كان لا يجوز حسبانه من مصادر الثروة الطبيعية ، ولا سيما في بلاد لا يجد السائح الغريب فيها كل ما تتطلبه نفسه من اسباب النزهة والراحة . فاننا الآن في ابان نهضة يجب ان نتطلّع من خلالها الى كل وسيلة من وسائل العمران ، والأموال التي ينفقها روّاد البلاد ليست بالمبالغ التي لا

يعتدّ بها ...

ولنا ان نطمع منذ الآن بجعل بلادنا نجعة الروّاد من كل طالب راحة وعافية ، وراغب في ترويض نظر وترويح نفس واستطلاع أثر ، ومن كل ورع متعبّد . وان لنا من اختلاف مواقعها وتاريخها ميزة خاصة تجتذب اليها السيّاح من كل فج سحيق . فان فيها مواطن الانبياء ومهابط الوحي ، فهي بهذا الاعتبار محجة المسلمين والمسيحيين وبني اسرائيل من كل أقطار الارض وليس هذا بالشيء القليل . اذ لو نظرت الى المعالم الدينية في اوربا وعلمت ان زوار واحدة منها كسيدة لورد مثلاً في فرنسا يربو على عدد جميع الزوار الذين ينتابون بيت المقدس من ابناء جميع الاديان ، تحققت اننا لو اعددنا هنا من اسباب الراحة في الحل والترحال ما اعدّوا هنالك ، لكان للبلاد من وراء ذلك مورد ثروة جديد ...

ومعلوم ايضاً ان البلاد العثمانية تضم في اكنافها اعظم معالم التاريخ القديم . ولا يخفى ما في ذلك من مشوّقات الزيارة لمستطلعي الاخبار ومكتشفي الآثار ، وكل سائح ضارب فى الارض عالماً كان او طالب نزهة مرتاض . ففيها مواطن البابليين والاشوريين والحثيين والسلوقيين، وفيها قامت دول المصريين والاسرائيليين والعرب والأرمن ودول اليونان ... وفيها كثير من آثار الدول التي احتلت بعض أجزائها كالفرس والرومان. ومنها أخذت نفائس الآثار التي تزدان بها متاحف باريس ولندن وبرلين وبطرسبرج .

ولقد طالما رأينا السياح يأتون من أقاصي الديار فيقطعون البوادي والقفار لرؤية تلك المعالم ، يعانون من المشاق ما لا يكادون يعانون اعظم منه في مجاهل افريقيا . تنظّم لهم القوافل ، وتحمل لهم المطابخ والخيام وتعدّ لهم المطايا ، فينفقون لرؤية آثار بابل وأشور ما ينفقونه بسياحة حول العالم .

وزد على ذلك انهم لا يبلغون جميع الامكنة التي يقصدونها لاختلال الأمن في كثير من تلك الاصقاع ، ومع هذا فلا نعدم منهم وفوداً عاماً بعد عام . فاذا مهّدت لهم الطرق وأُقيمت لهم الفنادق ، واعدت لهم اسباب الامن والراحة ، فما عسى ان يكون من اقبالهم وانتفاع البلاد بعلمهم ومالهم ...

وطالب النسيم العليل المنهزم من قيظ الهجير والجانح الى العزلة والسكينة فراراً من ضجة المدائن او استجماعاً لقوة انهكها توالي الاكباب على العمل ، لا يجدان في جبال سويسرا واشباهها معتصماً امنع ، ومرتعاً ابهج من الجبال المتشعبة في قلب كثير من الولايات الاوروبية والممتدة الى كيليكيا وسوريا . وحسبك منها جبال بيلان ولبنان والجبل الشرقي . قنن تتعالى ، بعض فوق بعض ، لك منها ما شئت لجميع الامزجة من قوي وضعيف ، من علو مئات الاقدام الى علو عشرة آلاف قدم تنفجر منها الينابيع بالماء الزلال ولا يشوبها تقلب الهواء الفجائي الذي يعتري جبال اوروبا ... واننا غير مغترّين بوفرة هذه المصادر الطبيعية للثروة ، ولسنا بطامعين ان تفيض ميازيبها نضاراً في سنة أو سنوات قلائل ، ولكنه لا بد من التنبه إلى ثروة يمكن الشروع منذ الآن في استدرارها شيئاً فشيئاً .

(عبرة وذكرى)

الفهرس

كتب للمؤلف

ذكرى سليمان البستاني ١٩٥٦

المتنبي ١٩٥٩

الفارابي ١٩٦٠

تحت الطبع

ابو نواس

فن الغزل

مطابع دار الغندور - بيروت

منشورات

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني

بيروت - ص.ب ٣١٧٦ - تلفون ٢٧٩٨٣

سلسلة الجديد في القراءة العربية :

جزءان لروضة الاطفال

خمسة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية)

سلسلة الجديد في الادب العربي :

اربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي العالي (الشهادة التكميلية)

جزءان لمرحلة التعليم الثانوي (البكالوريا)

سلسلة القواعد العربية الجديدة :

اربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية)

اربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي العالي (الشهادة التكميلية)

سلسلة دروس الاشياء والعلوم الجديدة :

خمسة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية)

الجديد في الجغرافيا :

اربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية)

اربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي العالي (الشهادة التكميلية)

جزءان لمرحلة التعليم الثانوي (البكالوريا)

سلسلة القواعد العربية :

في اربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي تأليف ا. ديب (الشهادة الابتدائية)

سلسلة التاريخ الجديد :

ثمانية اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي والتكميلي (الشهادة الابتدائية والتكميلية)

سلسلة الحساب الجديد :

سبعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية)

لمرحلة التعليم التكميلي (شهادة البريفه) :

PHYSIQUE. CHIMIE. ALGEBRE. GEOMETRIE.

الجديد في البحث الادبي (لمنهج البكالوريا) :

ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره (لمنهج البكالوريا)

MON NOUVEAU LIVRE DE GRAMMAIRE.

ثمانية اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي والعالي (الشهادة الابتدائية والتكميلية)

MON NOUVEAU LIVRE DE LECTURE ET DE FRANÇAIS

جزءان لمرحلة الروضة — خمسة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية)

اربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي العالي (الشهادة التكميلية)

THE NEW DIRECT ENGLISH COURSE.

احدث سلسلة لتعليم القراءة الانكليزية

جزءان لمرحلة الروضة

اربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي

THE NEW DIRECT ENGLISH GRAMMAR

احدث سلسلة لتعليم قواعد اللغة الانكليزية في ثلاثة اجزاء

DICTEES CHOISIES **الدليل العام لشهادة الدروس الابتدائية :**

حساب ، انشاء ، اشياء ، تاريخ ، جغرافيا ، املاء فرنسي ، املاء

ل.